الجمهورية اليمنية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأندلس للعلوم والتقنية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم الدراسات الإسلامية

المضامين التربوية في سورة آل عمران

وأثرها على الفرد والمجتمع

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية، تخصص: تفسير موضوعي

إعداد

الطالب/ مراد أحمد فرحان علي الشرعبي

إشراف

أ. د/ مجاهد يحيى محمد هادي

الأستاذ المشارك في قسم القرآن الكريم وعلومه – جامعة صنعاء

١٤٤٠ هـ – ٢٠١٨م.

قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

[آل عمران: ١٤٢]

إهـــــداء

إلى الله..

من غمرني بالنعم.. وسربلني بالمنن. ما كان لي أن أخطو لولاك..

منك أستمد العون، ومن عطائك أستلهم القوة. فلك الحب، ولك الحمد.

إلى أبي..

من كلَّل العرقُ جبينه.. وشققت الأيام يديه.

من علمني أن المجد والعلا يصاحبهما الصبر والعزيمة والإصرار.

إلى أمي..

خيمة الحنان، وغيمة المكان، من نذرت عمرها في صناعتي بلا فتور أو كلل.

من أعُدُّ رضاها جواز عبوري إلى رضا مولاي.

إلى زوجتي..

رفيقة الدرب، وشريكة الحب، من سارت معي نحو الحلم خطوة بخطوة.

ما بذرناه معًا.. سنحصده معًا، وسنبقى معًا، بإذن الله.

إليكم جميعًا أهدي ثمرة من ثمار غرسكم.

إليكم هذه الرسالة.

شكر وتقدير

في هذه السطور القليلة، والأحرف المتواضعة، أحببت أن أحمِّلها بعض المعاني التي تحمل الامتنان والشكر والعرفان، أرسلها على استحياء؛ لتعترف بالجميل لأهل الجميل، الذين لولا الله ثم جهودهم ما تم هذا العمل على ما هو عليه..

آيات الشكر أوجهها لكل من وقف معي بجهده ودعائه، وعلى رأسهم المشرف على هذه الرسالة: أ. **د/ مجاهد يحيى هادي**، رفع الله قدره، وأعلى مكانته. فما بخل بنصيحة، وما تردد عن توجيه، فله الشكر حتى يرضى.

كما أشكر المناقشَيْنِ الجليلين: أ. **د/ صالح الخمري**، **و** أ. **د/ على سراج**، على تفرغهما لدراسة هذا البحث وتدوين الملاحظات والنصائح المكملة له، والبالغة به إلى مكانة القبول العلمي.

ولا أنسى أن أشكر، **جامعة الأندلس للعلوم والتقنية**، ممثلة برئيسها أ، **د/ أحمد محمد برقعان**، وعميد الدراسات العليا: أ. **د/ يحيى قطران**، ورئيس قسم الدراسات الإسلامية: أ. **د/ مطيع شبالة**، على ما قاموا به من تذليل الصعاب، وتسهيل الوصول إلى إتمام الدراسة والبحث، فلهم الثناء والشكر، وخالص الدعاء والامتنان.

ثم أشكر توأم الدرب، ورفيق العمر/ **عبد الحليم مهيوب الشرعبي**، على ما بذله من المشورة والمساعدة.

وأشكر بالعموم كل رفاق الدرب، ومن شارك في معاونتي في مسيرتي هذه، وأقول: جزاكم الله خيرًا، وتمم لكم حياتكم بما يحب وتحبون.

وسأظل ممتناً لكم، معترفاً بجميلكم، داعياً لكم بالخير.

ملخص البحث

عنوان البحث: (**المضامين التربوية في سورة آل عمران وأثرها على الفرد والمجتمع**).

اسم الباحث: **مراد أحمد فرحان علي الشرعبي**.

اسم المشرف: **أ. د/ مجاهد يحيى محمد هادي**.

تطرق هذا البحث إلى استنباط المضامين التربوية في سورة آل عمران، وبيان أثرها على الفرد والمجتمع، وقد تضمن مقدمة وتمهيداً وثلاثة فصول وخاتمة. فأما المقدمة فتحدث فيها الباحث عن فضل كتاب الله المجيد، وما يحويه من المضامين التربوية العظيمة. وأما التمهيد: فقد استغرق التعريف بالسورة المباركة، وبمصطلحات البحث.

وفي الفصل الأول تحدث الباحث عما تحويه سورة آل عمران من مضامين متعلقة بالعقائد والعبادات والأخلاق، وذلك في ثلاثة مباحث، تناول كل قسم منها مبحثًا من المباحث.

وأما الفصل الثاني فاختص بالمضامين التربوية التي تتعلق بأهل الكتاب؛ إذ موضوعهم هو محور السورة وسبب نزول أغلبها، وقد اشتمل على مبحثين، الأول في المضامين المتعلقة بأهل الكتاب والتعامل معهم، والتعريف بهم، وآداب التعامل معهم، والنظرة العامة لهم، بينما تناول المبحث الثاني ما يتعلق بمجادلتهم ومحاورتهم، وذلك ببيان شروط المجادلة وآدابها وأساليبها.

وأما الفصل الثالث فتضمن الحديث عن جانب آخر تناولته السورة في عدد من آياتها، وهو جانب الجهاد في سبيل الله، والحديث عن غزوة أحد كنموذج للجهاد في سبيل الله، وميدانًا للتربية الإلهية، وقد اشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث، مبحث تناول الحديث عن الجهاد عمومًا، ومبحث اختص بالحديث عن غزوة أحد وما يتعلق بها من مضامين تربوية، واستنباط الدروس والآثار التربوية منها، وبيان إمكانية الاستفادة من دروسها كمنهج حياة متكامل، والمبحث الثالث استعرض فيه الباحث عوامل النصر وأسباب الهزيمة كما بينتها السورة أو ألمحت إليه.

ثم اختُتِم البحث بخاتمة تحمل أهم النتائج التي توصل لها الباحث من خلال مسيرة بحثه في أرجاء السورة الكريمة، والتي من أهمها: أن سورة آل عمران تناولت أركان التربية بشكل مميز، فخاطبت المربي والمتربي، ووضحت الوسيلة والأسلوب؛ وذلك بمنهج متكامل يستفيد منه كل من أراد الطريق التربوي السليم.

كما أن الباحث قد أورد في نهاية البحث جملة من التوصيات التي يرى أن الأخذ بها هام للغاية، ومن أهمها: أن يكون هناك مشروع تتبناه بعض الجامعات أو الجهات التي تعنى بدراسة كتاب الله عز وجل، يقوم المشروع بدارسة سور القرآن المجيد؛ باستنباط مضامينها المتنوعة، سواء كانت تربوية أو عقدية، أو فكرية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو غير ذلك؛ بحيث يتم اختيار السور المناسبة لكل جانب يتم دراسته، والعمل عليها بشكل منظم، ففي القرآن عجائب لا تنقضي، وفوائد لا تنفد أبدًا.

فهذا ما اشتملت عليه أوراق هذا البحث، وما دار الحديث عنه.

Abstract

The current study aimed at figuring out the pedagogical content and perspectives in the Surah of Al-'Imran so as to illustrate its impact on the social life. In the study introduction, the researcher outlined the virtues of the Holy Book in general with a thorough presentation of the content of the target Surah (Al-'Imran) in particular.

The first chapter of the study shows the relevant perspectives of doctrine, worship and ethics of Al-'Imran in three separate sections accordingly. The second chapter presents the educational contents related to The People of the Scriptures who are the main target reason of the Surah. It has two subsections discussing the morals and principles of how to deal with The People of the Scriptures and who they are and the ethics of how to interact and argue with them.

As for the third chapter, it investigates into a very different aspect being approached through some verses i.e. the aspects of Fighting and Jihad. The research analyzed the content with a particular reference to the Battle of Uhud. This chapter has three subsections; the first two sections outline the Fighting and Jihad in Islam and figure out the pedagogical lessons of Uhud

and the third section compares the factors of Victory and the causes of Defeat as illustrated by the Surah of Al-'Imran.

The conclusion presents the main findings of the study. Most importantly, it outlines how accurately the target Surah discusses and approaches the pillars of the Islamic pedagogy. This chapter further ends with some recommendations and suggestions for further studies. In this respect, the researcher recommends universities and study centers which fund Quranic studies to conduct a project aiming at studying the whole Surahs of the Holy Quran. It has to implicit and track in details all the pedagogical implications of such Surahs.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل التوراة والإنجيل وأنزل القرآن، وجعله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وأرشدنا للعمل به للفوز بالرضوان، وحيازة الدرجات العلى من الجنان، وصلى الله وسلم على البشير النذير، والسراج المنير، مَنْ اصطفاه الله وجعله سيد المرسلين، وأرسله رحمة للعالمين، ورسولًا للناس أجمعين. أما بعد.

فالقرآن الكريم منهج رباني متكامل، ودستور حياة شامل، فيه النور والهداية، وبه العصمة من الخطأ والضلالة، احتوى على آيات بينات، ودلائل واضحات، من اعتصم به هُدي إلى صراط مستقيم، ومن أعرض عنه فقد ضل سواء السبيل. وقد تضمنت كل آية من آياته عبرة، واشتملت كل كلمة فيه موعظة وحكمة.

وهذا البحث يتناول سورة من سوره العظام – وكلها كذلك –، وهي السورة الزهراء (آل عمران)؛ حيث يدرس ما تضمنته من الدروس التربوية، مع بيان أثرها على الفرد والمجتمع ما أمكن؛ ولذلك حَمَلَ عنوان: (**المضامين التربوية في سورة آل عمران وأثرها على الفرد والمجتمع**)؛ فإن السورة قد تضمنت دروسًا تربوية عديدة في مجالات مختلفة، وخاصة في المجال التربوي، ففيها خاطب الله المؤمنين من الجيل الأوّل ومَنْ بعدهم بخطاب بليغ، وعاتبهم بعتاب رقيق، وأرشدهم بأسلوب فريد.

وفي السورة تربية المؤمنين وإرشادهم لكيفية التعامل مع ربهم؛ بتوحيده والإيمان به، والقيام بالواجب عليهم من عبادته وطاعته، وبيان طريقة التعامل مع أهل الكتاب ومحاورتهم، وتوضيح الأسلوب الذي يمكن مجادلتهم به، وعتاب على ما حصل منهم في غزوة أحد من المخالفة، وبث لروح الرغبة في الجهاد لإعلاء كلمته تعالى وتبارك.

فكانت السورة مدرسة تربوية متكاملة، فيها تهذيب للسلوك، وتقويم للأخطاء، وإرساء لمبادئ تربوية في العقائد والعبادات والمعاملات؛ لهذه الأسباب وغيرها كان تسليط الضوء عليها في هذا البحث.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل مرضيًّا، وأن يتوِّجَه بالإتقان والإخلاص، فهو السميع المجيب، القادر القريب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى الآل الأطهار، والأصحاب الأبرار، ومن اقتفى أثرهم وعلى نهجهم سار.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا البحث في اهتمام القرآن الكريم بأصول منهج التربية والبناء للفرد والمجتمع المسلم، وذلك في آياته الكثيرة التي يؤدب الله بها عباده وأولياءه، يقوِّم بها أخطاءهم، ويزكي نفوسهم، ويرتقي بأخلاقهم. ويمكن إجمال أهمية هذا البحث في النقاط الآتية:

١-تعلقه بأشرف العلوم وأعظمها قدرًا، وأعلاها منزلة، وأسماها مكانة، وهو كلام الله تعالى.

٢-اشتمال سورة آل عمران على عدد كبير من الدروس التربوية التي يمكن الاستفادة منها في بيان أثرها على الفرد والمجتمع في مختلف شؤون الحياة، وهو ما سيبينه هذا البحث.

٣-أن سورة آل عمران رغم مكانتها التربوية العظيمة لم تُفْرد بدراسة تربوية شاملة لمضامينها التربوية، وذلك في حدود علم الباحث، وإنما تم تناولها من جوانب أخرى غير مستوفاة.

٤-يقوم باستنباط الأساليب التربوية، والكشف عن المواقف التربوية التي تناولتها السورة، وإبرازها للمربين بطريقة يمكن تناولها والانتفاع بها.

٥-يُقدِّم الحلول التربوية لبعض الممارسات ويقوم بتطبيقها واقعًا معاشًا، مع تسهيل الاستفادة منها.

٦-يُبرز جمال القرآن المجيد واشتماله على نظام حياة متكامل.

أسباب اختيار الموضوع:

١-الإسهام في خدمة كتاب الله تعالى وتدبره، وامتثال أمره حيث قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد:٢٤].

٢-تميُّز سورة آل عمران بتضمنها للعديد من الدروس التربوية التي تزخر بها آياتها البينات.

٣-الحاجة الماسة لهذه الدروس التربوية في الواقع المعاصر.

٤-الغفلة والبعد عن التنقيب في آيات القرآن الكريم وما تحويه من خزائن العلم والمعرفة، لدى كثير من الباحثين والكُتَّاب.

أهداف البحث:

١- الإسهام والكشف عن المضامين التربوية التي تضمنتها السورة في المجالات المتنوعة، وبيان أثرها على الفرد والمجتمع؛ إذ القرآن كتاب هداية ورشد.

٢- بيان اعتناء القرآن الكريم بالجانب التربوي وتناوله بشكل واسع في آيات جَمّة منه؛ وذلك من خلال الدراسة التحليلية للمضامين التربوية التي اشتملت عليها السورة المباركة.

٣- لفت الأنظار إلى تدبر الكتاب العزيز، واستخراج كنوزه، والتعرف على إعجازه في احتوائه لكل مناحي الحياة.

٤- المساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية؛ بإضافة دراسة تبين مقاصد القرآن التربوية وتأثيرها على مستوى الفرد والمجتمع.

أسئلة البحث:

يحاول الباحث من خلال هذا البحث الإجابة على التساؤلات الآتية:

١- ما مكانة سورة آل عمران التربوية في القرآن الكريم؟

٢- ما أهم المضامين التربوية التي تناولتها سورة آل عمران؟

٣- كيف عالجت سورة آل عمران كثيراً من المخالفات التربوية التي تحدث في المجتمع وتؤثر فيه؟

٤- كيف يمكن الاستفادة من المضامين التربوية المستنبطة من سورة آل عمران في الواقع المعاصر، والاستفادة من آثارها على الفرد والمجتمع؟

٥- ما أهم النتائج والتوصيات التي تم استنتاجها من سورة آل عمران؟

حدود البحث:

تنحصر حدود البحث حول الموضوع الذي يتم دراسته، وهي: المضامين التربوية في الجوانب المتعددة من الحياة، كجانب العقيدة والعبادات، والأخلاق والمعاملات - سواء كانت بين المسلمين بعضهم البعض، أو المعاملات بين المسلمين وأهل الكتاب وغيرهم -، وجانب الجهاد في سبيل الله عز وجل، مع بيان أثر هذه المضامين في حياة المجتمع والأفراد، ومحاولة ربطها بالواقع المعاش ما أمكن.

منهج البحث:

اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج التحليلي في تفسير آيات الله سبحانه وتعالى؛ عبر البدء بتمهيد قصير للموضوع، وانطلاقًا من الآيات القرآنية الدالة على الموضوع من سورة آل عمران، وكذا النصوص والاستدلالات، والوقائع التطبيقية من تاريخ المسلمين، والشواهد الأخرى المدعِّمة للموضوع، وهذه الخطوة هي الأساس التي يرتكز عليها البحث، ثم تأتي الخطوة المتممة لها، وهي القيام بذكر الأثر المترتب من الموضوع على الفرد والمجتمع، مع محاولة ربطها وتطبيقها على الواقع المعاصر ما أمكن.

أما في الحاشية فقد اعتمد الباحث على الخطوات الآتية:

١-عزو الآيات القرآنية إلى سُورها؛ وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية بين معقوفتين، حسب الرسم العثماني؛ تفاديًا لوقوع أخطاء في الآيات الكريمات.

٢-تخريج الأحاديث النبوية وعزوها إلى مصادرها الرئيسة، فما كان في الصحيحين اكتُفي به، وإلا فمن الكتب الستة وغيرها، مع ذكر أقوال العلماء في الحكم عليها إن وجدت.

٣-بيان معاني المفردات الغريبة الوارد ذكرها في البحث إن بدا أنها تحتاج لإيضاح وبيان.

٤-ترجمة الأعلام الواردة في البحث عدا الأنبياء والملائكة عليهم السلام.

٥-عزو الأقوال والنقولات لأصحابها وأماكنها بما يحقق الأمانة العلمية؛ وذلك بتوثيقها وذكر معلومات مصدرها؛ بذكر اسم الكتاب والمؤلف، مالم يتم ذكره في صلب الموضوع، فإن تم ذكر المؤلف يكتفى في الحاشية بذكر اسم الكتاب فقط، وعند استخلاص المعنى العام منها فيُكتفى بقول: (انظر) مع ذكر معلومات المصدر المستفاد منه. أما معلومات الكتاب كاملة فيتم إرجاؤها إلى الفهارس؛ تفاديًا لطول الحواشي.

القيام بعمل الفهارس اللازمة للوصول إلى المعلومة بأقرب طريق وأسهله في نهاية البحث.

الدراسات السابقة:

لم أقف بعد الاطلاع والبحث فيما يتعلق بهذا الموضوع على أية دراسة سابقة تتناوله من الناحية التربوية، وقد وقفت على رسائل عدة متعلقة بدراسة المضامين التربوية المستنبطة من سور القرآن الكريم، ويمكن تقسيم هذه الدراسات إلى قسمين:

القسم الأول: دراسات متعلقة بالمضامين التربوية في سور القرآن الكريم: وفي هذا القسم رسائل عدة وهي كالآتي:

١- وقفتُ على رسائل عدة لباحثين في جامعة أم القرى تحمل عنوان: (**المضامين التربوية**)، لكنها تناولت سوراً مختلفة في القرآن الكريم، كسورة الفاتحة، والتحريم، والحاقة، والحديد، والعلق، وغيرها من السور.

٢- رسالة ماجستير في جامعة أم القرى أيضًا بعنوان: (**المضامين التربوية المستنبطة من غزوة أحد وتطبيقاتها التربوية**)، للباحث: أبو بكر العمودي، لكنها مقصورة على أحداث غزوة أحد فقط، حيث تناولتها من الناحية التربوية والسياسية.

وتتفق هذه الرسالة مع رسالتي هذه بأنهما تناولتا غزوة أحد بالدراسة والبحث، إلا أن رسالتي هذه تناولت الحديث عن غزوة أحد كما صورتها سورة آل عمران، مع التعرض للمضامين التربوية الأخرى في السورة بأكملها.

٣- وقفتُ أيضًا على رسائل تناولت دراسة هذه السورة، ولكن من جوانب أخرى كالجانب البلاغي والنحوي وغيرهما.

القسم الثاني: دراسات متعلقة بسورة آل عمران: فهناك رسائل ودراسات تناولت الحديث عن سورة آل عمران تحديدًا، وهي:

١- رسالة دكتوراه بعنوان: (**التربية بالأحداث والوقائع في القرآن الكريم من خلال غزوة أُحد في سورة آل عمران**)، للباحث: مفتاح محمد حسين، صادرة من جامعة أم درمان بالسودان، وتتفق مع هذه الرسالة - كما أسلفت - بأنهما تناولتا غزوة أحد بالدراسة والبحث، إلا أن رسالتي هذه تختلف بأنها غير مقصورة على أحداث غزوة أُحد فقط، بل هي دراسة لبقية المضامين التربوية التي تزخر بها هذه السورة الكريمة.

٢- وهناك رسالة أخرى بعنوان: (**الدراسة التحليلية لمقاصد وأهداف الحزب السادس من القرآن الكريم. سورة آل عمران: الآيات ١٥- ٩٢**) للباحث: عبد الله حسين المغير، وهي دراسة تتناول تحليل الآية تلو الآية، والحديث عن كل آية على حدة، واستنباط ما فيها من مقاصد وأحكام وأهداف مختلفة، وتختلف هذه الدراسة عنها بأنها لا تتناول كل آيات سورة آل عمران بالتحليل والتفسير، وإنما تختص بدراسة الآيات التي تحوي مضامين تربوية واضحة، يمكن الاستفادة منها في المجتمع والحياة.

٣- وهناك كتاب يحمل عنوان: (**التربية الإسلامية في سورة آل عمران**) للمؤلف: علي عبد الحليم محمود، وهو كتاب يلقي الضوء على المعاني التربوية العامة، ويتناولها من مجالي الدعوة إلى الله، والحركة الإسلامية، متخذاً من سورة آل عمران مجالًا يصل من خلاله إلى توضيح تلك المعاني والمواقف بين يدي العاملين في مجال الدعوة إلى الله تعالى. وتختلف هذه الرسالة عنه أنها لم تقتصر على جانب الدعوة والحركة الإسلامية فقط، بل تناولت المضامين التربوية في المجالات المتنوعة المختلفة، سواء منها العقدية، أو الاجتماعية، أو السياسية وغيرها.

أما في جانب استنباط المضامين التربوية المتنوعة في السورة فلم أقف على أي مؤلف أو دراسة فيه. وقد صيغت هذه الدراسة بفصول ومباحث مختلفة عن الدراسات السابقة؛ لاختلاف مضمونها.

خطة البحث:

اشتملت خطة البحث على الآتي:

المقدمة: وفيها:

١- أهمية البحث.
٢- أسباب اختيار البحث.
٣- أهداف البحث.
٤- أسئلة البحث.
٥- حدود البحث.
٦- منهج البحث.
٧- الدراسات السابقة.
٨-

❖ **الفصل التمهيدي: التعريف بسورة آل عمران ومصطلحات البحث.**

وفيه مبحثان:

ـ المبحث الأول: التعريف بسورة آل عمران:

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: معلومات السورة: (أسماؤها، آياتها وكلماتها وحروفها، ترتيبها، الهدف العام لها).
- **المطلب الثاني**: نزولها: (سبب النزول، زمن النزول، مكان النزول)، وفضلها.
- **المطلب الثالث**: علاقتها بما قبلها وما بعدها من السور، موضوعاتها.

ـ المبحث الثاني: التعريف بمصطلحات البحث:

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول**: تعريف المضامين.
- **المطلب الثاني**: تعريف التربوية.
- **المطلب الثالث**: تعريف الأثر.
- **المطلب الرابع**: تعريف الفرد.
- **المطلب الخامس**: تعريف المجتمع.

❖ الفصل الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد والعبادات والأخلاق. وأثرها على الفرد والمجتمع.

وفيه ثلاثة مباحث:

ـ المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد:

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: ترسيخ العقيدة، والتحذير من الشرك، والدعوة إلى التدين بالإسلام.
- **المطلب الثاني**: محبة الله ورسوله ﷺ وشواهدها.
- **المطلب الثالث**: مظاهر الولاء والبراء.

ـ المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بالعبادات:

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول**: المداومة على العبادة والاستمرار فيها.
- **المطلب الثاني**: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- **المطلب الثالث**: الإنفاق في سبيل الله والتحذير من البخل.
- **المطلب الرابع**: التحذير من أكل الربا.
- **المطلب الخامس**: التفكر في مخلوقات الله.

ـ المبحث الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالأخلاق:

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول**: الاستعانة بالله في بناء الأسرة وتربيتها.
- **المطلب الثاني**: بيان قيمة المرأة في التربية وبناء الأخلاق.
- **المطلب الثالث**: الإحسان إلى الناس بكظم الغيظ والعفو عنهم.
- **المطلب الرابع**: الحرص على التزام الجماعة وتحقيق الأخوة.
- **المطلب الخامس**: الرحمة واللين في التعامل والخطاب.

❖ الفصل الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بأهل الكتاب والتعامل معهم. وأثرها على الفرد والمجتمع.

وفيه مبحثان:

ـ المبحث الأول: أدب التعامل مع أهل الكتاب:

وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول**: التعريف بأهل الكتاب.
- **المطلب الثاني**: إقامة الحجج والبراهين على بشرية عيسى عليه السلام.
- **المطلب الثالث**: الحرص على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام عند مجادلتهم.

- **المطلب الرابع**: العدل في النظر لأهل الكتاب والتعامل معهم.

ـ المبحث الثاني: مجادلة أهل الكتاب:

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول**: مفهوم مجادلة أهل الكتاب وشروطها.
- **المطلب الثاني**: نماذج من مجادلة النبي ﷺ لأهل الكتاب.
- **المطلب الثالث**: الثناء على أنبيائهم ومحاولة استمالة قلوبهم.
- **المطلب الرابع**: البدء في المجادلة بنقاط الاتفاق وتحرير محل النزاع.
- **المطلب الخامس**: التنويع في أساليب المجادلة والالتزام بآدابها.

❖ الفصل الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالجهاد في سبيل الله. وأثرها على الفرد والمجتمع.

وفيه ثلاثة مباحث:

ـ المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بأحكام الجهاد في سبيل الله:

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: الجهاد في سبيل الله.. تعريفه ومشروعيته.
- **المطلب الثاني**: فضل الجهاد في سبيل الله، وذكر مراتبه.
- **المطلب الثالث**: أهمية الشورى والاستماع للآراء قبل البدء في القتال.

ـ المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بما حصل في غزوة أحد:

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول**: ضرورة التمحيص والابتلاء بالشدائد لتمييز الخبيث من الطيب.
- **المطلب الثاني**: أثر المعصية الفردية والجماعية في حصول العقوبة والهزيمة.
- **المطلب الثالث**: أسلوب التعامل مع المتولين والمخطئين في غزوة أحد.

ـ المبحث الثالث: عوامل النصر وأسباب الهزيمة.

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول:** عوامل النصر.
- **المطلب الثاني:** أسباب الهزيمة.

❖ الخاتمة:

وفيها:

١- أهم النتائج.

٢- أهم التوصيات.

❖ الفهارس.

وتشتمل على:

- فهرسة الآيات القرآنية.
- فهرسة الأحاديث النبوية.
- فهرسة الآثار.
- فهرسة الأعلام.
- فهرسة الأماكن.
- فهرسة المصادر والمراجع.
- فهرسة المحتويات.

الفصل التمهيدي

التعريف بسورة آل عمران ومصطلحات البحث

الفصل التمهيدي:

التعريف بسورة آل عمران ومصطلحات البحث.

وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول: التعريف بسورة آل عمران.**

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** معلومات السورة: (أسماؤها، آياتها وكلماتها وحروفها، ترتيبها، الهدف العام لها).
- **المطلب الثاني:** نزولها: (سبب النزول، زمن النزول، مكان النزول)، وفضلها.
- **المطلب الثالث:** علاقتها بما قبلها وما بعدها من السور، موضوعاتها.

المبحث الأول: التعريف بسورة آل عمران.

المطلب الأول: معلومات السورة: (أسماؤها، آياتها وكلماتها وحروفها، ترتيبها، الهدف العام لها).

أولًا: أسماؤها: تعتبر سورة آل عمران من سور القرآن الكريم العظام، وكل سُورِهِ كذلك، وقد تميزت هذه السورة – كغيرها – بأن لها أسماء متعددة، وأسباب نزول مختلفة. وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ألا ترى أن القرآن الكريم تعددت أسماؤه حتى بلغت مائة اسم[1]؛ وما ذاك إلا لعظمته وشرفه.

وهذه السورة لها أسماء متعددة وهي:

١- آل عمران، وهو اسمها المشتهر، والذي حازت به شرف تسمية النبي ﷺ لها في الأحاديث المروية عنه كما سيأتي، وإنما سميت بهذا الاسم لأنها تحدثت عن الأسرة الكريمة، أسرة آل عمران، فذكرَت شيئًا من أخبارهم، وجانبًا من سيرتهم وصلاحهم، وبيان فضلهم، وعلو منزلتهم، وإن كان قد تكرر هذا الفضل لهم بأن سميت سورة أخرى باسم امرأة منهم، وهي سورة مريم. فهي ذرية طيبة مباركة، تستحق أن تكون أنموذجًا للأسرة المسلمة المترابطة. وقد ورد ذِكْرُ عمران[2] في هذه السورة مرتين في آيات متتالية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة آل عمران:٣٣-٣٥]. وكثيرًا ما ترد تسمية سور القرآن الكريم مشيرة إلى ما ورد فيها من هدف نبيل، أو موقف

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: (١/ ٨٨).

(٢) عمران بن ماثان، من أبناء ملوك بني إسرائيل، وهو من وَلَد سليمان عليه السلام، قال مكحول: وكان زكريا وعمران تزوجا أختين، فكانت أم يحيى عند زكريا، وكانت أم مريم عند عمران. انظر ترجمة زكريا عليه السلام: تاريخ دمشق: ابن عساكر: (١٩/ ٤٩).

غريب، أو ذكر لقصة معينة، أو أن تكون التسمية على أغلب ما اشتملت عليه السورة من المعاني والأحداث. وهكذا الحال في كل سور القرآن الكريم(١).

وحين التأمل في هذه السورة نجد أن أغرب ما جاء فيها وتركَّزَ الحديث حوله: هو ذلك التفصيل في شأن آل عمران وذريته، ابتداء بحمل امرأته بمريم(٢)، ثم نذرها بأن تهب ما في بطنها لله محرراً خالصًا، ثم جاء ذكر ولادة مريم، وكفالة زكريا عليه السلام لها، ثم تتابع الحديث عن مريم وملازمتها للعبادة والمحراب، وانتقل الحديث بتسلسل عجيب إلى قصة حمل مريم بعيسى عليه السلام ووضعه، ثم إرساله لبني إسرائيل وبقائه فيهم، حتى خُتم الكلام بذكر تآمر بني إسرائيل على قتله ورفعه إلى السماء عند رب العالمين.

ووَجْه تسمية هذه السورة بهذا الاسم: أنها ذُكرت فيها فضائل آل عمران، وتعرضت لذكر ما حدث لأسرته الكريمة(٣).

٢- الزهراء، وهذه التسمية مشتقة من الحديث النبوي الذي ورد في ذلك، فعن أبي أمامة الباهلي(٤) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ(٥) -الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛

(١) انظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور: جعفر شرف الدين: (٢/ ٣، ٤).

(٢) مريم بنت عمران بن ماثان بن المعازر، يصل نسبها إلى سليمان عليه السلام، الصديقة أم عيسى عليه السلام، واسم أمها: حنة. نذرتها أمها لخدمة الكنيسة، وكفلها زكريا عليه السلام، وكانت خالتها عنده، فكان عيسى ويحيى ابني خالة، فرباها تربية حسنة حتى ترعرعت، وبنى لها محراباً في بيت المقدس. حملت بعيسى من غير أب بكلمة من الله وروح منه، وهي من خير نساء العالمين وأكملهن عقلًا. وقيل: إنها بقيت بعد رفع عيسى خمس سنين، وكان عمرها ثلاثًا وخمسين سنة. انظر: تاريخ دمشق: ابن عساكر: (٧٠/ ٧٥، ١٢٢).

(٣) انظر: التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (٣/ ١٤٣).

(٤) أبو أمامة صديّ بن عجلان بن الحارث، الباهلي، غلبت عليه كنيته، صحب رسول الله ﷺ وروى عنه. سكن الشام وهو آخر من توفى بها من الصحابة - وقيل غيره - سنة: (٨١هـ). انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٢/ ٧٣٦)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ١٥).

(٥) قال الصديقي: «الزهر والزهرة: البياض النيِّر، وهو أحسن الألوان». مجمع بحار الأنوار: (٢/ ٤٤٨).

فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ[1]، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[2]، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا))[3].

وأما عن سبب تسمية البقرة وآل عمران بالزهراوين فقد قال القرطبي[4] رحمه الله: «للعلماء في تسمية البقرة وآل عمران بالزهراوين ثلاثة أقوال:

الأول: إنهما النيِّرَتان، مأخوذ من الزَّهْرِ وَالزُّهْرَةِ، فإما لهدايتهما قارئهما بما يُزْهِر له من أنوارهما، أي من معانيهما، وإما لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة، وهو القول الثاني.

الثالث: سُمِّيتا بذلك لأنهما اشتركتا فيما تضمّنه اسم الله الأعظم، كما ذكره أبو داود[5] وغيره عن أسماء بنت يزيد[6] أن رسول الله ﷺ قال: ((اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ

---

(١) قال ابن الجوزي: «قال أبو عبيد: الغَيَايَة: كل شيء أظلَّ الإنْسَان فَوق رَأسه مثل السحابة والغبرة، ويُقال: غايا القَوم فوق رأس فلان بالسَّيف، كأنَّهم أظلوه». كشف المشكل من حديث الصحيحين: (٤ / ١٥٠).

(٢) قال ابن الجوزي: «الْفِرْقُ: القطعَة من الشَّيْء، قَالَ عز وجل:﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٣]، وَيُقَال للقطيع من الْغنم: فِرْقٌ. وَمعنى قَوْله: «فِرْقَان» قطعتان. وَقَوله: «صَوَافّ» أَي: مصطفة متضامة لتظلِّل قَارِئهَا». كشف المشكل من حديث الصحيحين: (٤ / ١٥٠).

(٣) صحيح مسلم، برقم: (٨٠٤)، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة: (١/ ٥٥٣).

(٤) محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف عدة تدل على ذكائه وكثرة اطلاعه، ووفور فضله، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان؛ وهو كامل في معناه، وهو أشهر كتبه، وكذا كتاب: (التذكرة)، وغيرها. توفي في صعيد مصر أوائل سنة: (٦٧١ هـ). انظر: تاريخ الإسلام: الذهبي: (١٥/ ٢٢٩)، والوافي بالوفيات: الصفدي: (٢/ ٨٧).

(٥) أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني. صاحب السنن، الإمام الثبت، سيد الحفاظ، ولد سنة: (٢٠٢هـ)، كان كثير الحفظ والاشتغال بالحديث، حتى قيل: لقد لُيِّنَ لأبي داود الحديث كما لُيِّنَ لداود الحديد، وقال هو عن نفسه: كتبت عن رسول الله خمسمائة ألف حديث، انتخبتُ منها هذا السنن، فيه أربعة آلاف وثمانية مائة حديث. توفي سنة: (٢٧٥هـ) بالبصرة. انظر: تذكرة الحفاظ: الذهبي: (٢/ ١٢٨)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي: (١٣/ ٢٠٣).

(٦) أسماء بنت يَزِيد بن السكن الأنصارية، أحد نساء بني عبد الأشهل، وكانت من المبايعات. وهي ابنة عمة معاذ بن جبل، تكنى أم سلمة، وقيل: أم عامر. كانت من ذوات العقل والدين. قتلتْ يوم اليرموك تسعة من الروم بعمود فسطاطها. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/ ١٧٨٧)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٧/ ١٦).

وَاحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة:١٦٣]، وَالَّتِيْ فِيْ آل عِمْرَان: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران:٢]))[١]»[٢]. ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني.

٣- طيبة، وهذا الاسم ذكره ابن عطية[٣] رحمه الله فقال: «وذَكَر النقّاش[٤] أن اسم هذه السورة في التوراة: طيبة»[٥]. وقال الإمام القرطبي رحمه الله: «وَحَكَى النَّقَّاشُ أَنَّ اسْمَهَا فِي التَّوْرَاةِ طَيْبَةُ»[٦]. وإنما سميت بهذا الاسم لجمعها بعض صفات الطيبين وأصنافهم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [سورة آل عمران:١٧][٧].

٤- تاج القرآن، وهذا اسم أورده البقاعي[٨] رحمه الله في سياق ذكره لسورة البقرة وأنها سنام القرآن فقال: «فلذلك كانت سورة البقرة سنامًا له، والسّنام أعلى ما في الحيوان المنكَبّ، وأجْملُه جُمْلة

---

(١) سنن أبي داود، برقم: (١٤٩٦)، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء: (٢/ ٦١٣)، وسنن الترمذي، برقم: (٣٤٧٨)، باب: جوامع الدعوات: (٥/ ٥١٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وسنن ابن ماجه، برقم: (٣٨٥٥)، أبواب الدعاء، باب: اسم الله الأعظم: (٢٤/٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (٩٨٠)، حرف الألف: (١/ ٢٢٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٤/ ٣).

(٣) عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية الغرناطي، الإمام المفسر الكبير. ولد سنة: (٤٨٠هـ). كان فقيهًا، عارفًا بالأحكام، والحديث، والتفسير، بارع الأدب، بصيرًا بلسان العرب، واسع المعرفة، له يد في الإنشاء والنظم والنثر، ألّف كتابه المسمى: (المحرر الوجيز) فأحسن فيه وأبدع، وطار صيته كل مطار. توفي سنة: (٥٤١هـ). انظر: طبقات المفسرين: السيوطي: (ص: ٦٠، ٦١)، وطبقات المفسرين: الداودي: (١/ ٢٦٦).

(٤) أبو بكر محمد بن الحسن بن محمد الموصلي البغدادي، النقاش. المقرئ المفسر. ولد سنة: (٢٦٦هـ). إمام أهل العراق في القراءات والتفسير. صنف التفسير وسماه: (شفاء الصدور)، وله غيره من المؤلفات في غريب القرآن ودلائل النبوة والقراءات بعللها. وهو مع جلالة قدره في التفسير إلا أن أحاديثه ضعيفة. توفي سنة: (٣٥١هـ). انظر: معرفة القراء الكبار: الذهبي: (ص: ١٦٧)، وطبقات المفسرين: السيوطي: (ص: ٩٤، ٩٥).

(٥) المحرر الوجيز: ابن عطية: (١/ ٣٩٦).

(٦) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي: (٤/ ١).

(٧) انظر: التفسير الوسيط: محمد سيد طنطاوي: (٢/ ٥).

(٨) إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي، أصله من البقاع في سورية، ولد سنة: (٨٠٩هـ)، وسكن دمشق، ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة. له عدة مؤلفات أشهرها: (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، وهو لطيف الحجم، يتعلق بعلم التفسير، قال السيوطي: هو مؤلف لم يسبقه إليه أحد، جمَع فيه من أسرار القرآن العظيم ما تتحير منه العقول. توفي بدمشق سنة: (٨٨٥ هـ). انظر: طبقات المفسرين: الأدنه وي: (ص: ٤٥٣، ٤٥٥)، ومعجم المفسرين: عادل نويهض: (١/ ١٧).

وهو البعير، وكانت سورة آل عمران تاج القرآن، والتاج هو أعلى ما في المخلوقات من الخلق القائم المستخلف في الأرض»[1]. ولعل هذا الاسم من الصفات التي يمكن أن توصف به سورة آل عمران.

٥- ذَكَر الآلوسي[2] رحمه الله أن من أسمائها: «الأمان، والكنز، والمعنية، والمجادلة، وسورة الاستغفار»[3]. وقد استفرد بذكر هذه الأسماء، ولم يذكرها أحد سواه، قال الطاهر بن عاشور[4] رحمه الله: «ولم أره لغيره، ولعله اقتبس ذلك من أوصاف وُصفت بها هذه السورة مما ساقه القرطبي في المسألة الثالثة والرابعة من تفسير أول السورة»[5].

ولعل هذه الأسماء - أيضًا - من ضمن الأوصاف التي كان الصحابة ومن بعدهم يصفون بها هذه السورة المباركة، فاعتبرها الآلوسي رحمه الله من ضمن أسمائها، خاصة وأنه لم يُوردها أحد غيره.

وبهذا يتبين أن أسماء سورة آل عمران المتفق عليها والواردة في النصوص وكتب التفسير اسمان هما: آل عمران، والزهراوين، وهما اللذان وردت بهما النصوص الصريحة، يليهما: اسم طيبة، فهو وإن لم يكن فيه نصٌّ إلا أنه قد تناوله بعض أهل التفسير بالذكر دون اعتراض، ويلي هذه الأسماء: ما ذكره البقاعي والآلوسي رحمهما الله من الأسماء التي يُحتمل أن تكون أوصافًا لهذه السورة وليست من مسمياتها.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي: (٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي. مفسر، محدث، أديب، من أهل بغداد، ولد سنة: (١٢١٧هـ). كان سلفي الاعتقاد. له عدد من المؤلفات من أشهرها: (روح المعاني) وغيره في الأدب واللغة. ونسبة الأسرة الآلوسية إلى جزيرة (آلوس) في وسط نهر الفرات، فرّ إليها جد هذه الأسرة من وجه هولاكو فنسب إليها. توفي في بغداد سنة: (١٢٧٠ هـ). انظر: الأعلام: الزركلي: (٧/ ١٧٦)، ومعجم المفسرين: عادل نويهض: (٢/ ٦٦٥).

(٣) روح المعاني: محمود الآلوسي: (٢/ ٧١).

(٤) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه. مولده ووفاته ودراسته بها، ولد سنة: (١٢٩٦هـ). عيِّن شيخًا للإسلام، ومذهبه مالكي. له مصنفات عدة من أشهرها: (التحرير والتنوير) و(مقاصد الشريعة الإسلامية) وغيرها، توفي سنة: (١٣٩٣هـ). انظر: الأعلام: الزركلي: (٦/ ١٧٤)، وتراجم المؤلفين التونسيين: محمد محفوظ: (٣/ ٣٠٤).

(٥) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (٣/ ١٤٣).

ثانيًا: عدد آياتها، وكلماتها، وحروفها:

عدد آيات سورة آل عمران: (مائتا آية) بإجماع القرّاء والمفسرين[1]، إلا ما حُكي عن بعض الرواة أن عددها يَنْقُصُ آيةً عند الشاميين، فيكون عدد آياتها: مائة وتسعة وتسعين آية[2].

وعدد كلماتها: (ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة)[3].

وعدد حروفها: (أربعة عشر ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرون حرفًا)[4].

ثالثًا: ترتيبها: ويتلخص الحديث عن ترتيب سورة آل عمران في ثلاث نقاط:

الأولى: ترتيبها في سور القرآن الكريم حسب المصحف: فإن سورة آل عمران تأتي في المرتبة الثالثة في ترتيب سور القرآن الكريم حسب المصحف المتواجد اليوم، بعد سورة الفاتحة والبقرة، وهو الترتيب الذي سار عليه الصحابة ومن بعدهم من التابعين والأئمة الأعلام[5]، وهي بهذا الترتيب ضمن السبع الطّوال[6].

الثانية: ترتيبها من حيث النزول: فقد نزلت بعد سورة البقرة بالمدينة[7]، وقيل: هي ثالث سورة نزلت بالمدينة بعد المطففين والبقرة، وقيل: إنها نزلت في وقعة أُحد في السنة الثالثة، أي بعد سورة

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي: (١/ ١٥٨)، تفسير المراغي: أحمد المراغي: (٣/ ٩٠).

(٢) انظر: فنون الأفنان: ابن الجوزي: (ص: ٢٨١)، والتحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (٣/ ١٤٤)

(٣) انظر: الكشف والبيان: أحمد بن محمد الثعلبي: (٣/ ٥)، وبصائر ذوي التمييز: الفيروزآبادي: (١/ ١٥٨)، والتفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (٢/ ٣٩٣).

(٤) انظر: المصادر السابقة.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي: (١/ ٥٩).

(٦) السبع الطُّوال هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، في قول ابن عباس رضي الله عنهما كما أخرجه ابن ضريس في فضائل القرآن برقم: (١٨١)، باب: في فضل سورة البقرة: (ص: ٨٩)، وهو قول سعيد بن جبير أيضًا. كما في شُعَب الإيمان، برقم: (٢١٩٥)، باب: تخصيص خواتيم سورة البقرة بالذكر: (٤/ ٧٣). وسُميت الطُّوَال؛ لطولها على سائر سُوَر القرآن.

(٧) إذا قيل: المدينة، غير مضافة عُلم أنّها مدينة الرسول ﷺ. ولها من الأسماء تسعة وعشرين، وأشهرها: المدينة، ويثرب، وطيبة، وطابة. وهي بمقدار نصف مكة، ومن خصائصها: أن فيها قبر سيد البشر ﷺ، ومقابر كثير من الصحابة رضي الله عنهم، وتمرها من أفضل تمر البلدان، وفيها جبل أُحُد الذي أحبه رسول الله، وهي حَرَمٌ كمكة، دعا رسول الله ربه بأن يحببها إليهم كمكة أو أشد، وأن يبارك في صاعها ومدها، وينقل حماها إلى خارجها. انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: أبو عبيد الأندلسي: (١٢٠١/٤، ١٢٠٢)، ومعجم البلدان: ياقوت الحموي: (٥/ ٨٢- ٨٨).

الأنفال التي نزلت في غزوة بدر، واختار هذا القول ابن عاشور رحمه الله[1]. وقد نزلت قبل سورة الأحزاب[2].

وليس المقصود بالقول: نزلت سورة كذا بعد سورة كذا أنه ابتُدئ نزولها بعد انتهاء نزول الأخرى، بل المقصود أنه ابْتُدئ نزولها بعد ابتداء نزول التي سبقتها، وأن كانت لم تكتمل، فكثير من سور القرآن الكريم تنوعت أوقات نزول آياتها[3].

الثالثة: ترتيبها من حيث تعداد تنزيل سور القرآن: فإن سورة آل عمران تُعدُّ السورة الثامنة والأربعون في عداد تنزيل سور القرآن الكريم[4].

رابعًا: الهدف العام للسورة: الثبات على المنهج[5]:

تتصف سورة آل عمران كغيرها من سور القرآن الكريم بأن لها وحْدةً موضوعية واحدة، وهدفًا محددًا، وهدفها وثيق الصلة بهدف سابقتها، والتي عرضت المنهج الذي يجب على المسلمين اتباعه، والأحكام والتشريعات التي تنظم لهم الحياة في الأرض، وأنهم إن عملوا بذلك استُخْلِفُوا في الأرض، فجاءت هذه السورة لتُضْفِي عوامل هامة في لزوم هذا المنهج، وتُحدِّد معالم واضحة لثبوت القدم على طريق المنهج السوي.

ولما كان سبب التذبذب عن المنهج يأتي من ناحيتين، فقد تعرضت لهما السورة ببيان مستفيض؛ فإن الناس إنما يضلون عن المنهج الحق بسبب الأفكار الخاطئة التي تشوش عليهم عقيدتهم وتفكيرهم، أو بسبب الانشغال بالحياة الدنيا، مما يُبيِّن أن لعدم الثبات على المنهج سببان: الأول: فكري داخلي،

(١) انظر: التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (٣/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) انظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور: جعفر شرف الدين: (٢/ ٥)

(٣) انظر: التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (٣/ ١٤٣، ١٤٤).

(٤) انظر: المصدر السابق: (٣/ ١٤٤).

(٥) هذه الفقرة مستفادة من كتاب: خواطر قرآنية: عمرو خالد: (ص: ٤٦- ٦٤).

والثاني: عملي خارجي. وقد انقسمت آيات هذه السورة الكريمة إلى قسمين فيهما علاج هذين السببين:

القسم الأول: الآيات الدالة على الثبات الفكري، والتزود العلمي، المضادان للأفكار الخارجية، وهي: (من آية: ١- ١٢٠).

ويقوم هذا القسم بتزويد البيئة المسلمة بجملة من المفاهيم والأسس العقدية والفكرية التي تُكْسِبهم ثباتًا فكريًا وعقديًا ضد كل الأفكار الخاطئة، فبيَّنت الآيات ما يجب على العبد معرفته تجاه ربه، والكتب التي أنزلها، والرسل الذين أرسلهم، وبيَّنت طريقة دحر الأفكار والعقائد الباطلة؛ عبر مجادلة أهل الكتاب، وإبطال زعمهم في عيسى عليه السلام، واعتقاد إلهيته.

القسم الثاني: الآيات الدالة على الثبات العملي، وهو الثبات الداخلي للفرد المسلم، وهي: (من آية: ١٢١- نهاية السورة).

ويقوم هذا القسم من الآيات بتزويد الفرد بالعوامل المثبِّتة له أمام المؤثرات الداخلية؛ وذلك من خلال الحديث عن غزوة أُحد التي كانت مدرسة متكاملة في التربية بالأحداث والوقائع، فإن كثيرًا من المؤمنين لم يثبتوا في تلك الغزوة، فبانت لهم أسباب عدم ثباتهم، واتضحت لهم نقاط الضعف التي جاءتهم من قِبَلِهَا الهزيمة، ومسَّهم بسببها القَرْحُ.

ومما يدل على أن الثبات على المنهج هو هدف السورة العام: أنها افتُتِحَتْ بما يدل المسلم عليه؛ وذلك ببيان صفات الله تعالى، وأنه هو واهب الثبات، وأن كتابه إذا فُهِمَ فهمًا صحيحًا ففيه الثبات الفكري، وأن رسله عليهم السلام هم دعاة الثبات، فقد ثبتوا على تبليغ منهج ربهم، وصبروا في سبيل إيصاله إلى الخلق، فافتتحت السورة بقوله جل شأنه: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾ [سورة آل عمران:١-٣]،

واختتمت بالدعوة الصريحة إلى الثبات، وبيان الثواب عليه، فقال تعالى شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران:٢٠٠].

وفي السورة بيان كثير من عوامل الثبات، كما أن فيها إيضاحًا للعقبات التي تقف حِيَالَهُ. **فمن عوامل الثبات** ما يأتي:

١-اللجوء إلى الله والإلحاح في دعائه.

٢-التزام الجماعة، والحفاظ على الأخوة.

٣-استدامة العبادة والاستمرار عليه.

٤-الدعوة إلى الله تعالى، فمن دعا إلى شيء زادت قناعته به.

٥-الصبر والمصابرة والمثابرة.

أما عقبات الثبات فأهمها:

١-اتباع الشبهات بقصد الفتنة والتأويل.

٢-اتباع الشهوات الْمُزَيَّنة والانصياع لها.

٣-اقتراف الذنوب والمعاصي والمخالفات.

٤-حصول الاختلاف وعدم الطاعة.

٥-التعلق بالأشخاص على حساب المنهج.

وهكذا يتضح الهدف العام للسورة، من خلال الآيات المتظافرة في بيان ذلك.

المطلب الثاني: نزولها: (سبب النزول، زمن النزول، مكان النزول)، وفضلها.

أولًا: نزولها: إن مما يميز بعض سور القرآن الكريم أن لها أسباب نزول، ووقائع تنزّلت الآيات بسببها، وأحداثًا جاء القرآن ببيانها وتفسير ما أشكل منها، وكذلك الحال في سورة آل عمران،

وسيتم الحديث عن نزولها في ثلاثة محاور:

المحور الأول: سبب نزولها: فإن لسورة آل عمران أسباب نزول عدة، متوزعة حسب ما فيها من أحداث ووقائع، ولست هنا بصدد إحصائها وسردها، ولكني سأكتفي بالسبب الرئيس لتنزُّل السورة كما يذكر ذلك أغلب أهل التفسير وهو:

وفد نصارى نجران[1]:

يُعتبر سببُ النزول الرئيس للسورةِ الكريمة هو قدوم وفد نجران إلى رسول الله ﷺ؛ يخاصمونه في شأن عيسى عليه السلام، وقد كانوا من قساوسة النّصارى ورهبانهم، فجاءوا مستغربين ادِّعاء النبي ﷺ مولد عيسى عليه السلام من أم بلا أب، واعتبروه بذلك قد نال من عيسى عليه السلام وتطاول عليه؛ إذ كيف يزعم أنه عبد، وأنه مولود من أم بلا أب؟ فجادلهم رسول الله ﷺ في ذلك، ووصل بهم الحال إلى المباهلة والملاعنة[2]، فنكصوا على أعقابهم، وارتدوا على أدبارهم، وتنصلوا عن المباهلة، وطلبوا القبول بدفع الجزية منهم، فقبلها النبي ﷺ، وفيهم أنزل الله صدر سورة آل عمران إلى نيف وثمانين آية منها[3]، وقيل: إلى نيف وثلاثين آية كما سيأتي.

---

(١) نجران: مدينة بالحجاز من شقّ اليمن، وهي بلدة معروفة، سمّيت بنجران بن زيد بن يشجب بن يعرب. وهو أوّل من نزلها. وأطيب البلاد كما قيل: نجران من الحجاز، وصنعاء من اليمن، ودمشق من الشام، والرّيّ من خراسان. وكانت من مخاليف اليمن من ناحية مكة قديمًا، وفيها: كعبة نجران، وهي بِيْعَة بنوها على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة، وكان فيها الأساقفة الذين جاءوا إلى رسول الله ودعاهم إلى المباهلة. انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: أبو عبيد الأندلسي: (٤/ ١٢٩٨، ١٢٩٩)، ومعجم البلدان: ياقوت الحموي: (٥/ ٢٦٦، ٢٧١).

(٢) المباهلة والملاعنة مترادفتان، يقال: ما لَهُ بَهَلَهُ الله، أي لعنه، ومعنى المباهلة: «أن يجتمع القوم إذا اختلفوا، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منّا». الغريبين في القرآن والحديث: أبو عبيد الهروي: (١/ ٢٢٨)، كتاب: الباء، باب: الباء مع الهاء، مادة: (بَهَلَ).

(٣) انظر: أسباب النزول: الواحدي: (ص: ٩٧، ٩٨)، والهداية إلى بلوغ النهاية: مكي بن أبي طالب: (٢،٩٤٧).

قال ابن جرير الطبري[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ذُكِرَ أن هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به من نفي الألوهية أن يكون لغيره، ووصفه نفسه بالذي وصفها به ابتداءها؛ احتجاجا منه بذلك على طائفة من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ من نجران، فحاجوه في عيسى صلوات الله عليه، وألحدوا في الله، فأنزل الله عز وجل في أمرهم وأمر عيسى من هذه السورة نيفا وثلاثين آية من أولها، احتجاجا عليهم وعلى من كان على مثل مقالتهم لنبيه محمد ﷺ، فأبوا إلا المقام على ضلالتهم وكفرهم، فدعاهم إلى المباهلة، فأبوا ذلك وسألوا قبول الجزية منهم، فقبلها ﷺ منهم، وانصرفوا إلى بلادهم»[2].

وعن جابر بن عبد الله[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن وفد نجران أتوا النبي ﷺ فقالوا: ((مَا تَقُولُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ: هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، قَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ نُلَاعِنَكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ قَالَ: وَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا شِئْتُمْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَمَعَ وَلَدَهُ وَالْحَسَنَ[4] وَالْحُسَيْنَ[5] فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: لَا تُلَاعِنُوا هَذَا الرَّجُلَ؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ لَاعَنْتُمُوهُ لَيُخْسَفَنَّ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ. فَجَاءُوا

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، استوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، وله العديد من المؤلفات: أشهرها: تاريخ الأمم والملوك، وكتابه في التفسير الذي لم يصنف أحد مثله. توفي سنة: (٣١٠هـ). انظر: طبقات المفسرين: السيوطي (ص: ٩٥ - ٩٧)، وطبقات المفسرين: الداودي: (٢/ ١١٠- ١١٨).

(٢) جامع البيان: الطبري: (٦/ ١٥٠، ١٥١).

(٣) أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام. شهد هو وأبوه العقبة، وذُكر أنه كان يمنح لأصحابه في يوم بدر الماء، غزا مع رسول الله تسع عشرة غزوة. رحل إلى مصر ودخل الشام، وجاور بمكة أشهرًا، وهو ممن أكثر الأحاديث عن رسول الله. ذهب بصره آخر عمره، وتوفي بالمدينة سنة: (٧٧هـ)، وقيل غير ذلك، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة من أهل العقبة. انظر: معرفة الصحابة: أبو نعيم الأصبهاني: (٢/ ٥٢٩)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (١/ ٤٩٢).

(٤) أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب، حفيد رسول الله. ولد سنة: (٣هـ)، وسماه رسول الله وعقّ عنه. كَانَ أَشْبَهَ الناس برسول الله، وشهد له بأنه سيد، وأن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. وأخبر أنه وأخوه الحسين سيدا شباب أهل الجنة، وأعلن حبهما قولًا وفعلًا. تنازل بالخلافة لمعاوية؛ لئلا تراق لأجله قطرة دم، مع أنه قد بايعه أربعون ألفًا على الموت. توفي بالمدينة سنة: (٤٩هـ). وقيل غير ذلك، ودفن ببقيع الغرقد، وقد مات مسمومًا، وأبى الإفصاح عن قاتله؛ خشية إراقة الدم. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (١/ ٣٨٣- ٣٩٢)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٢/ ١٣).

(٥) أبو عَبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب، أمه فاطمة بنت رسول الله، ولد بعد الحسن بسنة وعشرة أشهر سنة: (٤هـ)، وقيل: (٣هـ)، وعقّ عنه رسول الله. كان فاضلًا دينًا كثير العبادة. دعا رسول الله ربه أن يحبه؛ لأنه يحبه. راسله أهل الكوفة لأجل البيعة فخرج إليهم فغدروا به وقتلوه يوم عاشوراء سنة: (٦١هـ) بكربلاء، وقُتل معه سبعة عشر رجلًا من ولد فاطمة ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (١/ ٣٩٩، ٣٩٢)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٢/ ٢٤).

فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَكَ سُفَهَاؤُنَا، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تُعْفِيَنَا، قَالَ: قَدْ أَعْفَيْتُكُمْ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظَلَّ نَجْرَانَ))[1].

وعن ابن عباس ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩]: «وذلك أن رهطا من أهل نجران قدموا على محمد الطيب ﷺ وكان فيهم السيد[2] العاقب[3]، فقالوا لمحمد: ((مَا شَأْنُكَ تَذْكُرُ صَاحِبَنَا؟ قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالُوا: عِيسَى، تَزْعُمُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ. فَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: أَجَلْ إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالُوا لَهُ: فَهَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ عِيسَى أَوْ أُنْبِئْتَ بِهِ؟ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِأَمْرِ رَبِّنَا السَّمِيعِ الْعَلِيمِ فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ إِذَا أَتَوْكَ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [سورة آل عمران: ٥٩، ٦٠]))»[4].

المحور الثاني: زمن نزولها: فقد نزلت بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، وكان نزولها هي وسورة البقرة فيها، وقيل: إنها نزلت في وقعة أُحد في السنة الثالثة من الهجرة، أي بعد سورة الأنفال التي نزلت في غزوة بدر[5]. وقد نزلت قبل سورة الأحزاب[6].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، برقم: (٤١٥٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه»، ووافقه عليه الذهبي. كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء، باب: ذكر نبي الله وروحه: (٢/ ٦٤٩). وأصل قصة وفد نجران مذكورة في صحيح البخاري، برقم: (٤٣٨٠)، كتاب: المغازي، باب: قصة وفد نجران: (٥/ ١٧٢).

(٢) السيّد النّجراني: ذكر ابن سعد والمدائني أنه قدم على النبيّ ﷺ فأسلم، قال: «فرجعوا إلى بلادهم، فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً حتى رجعا إلى النّبي ﷺ فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيّوب الأنصاريّ». واسمه: الأيهم (بياء تحتانية مثناة)، وكان صاحب رحلهم في وفدهم على رسول الله. انظر: أسد الغابة: ابن الأثير: (٤/ ٤٧٥)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني: (٣/ ١٩٦).

(٣) العاقب: أمير القوم في نجران، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره؛ واسمه عبد المسيح. انظر: تاريخ الإسلام: الذهبي: (١/ ٤٦٦)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي: (٢/ ٢٨٥).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم، برقم: (٣٦٠٦)، في تفسير قوله تعالى:﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]: (٢/ ٦٦٥)، وأصل قصة وفد نجران مذكورة في صحيح البخاري، برقم: (٤٣٨٠)، كتاب: المغازي، باب: قصة وفد نجران: (٥/ ١٧٢).

(٥) انظر: التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (٣/ ١٤٣، ١٤٤).

(٦) انظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور: جعفر شرف الدين: (٢/ ٥)

المحور الثالث: مكان نزولها: نزلت سورة آل عمران في المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام[١]، فهي مدنية باتفاق العلماء، ولم يقل أحد بغير ذلك، وأغلب من فسرها ذكر أنها مدنية، قال ابن عطية رحمه الله: «هذه السورة مدنية بإجماع فيما عَلِمْتُ»[٢]، وقال ابن الجوزي[٣] رحمه الله: «ذَكَر أهل التفسير أنها مدنيّة»[٤]، وقال القرطبي رحمه الله: «هذه السورة مدنية بإجماع»[٥].

إذًا: فهي مدنية بالاتفاق بين العلماء، لا مخالف لهم في ذلك.

ثانيًا: فضلها:

وردت في فضل سورة آل عمران أحاديث وآثار عدة، منها الصحيح ومنها الضعيف والموضوع، وسأقتصر على ذكر الأحاديث الصحيحة دون غيرها.

أ: **الأحاديث النبوية:** عن النواس بن سمعان[٦] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ

(١) انظر: روح المعاني: محمود الألوسي: (٢/ ٧١)، والتفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (٢/ ٣٩٣)، والتحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (٣/ ١٤٣).

(٢) المحرر الوجيز: ابن عطية: (١/ ٣٩٦).

(٣) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، من نسل أبي بكر الصديق. صاحب التصانيف الكثيرة في فنون العلم. ولد سنة: (٥١٠هـ) وقيل غير ذلك، ابتدأ التصنيف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، كتب بخطه كثيرًا من كتبه إلى أن مات، مجموع تصانيفه: مائتان ونيف وخمسون كتابًا. كان ذا صيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك، والوزراء وبعض الخلفاء، وقيل: إنه حضر في بعض مجالسه مائة ألف. وقال: «كتبت بأصبعي ألفي مجلد، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفًا». توفي سنة: (٥٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي: (٢١/ ٣٦٥- ٣٨٤)، وطبقات الحفاظ: السيوطي: (ص: ٤٨٠).

(٤) زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي: (١/ ٢٥٧).

(٥) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي: (٤/ ١).

(٦) نواس بن سمعان بن خالد العامري الكلابي، معدود في الشاميين. يقال: إن أباه سمعان بن خالد وفد عَلَى رسول الله فدعا لَهُ، وأهدى إلى النَّبِيّ ﷺ نعلين فقبلهما. وهو من الصحابة رواة الأحاديث عن النبي ﷺ. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/ ١٥٣٤)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٥/ ٣٤٥).

اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[1]، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[2]، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا))[3].

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ -الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ-؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا))[4]. وهذان من أعظم وأشهر الأحاديث الواردة في فضل سورتي البقرة وآل عمران، وفيهما أنهما تأتيان يوم القيامة كغمامتين تحاجان وتظلان صاحبهما. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بها مع البقرة والنساء في ركعة، فعَنْ حُذَيفَةَ[5] ﷺ قَالَ: ((صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، ...)) الحديث[6].

---

(١) قال الهروي: ««بينهما شَرْقٌ» الشَّرْقُ: الضوء، والشرق: الشمس». الغريبين في القرآن والحديث: (٣/ ٩٩٤)، وقال النووي رحمه الله: ««بينهما شَرْقٌ» هو بفتح الراء وإسكانها أي: ضياء ونور». شرح النووي على مسلم: النووي: (٦/ ٩١).

(٢) قال ابن الأثير: ««حِزْقَان» بالحاء المهملة والزاي، من الحِزْقَة وهي الجماعة من الناس والطير وغيرهما». النهاية في غريب الحديث والأثر: (٢/ ٢٦)، باب: الحاء مع الراء، مادة: (حَرَقَ).

(٣) صحيح مسلم، برقم: (٨٠٥)، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة: (١/ ٥٥٤).

(٤) صحيح مسلم، برقم: (٨٠٤)، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة: (١/ ٥٥٣).

(٥) أبو عبد الله حذيفة بن اليمان العبسي، وهو الحسيل، وإنما قيل: حذيفة بن اليمان؛ لأنه من ولد اليمان بن جروة. وكان ممن هاجر هو وأبوه، وعدادهما في الأنصار، قال: «خيرني رسول الله بين الهجرة والنصرة فاخترت النصرة». أمين سر رسول الله. سكن الكوفة. وتوفي بالمدائن قبل موقعة الجمل سنة: (٣٦هـ)، ويقال: إنه مات بعد قتل عثمان بقليل. انظر: معجم الصحابة: البغوي: (٢/٢٠-٢٦)، والاستيعاب: ابن عبد البر: (١/ ٣٣٤، ٣٣٥).

(٦) صحيح مسلم، برقم: (٧٧٢)، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في الصلاة: (١/ ٥٣٦).

وتُعتبر سورة آل عمران من السبع الأُول اللواتي عدّ النبي ﷺ آخذهن حَبْرًا[1]، فقد جاء في الحديث عن عائشة[2] رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ((مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ فَهُوَ حَبْرٌ))[3].

ب: الآثار من أقوال الصحابة والتابعين: وهي كثيرة أيضًا، سأقتصر على بعضها، فمنها ما رُوي عن أنس[4] رضي الله عنه قال: ((الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، جَدَّ فِينَا))، يَعْنِي عَظُمَ[5]. وعن عُمَر بن الخَطَّاب[6] رضي الله عنه أنه قال: ((مَنْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءَ كُتِبَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْحُكَمَاءِ))[7].

---

(١) قال الخليل الفراهيدي: «الحِبْرُ والحَبْرُ: العالِمُ من علماء أهل الدين». العين: (٣/ ٢١٨)، باب: الحاء والراء والباء معهما، وقال ابن منظور: «والحِبْرُ والحَبْرُ: العالِم، ذِميًّا كان أو مسْلمًا، بعد أن يَكون مِن أهل الكتاب». لسان العرب: (٤/ ١٥٧)، باب: الراء، فصل: الحاء المهملة، مادة: (حبر).

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصدِّيق، تزوجها النبي ﷺ بمكة بعد موت خديجة، و لم يتزوج بكرًا غيرها، ودخل بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين، وقُبض وهي بنت ثمان عشرة سنة. أحب أزواج رسول الله إليه، كنَّاها رسول الله بأم عبد الله، وكانت من أعلم الناس بحديث رسول الله وأكثرهم رواية له. توفيت في خلافة معاوية سنة: (٥٨هـ) وقيل غير ذلك، وقد قاربت السبعين، وأوصت أن تُدفن بالبقيع. انظر: معرفة الصحابة: ابن منده: (ص: ٩٣٩- ٩٤٧)، والاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/١٨٨١- ١٨٨٥).

(٣) مسند أحمد، برقم: (٢٤٤٤٣)، مسند الصدِّيقة عائشة رضي الله عنها: (٤٠/ ٥٠١)، وقال الأرنؤوط وجماعته: «إسناده حسن»، وصححه الحاكم في المستدرك برقم: (٢٠٧٠)، كتاب: فضائل القرآن، باب: أخبار في فضل سورة البقرة: (١/ ٧٥٢)، وحسنه الألباني: السلسلة الصحيحة برقم: (٢٣٠٥)، (٥/ ٣٨٥).

(٤) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري. قدم رسول الله المدينة وهو ابن عشر سنين، وخدمه عشر سنين، وتوفي وهو ابن عشرين. وهو آخر الصحابة موتًا بالبصرة، مات وله من ولده وولد ولده (١٢٠)، وقيل: نحو (١٠٠)؛ وذلك لدعوة رسول الله له بالمال والولد. وهو من المكثرين من رواية الحديث. واختلف في وقت وفاته، فقيل: توفي سنة: (٩١هـ)، وقيل غير ذلك، وكان عمره مائة سنة وثلاث سنين، وقيل غير ذلك. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (١/ ١٠٩، ١١١)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (١/ ٢٩٤).

(٥) مسند أحمد، برقم: (١٢٢١٥)، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه: (١٩/ ٢٤٧).

(٦) أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي. أمير المؤمنين، وثاني الخلفاء الراشدين. ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة. كان من أشراف قريش، وإليه كانت السفارة في الجاهلية، أسلم بعد أربعين رجلًا وإحدى عشرة امرأة، فكان إسلامه عزًا ظهر به الإسلام. من المهاجرين الأولين، وشهد كل المشاهد والغزوات، وولي الخلافة بعد أبي بكر، فسار بأحسن سيرة، وفتح الله به الفتوح. قُتل سنة: (٢٣هـ). وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر، ودفن بجوار رسول الله وأبي بكر. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٣/١١٤٤- ١١٥٨)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٤/ ١٣٨، ١٥٦).

(٧) شُعب الإيمان، برقم: (٢٢٠١)، باب: ذكر السبع الطوال: (٤/ ٧٥).

وعن عبد الله بن مَسْعُود[1] ﷺ قال: "نِعْمَ كَنْزُ الصُّعْلُوكِ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ يَقُومُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَيَقُومُ بِهَا". وقال أيضًا: "مَنْ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ فَهُوَ غَنِيٌّ"[2]. وعن ابن عباس[3] ﷺ أنه قال: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [سورة الحجر: ٨٧]: "الْبَقَرَةُ، وَآلُ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءُ، وَالْأَعْرَافُ، وَالْأَنْعَامُ، وَالْمَائِدَةُ"[4].

(١) عبد الله بن مَسْعُود بن غافل الهذلي. أسلم في أول الإسلام، هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد له رسول الله بالجنة. أعلم الصحابة بكتاب الله، شهد له رسول الله بذلك وأمر بأخذ القرآن منه. أشبه الناس هديًا ودلًّا وسمتًا برسول الله. كَانَ رجلًا قصيرًا نحيفًا يكاد طوال الرجال يوازونه جلوسًا وَهُوَ قائم. بعثه عمر إلى الكوفة، وقال فيه: كنيف ملئ علمًا. توفي بالمدينة سنة: (٣٢هـ) ودفن بالبقيع. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٣/ ٩٨٧- ٩٩٤)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٣٨١).

(٢) مصنف عبد الرزاق، برقم: (٦٠١٥)، باب: تعليم القرآن وفضله: (٣/ ٣٧٥).

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. وُلد قبل الهجرة بثلاث سنين، ورسول الله وأهل بيته بالشعب، فحنكه بريقه، ودعا له بالفقه والتأويل. توفي رسول الله وله ثلاث عشرة سنة. حَبْر الأمة وترجمان القرآن، كان عمرُ يدنيه ويسأله ويدخله مع مشيخة أهل بدر. استعمله علي على البصرة، فبقي عليها أميرًا، وشهد صفين، وكان أحد الأمراء فيها. توفي بالطائف سنة: (٦٨هـ)، وقيل غير ذلك. انظر: معرفة الصحابة: أبو نعيم الأصبهاني: (٣/ ١٦٩٩، ١٧٠٠)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٢٩١).

(٤) السنن الكبرى للنسائي، برقم: (١١٢١٢)، باب: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧]: (١٠/ ١٤٤)، وصححه الحاكم في المستدرك، برقم: (٣٣٥٣)، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة إبراهيم عليه السلام: (٣٨٦/٢).

المطلب الثالث: علاقتها بما قبلها وما بعدها من السور، موضوعاتها.

أولًا: علاقتها بما قبلها وما بعدها من السور: لكل سورة ترابط وعلاقة مع السور المحيطة بها، وقد درس ذلك جمع من المفسرين، وألّفت المؤلفات في تناسب الآيات والسور مع بعضها البعض. والحديث عن علاقة سورة آل عمران بالسور المحيطة بها سيكون من شقين:

الأول: علاقة سورة آل عمران بسورة البقرة: بين سورة البقرة وآل عمران تناسب إلى حدٍّ كبير؛ وذلك في كثير من آياتهما وأحداثهما، ويمكن استخلاص أوجه هذه العلاقة بين السورتين في عشر نقاط:

١- أن سورة البقرة وآل عمران اتفقتا بأنهما من السبع الطوال، وأن اسميهما واحد يُطلق عليهما حين الاجتماع، ويُنصَّف ويُفرد حين الافتراق، فقد جاء ذكر اسميهما مقترنين – الزهراوين – في الأحاديث والآثار المروية فيهما.

٢- أن سورة آل عمران تشرح كثيرًا مما أُجمل في سورة البقرة، قال الآلوسي رحمه الله: «ووجه مناسبتها لتلك السورة: أن كثيرًا من مجملاتها تُشرح بما في هذه السورة، وأن سورة البقرة بمنزلة إقامة الحُجَّة وهذه بمنزلة إزالة الشبهة؛ ولهذا تكرر فيها ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب، من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله، والهدى إلى الصراط المستقيم، وتكررت آية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ...﴾ [سورة البقرة:١٣٦] بكمالها؛ ولذلك ذُكر في هذه ما هو تالٍ لما ذُكر في تلك أو لازمٍ له، فذكر هناك خلْق الناس، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام، وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده»[(١)].

٣- أن سورة البقرة جاءت بذكر قصة آدم وخَلْقِه من تراب دون أب ولا أم، وجاء في هذه ذكر نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى؛ ولذلك ضرب له المثل بآدم عليهما السلام؛ وإنما اختصت البقرة بآدم عليه السلام؛ لأنها أول السور، «وهو أوّلٌ في الوجود وسابق؛ ولأنها الأصل وهذه كالفرع

(١) روح المعاني: محمود الآلوسي: (٢/ ٧١).

والتتمة لها، فاختصت بالأغرب؛ ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصة آدم لتثبت في أذهانهم، فلا تأتي قصة عيسى عليه السلام إلا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها؛ ولأن قصة عيسى قِيْسَت على قصة آدم عليهما السلام – والمقيس عليه لا بد وأن يكون معلومًا؛ لتتم الحجة بالقياس – فكانت قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقديم»[1].

٤- اتحادهما بذكر صفات مشتركة بينهما، ومن ذلك اشتراكهما بذكر المتقين، وأن البقرة ذكرت صفة النار، وذكرت آل عمران صفة الجنة، قال الألوسي: «وقد ذَكَر بعض المحققين من وجوه التلازم بين السورتين: أنه قال في البقرة في صفة النار: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة:٢٤]، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معًا، وقال في آخر هذه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٣٣]، فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة»[2].

٥- أن خاتمة آل عمران مناسبة لفاتحة البقرة؛ لأن البقرة افتُتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون، وخُتمت آل عمران بإعلان فلاح المتقين، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران:٢٠٠]، «وافتُتحت الأولى بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [سورة البقرة:٤]، وخُتمت الثانية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ... ﴾ [سورة آل عمران:١٩٩]، وقد وَرَدَ أن اليهود قالوا لما نزل قول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ ...﴾ [سورة البقرة:٢٤٥]: ((يا محمد! افتَقَرَ ربك؛ يسأل عباده القَرْض، فنزل: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ

(١) روح المعاني: محمود الآلوسي: (٢/ ٧١).

(٢) المصدر السابق: (٢/ ٧١).

ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ ...﴾ [سورة آل عمران:١٨١]))[١]، وهذا مما يقوي التلازم أيضًا»[٢].

٦- أنه وقع في البقرة حكاية قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ...﴾ [سورة البقرة:١٢٩]، وفي هذه السورة قال سبحانه: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [سورة آل عمران:١٦٤]، إلى غير ذلك[٣].

٧- أن سورة آل عمران هي الشقيقة والتوأم لسورة البقرة؛ فقد اتفقتا في المطلع والختام، حيث افتُتحتا بالحروف المقطعة: (الم)، وذِكْرِ الكتاب وحال الناس في الاهتداء به، ففي الأولى جاء ذِكْرُ حال من آمن به ومن لم يؤمن بصفة عامة، وفي الثانية ذِكْرُ حال الزائغين الذين يتبعون المتشابه منه ابتغاء الفتنة، وحال الراسخين في العلم الذين يؤمنون بما تشابه منه وما أُحْكم[٤].

٨- افتتحت الأولى بذكر الفلاح واختتمت الثانية بذكره فكأنها متممة لها ولأحكامها، فالأولى ذكرت أن الفلاح للمتقين، والثانية خُتمت بالقول بأن التقوى سبب لذلك الفلاح المبين.

٩- أنهما اختُتمتا أيضًا بالدعاء والتضرع لله رب العالمين، إلا أنه في الأولى يتجه الدعاء إلى طلب النصر على الكافرين، ورفع التكليف عن النفس فيما لا طاقة لها به؛ وذلك يناسب حال بداية الدِّيْن والالتزام به، وفي الثانية يتجه الدعاء إلى طلب الجزاء على قبول هذا الدِّيْن والاستجابة لمناديه، وطلب الفضل من الله بغفران الذنوب، والوقاية من النار[٥].

١٠- أن سورة البقرة ذكرت أهل الكتاب بصفة عامة واستطردت في ذكر اليهود وصفاتهم، أما سورة آل عمران فقد ذكرت أهل الكتاب بصفة عامة أيضًا واستطردت في ذكر النصارى وصفاتهم[٦].

---

(١) الأحاديث المختارة، برقم: (١١٠)، باب: حين أنزل الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، (١٠/ ١١٢)، وتفسير ابن أبي حاتم، برقم: (٢٤٢٩)، باب: قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾[البقرة: ٢٤٥]، (٢/ ٤٦٠).

(٢) روح المعاني: محمود الآلوسي: (٢/ ٧١).

(٣) انظر: المصدر السابق: (٢/ ٧١).

(٤) انظر: تفسير المراغي: أحمد المراغي: (٣/ ٩٠).

(٥) انظر: المصدر السابق: (٣/ ٩١).

(٦) انظر: تفسير المراغي: أحمد المراغي: (٣/ ٩٠).

ثانيًا: علاقة سورة آل عمران بسورة النساء:

حين يتأمل القارئ لسورة آل عمران وسورة النساء التي تليها يرى جسرًا متينًا يربط بينهما، ويُظهر غاية الاحتباك والتناسب بين آياتهما، ويمكن تلخيص المناسبة بين سورة آل عمران وسورة النساء في النقاط الآتية:

١-أن سورة آل عمران اختتمت بذكر التقوى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران:٢٠٠]، وافتُتحت سورة النساء بتكرار ذكر التقوى في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ...﴾ [سورة النساء:١]، وهذا من آكد وجوه التناسب بين السورتين، وترابط الآيات والأحكام بينهما[(١)]، وهو نوع من أنواع البديع، ويُسمى في الشعر العربي: تشابه الأطراف، أو: التسبيغ كما يسميه آخرون[(٢)].

٢-أنه ورد في الأولى ذكر المنافقين بشيء من التفصيل والاستيفاء، وجاء في الثانية تذييل لها، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ...﴾ [سورة النساء:٨٨][(٣)].

٣-أنه وردت في هذه السورة الإشارة إلى المعركة التي تلي غزوة أُحد، وهي غزوة حمراء الأسد[(٤)]، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ...﴾ [سورة آل عمران:١٧٢]، وتكررت الإشارة في سورة النساء لهذه المعركة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي

---

(١) انظر: روح المعاني: محمود الآلوسي: (٢/ ٣٨٩)، وتفسير المراغي: أحمد المراغي: (٤/ ١٧٣).

(٢) قال ابن أبي الأصبع العدواني: «باب: تشابه الأطراف: هذا الباب سمَّاه الأجدابي: التسبيغ، وفسره بأن قال: هو أن يُعيد لفظ القافية في أول البيت الذي يليها، والتسبيغ: زيادة في الطول، ومنه قولهم: درع سابغة، إذا كانت طويلة الأذيال». تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: (ص: ٩٣).

(٣) انظر: روح المعاني: الآلوسي: (٢/ ٣٨٩)، وتفسير المراغي: أحمد المراغي: (٤/ ١٧٣).

(٤) كانت غزوة حمراء الأسد في يوم الأحد الثامن من شهر شوال في سنة: (٣هـ)، وهو اليوم التالي ليوم أحد الذي وقع يوم السبت، والمسلمون لا زالت جراحهم طرية، فدعاهم رسول الله ﷺ للخروج إلى حمراء الأسد لطلب عدوهم، وأمر ألا يخرج معه إلا من خرج بالأمس وشهد القتال، فخرجوا كلهم ولواؤهم لا زال معقوداً من اليوم الأول، ثم عادوا دون أن يحدث بينهم قتال. انظر: المغازي: الواقدي: (١/ ٣٣٤- ٣٤٠)، وجوامع السيرة: ابن حزم: (ص: ١٤٠).

ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء:١٠٤][(١)].

٤-أنه سبحانه ذكر في آل عمران قصة خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وأن اليهود والنصارى اختلفوا فيه، وزعموا فيه المزاعم بين إفراط وتفريط، وجاء في سورة النساء ما يبين براءة أمه، ونفي قتله كما تزعم اليهود، فقال في تبرئة أمه: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٥٦]، ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾ [سورة آل عمران:٥٥]، فجاءت الآيات في سورة النساء نافية لما يدعيه اليهود من أنهم قتلوه وصلبوه فقال سبحانه: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾ [سورة النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وقال في الرد على النصارى الذين زعموا أنه ابن الله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [سورة النساء: ١٧١، ١٧٢].

٥-أنه جاء في الأولى ذِكْرُ تزيُّن الشهوات وحبها للناس إجمالًا، وجاء في الثانية بيان هذه الشهوات، وتفصيل ما يحل منها وما يحرم، فذكر النساء وما يحل منهن وما يحرم، ثم ذكر البنين الذين يتسبب حب الناس لهم بأن يؤثروهم على البنات في الميراث، وتخصيصهم دونهن، فتولّى قسمة المواريث بنفسه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ

(١) انظر: روح المعاني: الآلوسي: (٢/ ٣٨٩)، وتفسير المراغي: أحمد المراغي: (٤/ ١٧٣).

﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [سورة النساء: ٧]، وقوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ...﴾ [سورة النساء: ١١][(١)].

ومن أمعن النظر، وأعمل الفِكْرَ في سورة النساء وجد كثيرًا مما ذُكر فيها مفصّلاً لما جاء ذكره في سورة آل عمران؛ مما يبين قوة الاحتباك والارتباط بين السورتين الكريمتين.

ثالثًا: مقاصدها وموضوعاتها:

١- تبيت دعائم التوحيد، وإقامة الأدلة الساطعة على ذلك؛ من خلال التنويه على أهمية القرآن، والتنويه بفضيلة الإسلام وأنه الدين الحق، والتحذير من الكفر والشرك.

٢- أن السورة الكريمة قد فصَّلت الحديث عن أحوال أهل الكتاب، بأسلوب مقنع حكيم، يحق الحق، ويبطل الباطل، فتحدثت عن عيسى عليه السلام، أثنت عليه وآل بيته، وأثبتت بشريته، وأبطلت إلهيته، وجادلت فيه أهل الكتاب.

٣- تحدثت السورة أيضًا عن المشركين والمنافقين، إلا أن حديثها عن أهل الكتاب كان أكثر وأشمل.

٤- اهتمت السورة الكريمة اهتمامًا بارزا بتربية المؤمنين، تربيةً ينالون باتِّباعها النصر والسعادة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة. فوجَّهت إليهم سبعة نداءات، أمرتهم فيها بتقوى الله، وبالصبر، والمصابرة، والمرابطة، ونهتهم عن طاعة الكافرين، والتشبه بهم، واتخاذهم أولياء، كما نهتم عن تعاطى الربا، وعن كل ما يتنافى مع آداب دينهم وتعاليمه.

٥- عرَضت السورة الكريمة أحداث غزوة أحد عرضًا حكيمًا، زاخرًا بالعظات والعبر، وفصَّلت الحديث عنها تفصيلًا لا يوجد في غيرها من السور، وساقت ما دار فيها بأسلوب بليغ مؤثر، يخاطب العقول والعواطف، ويكشف عن خفايا القلوب ونوازعها، وطوايا النفوس وخواطرها، ويعالج الأخطاء التي وقع فيها بعض المسلمين فيها لئلا يعودوا لمثلها، ويشجعهم على مواصلة السير في طريق الجهاد، حتى لا يؤثر في عزيمتهم ما حدث لهم في أُحد، ويبشرهم بأن الله تعالى قد عفا عمن فرَّ منهم، ويذكرهم بمظاهر فضل الله عليهم خلال المعركة وبعدها، ويبصرهم بسنن الله

(١) انظر: الموسوعة القرآنية خصائص السور: جعفر شرف الدين: (٢/ ١٣٥- ١٣٧).

التي لا تتخلف، وقوانينه التي لا تتبدل، وتعاليمه التي من سار عليها أفلح وانتصر، ومن أعرض عنها خاب وخسر[1].

ومضمون ما اشتملت عليه هذه السورة المباركة أنها تحدثت عن جانبي العقيدة والتّشريع. ففي العقيدة أبانت وحدانية الله، وصدق كتابه، وما جاءت به رسله، والدين الحق الذي ارتضاه لعباد، وناقشت أهل الكتاب في اعتقادهم به، وبرسوله عيسى عليه السلام. وفي التشريع أبانت جملة من الأحكام كالحج، والجهاد، والرّبا، وجزاء مانع الزّكاة، وبعض الدروس والعبر والعظات من غزوتي بدر وأحد، والتّنديد بمواقف أهل النّفاق.

ثم ختمت السورة بما يناسب الجانبين، فطالبت بالتّفكير والتّدبّر في خلق السّموات والأرض، والتأمل بما فيهما من عجائب وأسرار، وأوصت بالصبر على الجهاد، والمرابطة في سبيل الله؛ ليحظى الإنسان برتبة الفلاح الذي يتوق إليه كل عبد في الحياة[2].

(١) انظر: التفسير الوسيط: محمد سيد طنطاوي: (٢/ ١٢- ١٤).

(٢) انظر: التفسير المنير: وهبة الزحيلي: (٣/ ١٤١).

المبحث الثاني: التعريف بمصطلحات البحث.

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول:** تعريف المضامين.
- **المطلب الثاني:** تعريف التربوية.
- **المطلب الثالث:** تعريف الأثر.
- **المطلب الرابع:** تعريف الفرد.
- **المطلب الخامس:** تعريف المجتمع.

المبحث الثاني: التعريف بمصطلحات البحث.

المطلب الأول: تعريف المضامين.

المضامين لغة: جمع مضمون[١]، وهو المحتوى، والفحوى، والاشتمال[٢]، وفي المصباح المنير: «تَضَمَّنَ الكِتَابُ كَذَا: حوَاهُ وَدَلَّ عَلَيْهِ»[٣]، «ومَضْمُونُ الكِتابِ: مَا فِي ضِمْنِه وطَيِّه»[٤]، فمعنى «تَضَمَّنَهُ: اشْتَمَلَ عليه»[٥]، ومضمون الكلام: «فحْوَاهُ وما يُفهم منه»[٦]، «وكل شَيْءٍ جعلتَه وعَاءً لشَيْءٍ فقد ضمَّنتَه إِيَّاه»[٧].

المضامين اصطلاحًا: هي: «جملة المفاهيم والأساليب والخبرات العملية التي من شأنها أن تكوِّن مقومات أساسية للعملية التربوية المقصود بها بناء شخصية الإنسان»[٨].

إذًا: فالمضامين هي: الأمر الذي احتوى الأصل واشتمل عليه، ودل على الفحوى الذي يُفهم منه.

ونعني بها هنا: مجموعة الأفكار والقيم التربوية، والمبادئ الأخلاقية التي اشتملت عليها سورة آل عمران.

---

(١) لسان العرب: ابن منظور: (١٣/ ٢٥٨)، باب: النون، فصل: الضاد المعجمة، مادة: (ضمن)، وتاج العروس: مرتضى الزبيدي: (٣٥/ ٣٣٨) فصل: الضاد مع النون، مادة: (ضمن).

(٢) انظر: المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة: (١/٥٤٥)، باب: الضاد، والمصباح المنير: الفيومي: (٢/ ٣٦٥) باب: الضاد مع الميم وما يثلثهما، مادة: (ضمن)، والقاموس المحيط: الفيروزآبادي: (ص: ١٢١٢)، باب: النون فصل: الضاد.

(٣) المصباح المنير: الفيومي: (٢/ ٣٦٥) باب: الضاد مع الميم وما يثلثهما، مادة: (ضمن).

(٤) تاج العروس: مرتضى الزبيدي: (٣٥/ ٣٣٩)، مادة (ضمن) فصل: الضاد مع النون.

(٥) القاموس المحيط: الفيروزآبادي: (ص: ١٢١٢)، باب: النون، فصل: الضاد.

(٦) معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد: (٢/ ١٣٧١)، حرف الضاد، مادة: (ض م ن).

(٧) جمهرة اللغة: ابن دريد: (٢/ ٩١١)، باب: الضاد والميم مع ما بعدهما من الحروف، مادة: (ضمن).

(٨) مضامين تربوية في سورة البقرة: أ. د/ آمال المرزوقي، بحث منشور في مجلة دراسات تربوية، المجلد العاشر، العدد: (٧١)، (ص: ١٦٥)، السّنة: (١٩٩٥م). نقلًا من: رسالة ماجستير: (المضامين التربوية في كتاب بستان العارفين) للباحث/ عبد الله الإسماعيل، جامعة أم القرى، للعام الجامعي: ١٤٣٦هـ.

المطلب الثاني: تعريف التربوية.

التربوية لغة: اسم منسوب إلى التربية[١]، مشتق منها، ومرجعها لأصول متعددة، أبرزها أصلان:

الأول: «رَبَا الشيء يَرْبُوْ رَبْوًا، أي زاد. والرَّابِيَةُ: الرَّبْوُ، وهو ما ارتفع من الأرض»[٢]. ويُطلق في الغالب على ما يحصل له الزيادة والنماء، وفي هذا المعنى جاء التعبير القرآني الكريم، حيث قال عز شأنه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الروم: ٣٩]، أي: فلا يزداد ولا ينمو عند الله[٣].

الثاني: رَبَى يَرْبَى: على وزن: خَفَى يَخْفَى، بمعنى: نشأ وترعرع. وفي لسان العرب: «رَبَيْتُ فِي حِجْرِه، ورَبَوْتُ، ورَبِيْتُ، أَرْبَى رَبًا ورُبُوًّا، وأنشد:

فَمَنْ يكُ سَائِلًا عَنِّي فإِنِّي ... بِمَكَّةَ[٤] مَنْزِلي وبها رَبِيتُ»[٥]

ومنه قولهم: «رَبِيَ الصَّغيرُ في بني فُلان: ربَا فيهم؛ نشأ في رعايتهم، رَبِي الطفلُ في بيت العائلة.

وكيف أنام عن سادات قومٍ ... أنا في فضل نعمتهم رَبِيتُ»[٦]

---

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد: (٢/ ٨٥٢)، حرف الراء، مادة: (ر و ب).

(٢) الصحاح: الجوهري: (٦/ ٢٣٤٩)، باب: الواو والياء، فصل: الراء، مادة: (ربا).

(٣) انظر: جامع البيان: الطبري: (٢٠/ ١٠٤)، وتأويلات أهل السنة: الماتريدي: (٨/ ٢٨٠).

(٤) هي البلد الأمين الذي شرفه الله وعظَّمه، قبلة العباد، ومهوى أفئدتهم، بلد الرسول ﷺ ومحل صباه. وهي مدينة في وادٍ غير ذي زرع، تشرف عليها الجبال من كل جوانبها، وعرضها سعة الوادي. لها العديد من الأسماء كمكة، وبكة، والبلد الأمين، وأم القرى، وغيرها. ولا يوجد بها شجر مثمر، وإنما تُحمل إليها الخيرات من غيرها. وفيها الكعبة بيت الله الحرام، وهي وسط الدنيا. انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: (٥/ ١٨١- ١٨٨)، وآثار البلاد وأخبار العباد: زكريا القزويني: (ص: ١١٢، ١٢١).

(٥) لسان العرب: ابن منظور: (١٤/٣٠٦، ٣٠٧)، باب: الواو والياء، فصل: الراء المهملة، مادة: (ربا).

(٦) معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد: (٢/ ٨٥١)، حرف الراء، مادة: (ر ب و).

وقال الأَصمعي[1]: «رَبَوْتُ فِي بَنِي فُلَانٍ أَرْبُو: نَشَأْتُ فيهِم، ورَبَّيْتُ فُلَانًا أُرَبِّيه تَرْبِيَةً وتَرَبِّيتُه ورَبَبْتُه ورَبَّبْته بمعنى واحد»[2].

وأوضح المعاني اللغوية للتربية ما كان دالّا على التَّعلُّم والتَّثْقيف من ناحية، وعلى التهذيب السلوكي والاعتناء بالقوى العقلية والجسمية من ناحية أخرى: فتقول: «تربَّى الولدُ: تعلَّم وتغذَّى وتثقَّف، تربَّى على يد أفضل المربِّين»[3]، وتقول أيضًا: «ربَّى الأبُ ابنَه: هذَّبه ونَمَّى قُواه الجسميّة والعقليّة والخُلُقيّة؛ كي تبلغ كمالها»[4].

التربوية اصطلاحًا: لما كان تعريف لفظ التربية في اللغة يختلف باختلاف المنطلقات والاستعمالات، فقد تعددت واختلفت الآراء حول تعريفها في الاصطلاح، فكلٌّ ينظر لها من الزاوية التي يتحدث عنها، ويُعرِّفها بحسب المجال الذي يبحث فيه، ولأن الحديث في هذا البحث عن الجوانب التربوية الاجتماعية فإنه يُمكن تعريفها بأنها: «عملية التنشئة والرعاية والتوجيه من جانب الكبير تجاه الصغير، والعالم حِيَالَ المتعلّم»[5].

فهي إذًا: عملية إنماء وتنشئة للشخصية بصورة متوازنة ومتكاملة، شاملة لجوانبها الجسدية والاجتماعية والأخلاقية والعقلية والوجدانية، بالإرشاد والتهذيب والتعليم.

فالمضامين التربوية: من خلال ما سبق من التعريفات يتبيَّن أنها تعني: محتوى ومضمون عملية التنشئة والتعليم وتهذيب السلوك للفرد والمجتمع في كل جوانب الحياة.

---

(١) أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، حُجَّة الأدب، وراوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. ولد سنة: (١٢٢هـ)، ومولده ووفاته في البصرة. كان كثير التطواف في البوادي، أخباره كثيرة جدًا. كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وكان يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. وتصانيفه كثيرة أشهرها: (الأضداد). توفي سنة: (٢١٦هـ). انظر: طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر الإشبيلي: (ص: ١٦٧ - ١٧٤)، وسير أعلام النبلاء: الذهبي: (١٠/١٧٥-١٨٢).

(٢) لسان العرب: ابن منظور: (١٤/٣٠٦، ٣٠٧)، باب: الواو والياء، فصل: الراء المهملة، مادة: (ربا).

(٣) المصدر السابق: (٢/ ٨٥٢).

(٤) المصدر السابق: (٢/ ٨٥٢).

(٥) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي: كمال الدين المرسي: (ص: ٤).

المطلب الثالث: تعريف الأثر.

الأثر لغة: يُطلق على معان مختلفة، وله أصول ثلاثة: «تَقْدِيمُ الشيء، وَذِكْرُ الشيء، وَرَسْمُ الشيء الْبَاقِي»[(١)]، قال الخليل الفراهيدي[(٢)]: «الأثَر: بقيّة ما ترى من كُلّ شيء»[(٣)]، و«الأَثَرُ: (بِفَتْحَتَيْنِ) مَا بَقِي من رَسْمِ الشيء»[(٤)]، وهو نتيجة الشيء والحاصل منه[(٥)]، والأثر مفرد، «والجمع: آثَارٌ وأُثُوْر»[(٦)].

الأثر اصطلاحًا: غالبًا ما يُستخدم لفظ الأثر في مصطلح الفقهاء والعلماء على ما يُطلق عليه في اللغة، فيعبِّرون به عما يبقى من الشيء، أو ما يترتب عليه، فالأول كقولهم عن أثر النجاسة: «ومعنى الإنقاء: إزالة عين النجاسة وَبَلَّتِهَا، بحيث يخرج الحجر نقيًّا وليس عليه أثر إلا شيئًا يسيرًا»[(٧)]، والثاني يستعملونه مضافًا غالبًا، كقولهم في الضمان على إلقاء الأم جنينها بسبب الجناية: «ولو ماتت الأم بالجناية أولاً، ثم ألقت جنينها بعد الموت من أثر الجناية فالضمان واجب»[(٨)]، ونحو ذلك.

فالأثر هنا: هو ما يترتب على هذه المضامين التربوية من تغيير، وما تُبقيه في حياة المتربي من تعديل في السلوك ونحوه.

---

(١) مقاييس اللغة: ابن الفارس: (١/ ٥٣)، كتاب: الهمزة، باب: الهمزة والثاء وما يثلثهما، مادة: (أَثَرَ).

(٢) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفَراهيديُّ. وهو حيٌّ من الأزد. وكان ذكيًّا فطنًا شاعرًا، واستنبط من العَرُوض ومن عِلَل النحو ما لم يستنبط أحدٌ، وما لم يسبقه إلى مثله سابق، قال الأصمعي: كادت الإباضيَّةُ تغلب على الخليل؛ حتى منَّ الله عليه بمجالسة أيوب. له العديد من المؤلفات أشهرها: كتاب: (العين). توفي سنة: (١٧٠هـ) وقيل غير ذلك. انظر: طبقات النحويين واللغويين: أبو بكر الإشبيلي: (ص: ٤٧- ٥١)، والأعلام الزركلي: (٤/ ١٦٢).

(٣) العين: (٨/ ٢٣٦)، باب: الثاء والراء.

(٤) مختار الصحاح: الرازي: (ص: ١٣)، باب: الهمزة، مادة: (أث ر).

(٥) انظر: التعريفات: الجرجاني: (ص: ٩)، والمعجم الفلسفي: جميل صليبا: (١/ ٣٧).

(٦) لسان العرب: ابن منظور: (٤/ ٥)، باب: الراء، فصل: الألف، مادة: (أثر).

(٧) المغني: ابن قدامة: (١/ ١١٣).

(٨) نهاية المطلب: أبو المعالي الجويني: (١٦/ ٥٩٧).

المطلب الرابع: تعريف الفرد.

الفرد لغة: قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «الفَرْدُ: ما كانَ وحْدَهُ»[1]، «والفَرْد: الْوَاحِد، وَاللهُ تبَارك وَتَعَالَى الفَرْد، وكل شَيْء متوحّد فقد انْفَرد»[2]، وقد قصره الجرجاني[3] على: «ما يتناول شيئًا واحدًا دون غيره»[4]. وهو مفرد، «والجمع: أفْرادٌ وفُرادى»[5].

الفرد اصطلاحًا: يختلف تعريف الفرد باختلاف العلوم والاستعمالات، فهو في الفلسفة غير ما هو في علم النفس والحياة، أما الفرد في علم الاجتماع – وهو الذي يعنينا – فهو: «وحدة من الوحدات التي يتألف منها المجتمع، كالمواطن في الدولة، أو النَّحْلة في الخليَّة، أو النَّملة في القرية، فهي آحاد حقيقية يتألف منها الجسم الاجتماعي»[6].

(١) العين: (٨/ ٢٤)، باب: الدال والراء والفاء معهما.

(٢) جمهرة اللغة: ابن دريد: (٢/ ٦٣٤)، باب: الدال والراء وما بعدهما من الحروف، مادة: (درف).

(٣) علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني. من كبار العلماء بالعربية، عَالم بِلاد الشرق. ولد سنة: (٧٤٠ هـ)، ودرس في شيراز. ولما دخلها تيمور فرَّ إلى سمرقند. ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. له نحو خمسين مصنفًا، أشهرها: (التعريفات). توفي بشيراز سنة: (٨١٦ هـ). انظر: بغية الوعاة: السيوطي: (٢/ ١٩٧)، والأعلام: الزركلي: (٥/ ٧).

(٤) التعريفات: (ص: ١٦٦)، باب: الفاء.

(٥) الصحاح: الجوهري: (٢/ ٥١٨)، باب: الدال، فصل: الفاء، مادة: (فرد).

(٦) المعجم الفلسفي: جميل صليبا: (٢/ ١٣٩)، باب: الفاء.

المطلب الخامس: تعريف المجتمع.

المجتمع لغة: مشتق من لفظ: اجْتَمَعَ، «واجْتَمَعَ: ضِدُّ تَفَرَّقَ»[1]، ويُطلق المجتمع على «مَوضِع الاجْتِمَاع، وَالْجَمَاعَة من النَّاس»[2].

المجتمع اصطلاحًا: يُراد بلفظ المجتمع عند إيراده: «الجماعة من الأفراد يجمعهم غرضٌ واحد، أو الاجتماع الإنساني من جهة ما هو ذو صفات متميزة عن صفات الأفراد»[3].

فالمجتمع هو: جماعة من الناس يرتبطون معًا بالعادات والتقاليد والأخلاق، يستوطنون مكانًا معينًا، يشكلون فيه جانبًا من جوانب الحياة الاجتماعية المتكاملة.

إذًا: المضامين التروية هي: مجموعة الأفكار والقيم التربوية، والمبادئ الأخلاقية، المشتملة على تهذيب سلوك الشخصية في كل الجوانب، بصورة متوازنة ومتكاملة.

(١) القاموس المحيط: الفيروزآبادي: (ص: ٧١١)، باب: العين، فصل: الجيم.

(٢) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية في القاهرة: (١/ ١٣٦)، باب: الجيم.

(٣) المعجم الفلسفي: جميل صليبا: (٢/ ٣٤٥)، باب: الميم، بتصرف يسير.

الفصل الأول:

المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد والعبادات والأخلاق.

الفصل الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد والعبادات والأخلاق، وأثرها على الفرد والمجتمع.

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد.**
- **المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بالعبادات.**
- **المبحث الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالأخلاق.**

مدخل:

القرآن الكريم يمتاز بخاصية التأثير في تكوين الشخصية المسلمة؛ وذلك بتنمية القيم والأخلاق، وتثبيت المسلَّمات والعقائد، وتربية المهارات والمَلَكَات، وتشريع الأحكام والعبادات. وعادة ما تأتي آياته لعلاج ظاهرة ما، أو إرساء خُلُق وتقويض آخر، أو دراسة ظاهرة ما والسعي لعلاجها.

أما في جانب توحيد الله والتجرّد لعبادته عز وجل فقد تظافرت آيات القرآن الكريم في ترسيخ مبادئه، وتثبيت دعائمه، حتى وُصِفَت كل آية فيه بأنها داعية إلى التوحيد، شاهدة به[1].

ومن خلال هذه الخاصية فقد وَكَلَ المسلمون في صدر إسلامهم إليه بناء عقائدهم، وتكوين أساسيات دينهم وأخلاقهم، وتعهُّد مَلَكاتهم، وتشريع عباداتهم، وترتيب أمور حياتهم؛ ولأنهم أدركوا استحالة قيام غيره مقامه في تربية النفوس وتكوين الشخصيات، فلم يركنوا في أخذ عقائدهم وأخلاقهم وتعاليم دينهم ودنياهم إلى غيره، وأن يميلوا لسواه، كما أيقنوا أنه ليس في استطاعة بشر أن يؤلف كلامًا يحمل في كيانه تأثيراً يماثل تأثيره أو يدانيه، أو يصُفُّ كلمات تحمل روحًا تسري في الأرواح، وطمأنينة تسكن شغاف القلوب، أو يجاري كلام الله عز وجل الموصوف بقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: ٤٢].

(١) انظر: مدارج السالكين: ابن القيم: (٣/ ٤١٧، ٤١٨).

المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد.

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** ترسيخ العقيدة، والتحذير من الشرك، والدعوة إلى التدين بالإسلام.
- **المطلب الثاني:** محبة الله ورسوله ﷺ وشواهدها.
- **المطلب الثالث:** مظاهر الولاء والبراء.

المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد.

المطلب الأول: ترسيخ العقيدة، والتحذير من الشرك، والدعوة إلى التدين بالإسلام.

إن الدعوة لتوحيد الله عز وجل منهج الأنبياء والمرسلين، وهي أساس دعوتهم؛ ولذلك أرسلهم سبحانه وتعالى.

ولما كانت سورة آل عمران هي موضع الدراسة فإنها قد شاركت في بناء الجدار العقائدي المتين، وعملت على تثبيت أركانه في آيات ومواضع عدَّة، وسنحاول الوقوف على أبرزها عبر ثلاثة محاور.

أولًا: ما يخص ترسيخ العقيدة:

ابتدأت السورة المباركة أُولَى آياتها بترسيخ مبادئ العقيدة وإثبات وحدانية الله عز وجل، وإقامة الأدلة على ذلك نقلًا وعقلًا، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١- بيان ما يجب اعتقاده في الله عز وجل، فجاءت فاتحتها مبينة أساس هذا المبدأ، فذَكَرَت صفة الله عز وجل، وما يجب من الاعتقاد به، حيث قال عز شأنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: ٢]، وساق في سبيل إثبات هذا التوحد والتفرد بالحياة والبقاء والقيومية الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾ [سورة آل عمران: ٥، ٦]، وأخبر أنه شاهد بذلك وملائكته وأولوا العلم فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨]، مما لا يدع مجالًا للتردد والشك، أو الإيمان بغير ذلك.

وقد وردت كلمة التوحيد في أربعة مواضع من السورة، وهذه المواضع هي:

١- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: ٢].

٢- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ٦].

٣- قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ٦٢].

والأعجب أنها تكررت في آية واحدة مرتين، كما هي في الموضع الثالث في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨]، ولا تجد هذا في غيرها من القرآن الحكيم.

٢- ترسيخ الإيمان اليوم الآخر: وتتجلى هذه التربية بذكر ما يخصُّ الدار الآخرة وما يحصل فيها من الحساب والجزاء، وما يتعلق بترسيخ الإيمان بها في العقول والقلوب، وأن من الإيمان بالله وتوحيده أن تكون جميع الأعمال لله تعالى، وأن يتذكر العبد أنه ملاقٍ ربه جل وعلا في يوم الحساب. وقد جاءت الإشارة إلى ذلك بكلمات تحمل الدعوة إلى الإيمان بها، وادخار الأعمال ليوم الجزاء والحساب بين يدي الله، فقال سبحانه حاكيًا دعاء الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [سورة آل عمران: ٩]، وقال مقرِّرًا أن الدار الآخرة هي دار موافاة العاملين بأعمالهما: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٥]، وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٥٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ٥٥ - ٥٧].

٣- ترسيخ الإيمان بالجزاء عن طريق الترغيب والترهيب: وعلى سبيل المقارنة بين حال من آمن بربه ومن أبى واستكبر يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكذا أورد الله تعالى ذِكْر النار ثم

أعقبه بذكر الجنة؛ في إشارة إلى المقابلة والمقارنة بينهما وما أعد فيهما، وبأسلوب الترهيب والترغيب، ففي الأولى ترهيب من الوقوع في كل ما يُوصِل إليها، وفي الثانية ترغيب بالمسارعة وحيازة المقاعد فيها، قال عز وجل: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣١]، ثم قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣].

فبهذا الأسلوب الجميل يرسِّخ المولى جل جلاله في الأذهان أن المرجع إليه، وأن الحساب بين يديه، حيث جاء التنويع في أسلوب الخطاب بين التلميح والإشارة إلى يوم القيامة، وبين التصريح بالعودة والرجوع إليه. وهذا من أنجع الأساليب التربوية نفعًا، وأكثرها تأثيرًا؛ حيث ينتقل قارئ الخطاب من الترغيب إلى الترهيب، ومن التلميح إلى التصريح.

ثانيًا: ما يخص التحذير من الشرك بالله عز وجل.

الشرك نقيض التوحيد، وغالبًا ما يأتي ذكره مقرونًا بالدعوة إلى التوحيد كما هو في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، فكما أن المولى جل وعلا ذَكَرَ الأمر بعبادته وتوحيده فقد أكَّد على عدم الإشراك به، وحذَّر من اتخاذ آلهة من دونه، سواء كانوا أنبياء مرسلين، أو ملائكة مقربين، أو بشرًا صالحين، أو غيرهم.

فذِكْرُ الشيء ونقيضه أسلوبٌ تميَّز به القرآن الكريم في هذه السورة وغيرها، وهو ما يسمى بأسلوب المقابلة[1]؛ وهو أسلوب ناجع في التربية وإيصال مفهوم الأوامر؛ إذ هو أبلغ في زيادة التوضيح، وإقامة الحجة، وإزالة الشُّبَه والاحتمالات. وقد تكرر هذا الأسلوب في نفس الموضوع كما في قوله عز وجل: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [سورة آل

(١) قال الهاشمي: «المقابلة: هي أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]». جواهر البلاغة: (ص: ٣٠٤).

عمران: ٩٥]، حيث وصف إبراهيم عليه السلام بالحنيفية التي تدل على الإسلام والتوحيد، ثم أعقبه بوصف تخليته من الشرك الذي هو مناقض له.

ثالثًا: ما يخص التمسك بدين الإسلام والتحذير من الكفر بالله عز وجل.

يُعتبر الدِّين الذي يدين به كل مجتمع من المجتمعات هو عنوان هويتهم، ومصدر انتمائهم. ويشتمل على تشريعات وقوانين تحكم حياتهم، وتُسيِّر شؤونهم، وقد اختار الله لعباده دينًا واحدًا موحَّدًا عبر كل الأمم والمجتمعات، على اختلاف العصور وتنوع الحضارات، فقال أحسن القائلين: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩].

«ولقد تواترت الأديان تحمل هذه الرسالة إلى البشرية، ثم جاء الإسلام ليضعها في إطارها الثابت، وصورتها النهائية، مصححًا كثيرًا من تفسيرات الإنسان، ملتمسًا بها العودة إلى المنابع الأصلية لـــدين الله؛ لذلك أصبح تاريخ البشرية بالنسبة للإسلام مقدمة وإعدادًا وإرهاصًا بالكلمة الخاتمة الحاسمة»(١).

وقد ورد الحث على التمسك بالإسلام والتدين به بأسلوب قرآني بديع، فبدأ أولًا بوصفه أنه هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وأنه هو الذي يجب أن يتدين به العباد؛ وذلك في إشارة إلى الترغيب فيه والاقتناع بمقتضياته، وأنه من اختيار الله الذي يعلم ما فيه صلاح العباد ومنافعهم في الأولى والأخرى، ثم أعقبه بلفظ يتَّسم بالترهيب لمن لم يقتنع به ترغيبًا، ولم يتدين به وقد ارتضاه الله لعباده، فمن ابتغى سواه فلن يُقبل منه، فقال عز وجل: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥].

وما حاز الإسلام هذه العالمية والشمولية إلا لأنه الدين الذي نظر للإنسان في كل مراحل حياته بعين الرعاية المتكاملة، «ومن الحق أن يقال: إنه ليس هناك نظرة أصدق وأعمق صدقًا وأعمق عمقًـــا من نظرة الإسلام إلى الإنسان؛ حيث ينظر إليه نظرة متكاملة جامعة تقوم على التوازن، وهو من أجل هذا يبيح له كل رغباته ومطالبه بعد أن يعترف بها، ولكنه يحيطها بسياج من الضوابط؛ وبحيث يكون قادرًا دائمًا أن ينفك عنها، وأن يحمل راية الجهاد والمقاومة إذا ما تعرض وطنه أو دينه للخطر، ذلك

(١) عالمية الإسلام: أنور الجندي: (ص: ٧).

أنه ليس أفعل في تهديم الأمم من إسرافها في الاتجاه نحو التحليل والإباحيات التي تحطم قوى الإنسان القادرة على المقاومة والفعل»[1].

ولما كان الإسلام هو دين الله المرتضى فقد جاء التعبير في آية أخرى يحمل سمة التحذير والتوبيخ لمن لم يرضه، مبتدئًا بالاستفهام الذي لا يريد جوابًا، وإنما يدعو للتأمل وإعمال العقل، فقال عز من قائل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٨٣]، فأي عاقل لا يدين بدين الإسلام الذي استجاب له كل من في السموات والأرض، ودان به كل من خلق الله من الكائنات، سوى بعض البشر الذين وجه لهم الخطاب في الآية؟!

فهذا هو الإسلام دين العالمين، والذي له: «ذاتيته الخاصة، وطابعه الإنساني العالمي الخالد القريب من الفطرة والعقل، والمطابق للعلم؛ فليتجه المسلمون في فهم حياتهم إلى أصول دينهم، وليستضيئوا به»[2].

ولما ارتضى الله لعباده الإسلام دينًا فقد كره لهم ما ينافيه وهو الكفر، فهو القائل: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [سورة الزمر: ٧]، وكيف يرضاه لهم وقد رضي لهم الإسلام الذي هو خير وأقوم، ولم يأمرهم باتباع أي أحد يدعو لغير عبادته سبحانه، وإن كان نبيًا من الأنبياء فقال جل شأنه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وعلى عادة الأسلوب القرآني في التربية؛ إذ يحث على الأمر ويحسِّنه من جهة، ويحذر من نقيضه ويقبحه من جهة أخرى؛ لتتم عملية التربية، ويترسخ الاقتناع بفعل الأوامر وترك النواهي، فقد جاء بالتحذير من الكفر بخطاب لا يستطيعه لسان أديب، ولا قلم كاتب، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ

(١) عالمية الإسلام: أنور الجندي: (ص: ٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص: ٣٨).

ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ٩٨ - ١٠٠]، ومن جميل ما يحمله هذا التنديد والخطاب ما قاله سيد قطب[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأول ما يتركه هذا التنديد من أثر: هو مجابهته أهل الكتاب بحقيقة موقفهم، ووصفهم بصفتهم التي يداروها بمظهر الإيمان والتدين، بينما هم في حقيقتهم كفار، فهم يكفرون بآيات اللّه القرآنية، ومن يكفر بشيء من كتاب اللّه فقد كفر بالكتاب كله»[2].

وينتقل الخطاب بتناسق عجيب إلى مخاطبة المؤمنين في نهيهم عن اتباع أهل الكتاب وطاعتهم، بعد أن تجلّت صفاتهم، ووضح مرادهم، وهو التنصل عن الإسلام والرجوع إلى الكفر؛ إذ ذلك غاية مطلب أهل الكتاب وأمنياتهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [سورة البقرة: ١٠٩]، كما أن لطاعة أهل الكتاب العديد من المفاسد العقدية والدينية، والمفاسد التربوية.

ويتواصل السياق في التنفير عن الكفر، ببيان عوامل الثبات على الإيمان بقوله سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران: ١٠١]، حقًا إنه لمن العظائم أن يكفر الإنسان بالله وعنده كل هذه العوامل الداعية للحفاظ على الإيمان والاستدامة فيه، فكيف يكفر من يعيش في رحاب آيات الله تاليًا متدبرًا، ويجد رسول الله ﷺ معه بسنَّته هاديًا ومرشدًا؟!

وتُرشد الآيات إلى درس بليغ من دروس التربية الإلهية: فإنه جل جلاله حين أراد التحذير من اتِّباع أهل الكتاب بدأ بذكر صفاتهم السيئة التي تستوجب التنفير منهم، وفي ذلك تهيئة للنفس لقبول الأمر فيما بعد، ثم عقَّب بنداء عباده بنفسه بينما أمر رسوله بنداء أهل الكتاب في الآيات التي سبقت هذا النداء؛ في إشارة إلى فضلهم وجلالة قدرهم عنده تبارك وتعالى، وجاء النداء بلفظ الإيمان؛

(١) سيد قطب بن إبراهيم، مفكر إسلامي مصري، من مواليد أسيوط سنة: (١٣٢٤هـ)، تخرَّج من كلية دار العلوم بالقاهرة، ثم تنقَّلَ في عدة وظائف، ثم أُوفِدَ في بعثة لدراسة برامج التعليم في أميركا، ولما عاد انتقد البرامج المصرية، وكان يراها من وضع الإنجليز، وبنى على هذا استقالته، وانضمَّ إلى الإخوان المسلمين، وسُجن معهم، فعكف على تأليف الكتب - والتي من أشهرها: في ظلال القرآن - إلى أن صدر الأمر بإعدامه، فأُعدم سنة: (١٣٨٧هـ). انظر: الأعلام: الزركلي: (٣/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) في ظلال القرآن: (١/ ٤٣٦).

لإذكاء حرارة العقيدة والإيمان في قلوبهم، ثم أورد الأثر المترتب على هذا الاتِّباع وهو الخروج من المنزلة التي نالوا بها هذا الشرف وهي منزلة الإيمان، والعودة إلى الكفر بعد أن أنقذهم منه، ثم ختم الآيات بذكر عوامل الثبات على الأمر بأسلوب واستفهام رقيق، وعتاب لطيف، لا سيما وقد اقتنعت النفس ببغض أهل الكتاب، ومعرفة نواياهم تجاه المؤمنين، والاقتناع بأمر رب العالمين، فذكَّرهم بالآيات التي يتلونها ليل نهار، وبالرسول الكريم الذي بين جنباتهم يجالسونه صباح مساء، سواء أكان وجوده بعينه أو بهديه وسنته.

وهذا الدرس التربوي الإلهي يمكن تطبيقه في كل مجالات التربية، بدءًا بذكر السلبيات التي تنفر من الظاهرة السيئة، إلى عَرْضِ النهي عن الظاهرة بأسلوب يستميل قلب المتربي، إلى بيان آثار هذه الظاهرة عليه، ثم إعانته على الثبات والالتزام بما اقتنع به بأسلوب يُطمئِن نفسه، ويُثبِّت قلبه.

أثر ترسيخ العقيدة والتدين على حياة الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إذا أيقن العبد أن له ربًّا يتصف بالحياة المطلقة فإنه يأمن من المخاوف، ويوكل أموره كلها إليه، وإذا علم بأنه الإله المتصرف في الحياة والممات اعتمَدَ عليه، ووجّه عبادته إليه، فتستقيم حياته، ويسعد في آخرته؛ فإيمانه بتلك المعاني العظيمة ينقلب إلى حقيقة واقعة في سلوكياته، فلا يخاف الموت من أحد ما دامت حياته بيد مولاه، ولا يخاف الفقر وانقطاع الرزق ما دامت أموره بيد من يحسن التدبير، فالقلب في اطمئنان، والنفس في سعادة، والمرء في حرية العبادة لله دون ذل العبودية لما سواه.

كما أن الإشراك بالله عنوان الضلال، وحرمان المغفرة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء: ١١٦]، فلا ينفع المشرك عمل في الآخرة، ويُحرم الجنة، ويصلى النار وبئس المصير، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [سورة المائدة: ٧٢]، ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٨٨].

الأثر على المجتمع:

تحقيق التوحيد والعبودية لله في حياة الأمة بشكل عام هو عنوان فلاحها، وشارة نجاحها في الدارين، فتحقيق لا إله إلا الله هو عين الفلاح والفوز؛ بدلالة قول المصطفى ﷺ حين نادى على القوم في سوق ذي المجاز[1] وهم يبحثون عن الفلاح الدنيوي عارضًا عليهم فلاح الدارين: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا))[2].

والأمة التي يسود في ساحها التوحيد، وتعمُّ في ربوعها العبودية لله تنعم بالأمن في الأوطان، والراحة في الأبدان، وذلك كما قال المولى جل في علاه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢] كما هو معلوم في تفسير الظلم في الآية بأنه الإشراك بالله، وهو نقيض التوحيد[3].

بل إن الأمن في الأوطان والتمكين والاستخلاف في الأرض هو موعود الله لمن يحقق التوحيد ولا يشرك به شيئًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٥٥].

---

(١) ذو المجاز: سوق من الأسواق التي كانت العرب تقيمها في أيام الحج للتفاخر وإلقاء القصائد. ويقع خلف عرفة، وهو ثالث الأسواق العربية شهرة، فكانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوّال، ثم تنتقل إلى سوق مجنّة فتقيم فيه عشرين يومًا من ذي القعدة، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحجّ. انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: (٤/ ١٤٢).

(٢) صحيح ابن خزيمة، برقم: (١٥٩)، كتاب: الوضوء، باب: ذكر الدليل على أن الكعبين اللذين أمر المتوضئ بغسل الرجلين إليهما العظمان الناتئان في جانبي القدم: (١/ ٨٢)، من حديث: طارق المحاربي، وقال الأعظمي في التعليق: «إسناده صحيح»، وصححه ابن حبان في الصحيح، برقم: (٦٥٦٢)، كتاب: التاريخ، باب: ذكر مقاساة المصطفى: (١٤/٥١٧)، والحاكم في المستدرك، برقم: (٤٢١٩)، كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء، باب: ذكر أخبار المرسلين: (٢/ ٦٦٨).

(٣) جاء تفسير الآية في الحديث الذي رواه علقمة، عن عبد اللّه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال أصحاب رسول الله ﷺ: أُينا لم يظلم؟ فأنزَل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]». صحيح البخاري، برقم: (٣٢)، كتاب: الإيمان، باب: ظلم دون ظلم: (١/ ١٥). وصحيح مسلم، برقم: (١٢٤)، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه: (١/ ١١٤).

المطلب الثاني: محبة الله ورسوله ﷺ وشواهدهما.

في سياقٍ تربوي بديع تضع سورة آل عمران الحدود والضوابط في جانب محبة الله ورسوله ﷺ وطاعتهما؛ فلا يكفي ادعاء المحبة بمجرد القول دون الاقتران بالاعتقاد والعمل وفق تشريع الله، وفي مثل هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «إن الإسلام هو طاعة اللّه والرسول، وإن الطريق إلى اللّه هو طريق الاتّباع للرسول، وليس مجرد الاعتقاد بالقلب، ولا الشهادة باللسان: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣١، ٣٢]، فإما طاعة واتّباع يحبه اللّه، وإما كفر يكرهه اللّه، وهذا هو مفرق الطريق الواضح المبين»[(١)].

وقال ابن كثير[(٢)] رحمه الله: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ))[(٣)]، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]، أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ، وقال الحسن

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٣٧٨).

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي. ولد بقرية شرقي بصرى من أعمال دمشق سنة: (٧٠١هـ) كان عمدة أهل المعاني والألفاظ. أحد تلامذة ابن تيمية. أقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ، والفقه، حتى برع في ذلك وهو شاب. له العديد من المصنفات والتي من أشهرها: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية وغيرهما. توفي سنة: (٧٧٤هـ) ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية. انظر: ذيل تذكرة الحفاظ: الحسيني: (ص: ٣٨، ٣٩)، وطبقات المفسرين: الداودي: (١/١١١- ١١٣).

(٣) صحيح مسلم، برقم: (١٧١٨)، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة: (٣ / ١٣٤٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

البصري[1] رحمه الله وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يُحبِّون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]»[2].

فمحبة الله ورسوله ﷺ من لوازم التوحيد، وفي مقدمة متطلبات الإسلام، وأوليات الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٢٤]، فمن قدَّم حب الأهل والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله ﷺ فقد استحق الوعيد بأمر لا تحمد عقباه، ولينتظر تحقيق هذا الوعيد لينزل بساحته لا محالة.

وهذه المحبة شرف يسعى لنيله كل مؤمن، فإن من أحبه الله نال الفلاح المبين، ولا يكون ذلك إلا لعبد أحب الله ورسوله ﷺ بكل قلبه. وقد وردت في محبة الله تعالى ورسوله ﷺ من الأخبار والآثار ما لا يشمله حصر حاصر، وإنما الغموض في تحقيق معناه، فلنشتغل به.

ولما كانت المحبة معنوية، وشاهدها شعور داخلي يصعب إثباته، ويستحيل الاطلاع عليه لامتحانه، وضع الله المعايير والدلالات التي تبرهن صدق هذه المحبة وتحققها، فالمحبة يمكن أن يدعيها كل إنسان، ويتلفظ بها كل لسان، وتحمل الخفايا ما لا تبديه الظواهر، وقد قال الشاعر حاكيًا هذا الحال:

وكلٌّ يدَّعي وصلًا بلَيْلَى ... ولَيْلَى لا تُقِرُّ لهم بذاك[3]

---

(١) أبو سعيد، الحسن بن يسار البصري، مولى زيد بن ثابت. كانت أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر، سنة: (٢١هـ)، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، قُتل عثمان وهو ابن أربع عشرة سنة. ولي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة. وعظمت هيبته في القلوب، فدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم. وكان غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه. توفي سنة: (١١٠ هـ). انظر: سير أعلام النبلاء: الذهبي: (٤/ ٥٦٣- ٥٨٨)، والأعلام: الزركلي: (٢/ ٢٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٢/٢٦، ٢٧).

(٣) هذا البيت اختُلف في نسبته لقائله، فنسبَه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى مجنون بني عامر. انظر: مجموع الفتاوى: ابن تيمية: (٤/ ٧١). بينما نسبه صاحب كتاب مجمع الحكم والأمثال إلى أبي العتاهية ولكن بلفظ:

وكلٌ يدعى وصلًا بسلمى ... وسلمى لا تَقرُّ لهمْ بذاك

مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي: أحمد قبش: (ص: ١٨١).

فلا بد من كاشف لما خَفِيَ في القلوب، وممحص لما غَابَ في الصدور؛ ولأجل ذلك جاء البيان الرباني والكاشف الإلهي مجليًا صدق هذه المحبة، ومخبرًا عن مكنونات الصدور، فكيف يحب الله من ليس على الطريقة المحمدية؟ إنه بذلك يكذِّب دعواه، ويكشف زيف ادّعائه.

ومن لطيف ما جاء في نظم الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمران: ٣١] ما يحمله لفظ: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ من المعاني التربوية البليغة التي تُبين أن محبة الله عز وجل لا تُنال إلا بالتدرج والترقي في مدارج العبادات، فلفظ ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ يوحي بذلك، فإن من لازم محبة الله تعالى اتِّباع نبيه ﷺ، كما أن من لازم محبة الله التودد والتقرب إليه بما يحبه، وفي الحديث القدسي ما يدل على هذا، فقد قال الله تعالى: ((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))[1]. فما أعظم هذه المحبة إن نالها أحد من العباد![2].

ومن الدروس التربوية في الآية أيضًا: المجازاة بالفضل زيادة على المثل، فحين سعى العبد لنيل محبة الله جازاه الله – وهو الكريم المنان – بالمثل؛ – أولًا – بأن أحبَّهُ، وزاده فضلًا منه – ثانيًا – بأن غَفَرَ له ذنبه، ومغفرة الذنوب مسلتزمة لإحلال الرضا، وسُكْنَى الجنة. ونظير هذا مذكور في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الشورى: ٤٠ – ٤٣]، فقد ذكر الله العدل بأن يأخذ الإنسان حقه جزاء السيئة بمثلها، ثم ندب إلى الفضل وهو العفو والصفح، ووعد عليه الأجر الجزيل، والثواب العظيم، فمن انتصر وقد ظُلم بدون تعدٍّ فقد أخذ حقه

(١) صحيح البخاري، برقم: (٦٥٠٢)، كتاب: الرقاق، باب: التواضع: (٨ / ١٠٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) انظر: روائع التفسير: ابن رجب الحنبلي: (٢/ ٢١٦).

عدلًا، ومن أخذ حقه وزيادة فقد اعتدى وظَلَمَ، ومن صبر على ظُلْمِه، وغَفَرَ لمن ظَلَمَهُ فقد نال عزائم الأمور وأعظمها استحقاقًا للأجر والمثوبة(١).

أثر محبة الله ورسوله ﷺ على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

يحظى الفرد الذي تحققت في حياته محبة الله ورسوله ﷺ، وأثبتت الشواهد صدق محبته، بأثر هذه المحبة في حياته، بنيل محبة الله التي هي مُنَى كل إنسان، وغاية كل عبد، فإذا أحبه الله غفر ذنبه، ومحا عنه خطيئته، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٣١]، وإذا أحبه الله عبدًا ضبط جوارحه كلها، فالأذن لا تسمع، والعين لا تنظر، واليد لا تبطش، والرِّجل لا تسعى، إلا في إطار شرع الله، وفي حدود محبة الله ورسوله ﷺ، فإذا وجَّه دعوة لحبيبه استُجيبت دعوته، وأُعطي أمنيته، وإذا استجار به من مكروه أجاره، وفرج عنه وأعانه، وإذا احتاجه في ملمّة قضى له حاجته، وأرشده لتيسير أمره، فأي أثر أعظم وأكرم من هذا؟ وأي ثمرة أسمى وأكبر من هذه؟!

أما من آثر محبة الخلق على محبة الله ورسوله ﷺ فقد استدعى عقاب الله، واستجلب لنفسه وقوع وعيد الله، المتمثل بقوله سبحانه: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [سورة التوبة: ٢٤]، ويا لشقاوته حين ضيع محبة الله، وتنكب الطريق الموصل إليها!.

الأثر على المجتمع:

إن المجتمع الذي يحب الله ورسوله ﷺ صدقًا ينال ثمرة هذه المحبة؛ بِلِيْنٍ ظاهر في قلوب أهله، ورقَّة بادية في أفئدتهم، فإذا أحب الله قومًا فلن يصدر منهم إلا كل فعل جميل، فتغفر لهم الزلات، وتقال لهم العثرات؛ لأنهم أحبوا الله ورسوله، وتسود بين قلوبهم الرأفة والرحمة، فتذلّ لبعضها، وتحنّ لبني جنسها، بينما ذات القلوب يتغير حالها تجاه من يبغضهم الله، فبعد أن كانت لينة ذليلة لبعضها أضحت قوية عزيزة على عدوها، دون تخوّف من قوته، أو تردد من سطوته، فلا يَردُّ عزمها رادٌّ، ولا يصد مضيها صادٌّ، ولا تؤثر فيها لومة لائم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [سورة المائدة: ٥٤]، فبمثل هؤلاء يُبنى المجتمع، وبصفاتهم تقوم أركانه.

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (١٢/ ١٣١٧، ١٣١٨).

المطلب الثالث: مظاهر الولاء والبراء.

قبل الشروع في الحديث عن مظاهر الولاء والبراء في سورة آل عمران وما تتضمنه من معان تربوية خالدة، نشرع بلمحة يسيرة في تعريف مفهومي الولاء والبراء.

معنى الولاء لغة واصطلاحًا:

الولاء لغة: مصدر ولْيَ، ووالَيْتُ[1]، و«الواو واللام والياء: أصلٌ صحيح يدل على قُرْبٍ»[2]. فهو لفظ يدل على القرب والمحبة والنصرة.

الولاء اصطلاحًا: هو: مفهوم عام يقوم على المحبة والنصرة والطاعة لمن يكون له الولاء والحب[3].

معنى البراء لغة واصطلاحًا:

البراء لغة: بمعنى «التباعد من الشيء ومُزايَلَته، من ذلك: الْبُرْءُ وهو السلامة من السُّقْمِ»[4]، وجاء في لسان العرب: «بَرِئَ إذا تخلّص، وبَرِئَ إذا تنزّه وتباعد»[5]. فهو لفظ يدل على البُعْدِ والتَّخَلُّصِ والتَّنزُّهِ.

البراء اصطلاحًا: هو: «البعد عن الكفار ومودتهم، والتخلص من قبائحهم وباطلهم، والإنذار لهم، ومقاطعتهم وبغضهم قلبيًا، وبغض ما هم عليه من الكفر والقبائح»[6].

---

(١) انظر: جمهرة اللغة: ابن دريد الأزدي: (١/ ٢٤٦)، باب: الثنائي في المعتل وما تشعب منه، مادة: (ولي).

(٢) مقاييس اللغة: ابن الفارس: (٦/ ١٤١)، باب: الواو واللام وما يثلثهما.

(٣) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية: د/ عثمان جمعة: (ص: ٣٦٣).

(٤) مقاييس اللغة: ابن الفارس: (١/ ٢٣٦)، باب: الباء والراء وما معهما في الثلاثي.

(٥) لسان العرب: ابن منظور: (١/ ٣٣)، باب: الألف، فصل: الهمزة، مادة: (برأ).

(٦) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية: د/ عثمان جمعة: (ص: ٣٦٧).

فالولاء والبراء من أهم أصول هذا الدين الحنيف، والنصوص الواردة فيه جمّة، وهو دأب الأنبياء عليهم السلام والصالحين من بعدهم.

وقد تناولت سورة آل عمران هذا الموضوع في آيات عدة بأسلوب تربوي قرآني بليغ؛ وإن كان بعضها قد جاء في سياق الحديث عن أهل الكتاب إلا أن فيها درسًا تربويًا خالدًا، يدوم بدوام هذا الدين، ويمكن ذكر هذه الآيات عبر النقاط الآتية:

١- النهي عن موالاة الكافرين: ففي أولى هذه الآيات يقول المولى جل وعلا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ٢٨، ٢٩]، فما أجمله من أسلوب بليغ، فالآية وإن كان سبب نزولها مخصوصًا(١)، إلا أن حكمها عام، والغاية منها مستمرة.

فنهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ إذ كيف يتولى المؤمن عدوًّا له يتربص به الدوائر، ويكيد له المكايد، فيُخلص ويُوفي له، بينما الآخر يعامله بالنقيض تمامًا، ويضمر له ولدينه الشر.

ثم عزَّزَ الله هذ النهي بما يُساعد على عدم الوقوع فيه، فقال بأسلوب ينبئ عن التهديد والتحذير: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [سورة آل عمران:٢٨]، أي: فقد بَرِئَ من الله، وبرئ منه الله(٢)، فما دام أنه لم يستجب لنداء الله، وخالف أمر مولاه، وذهب لموالاة أعداء الله؛ فلا يمكن أن يكون لله وليًّا، ولن يكن الله به حفيًّا؛ لأن الله إنما يتولى من عباده الصالحين.

ولما كان النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء قانونًا ربانيًا مُلزِمًا - وهو أعلم بحال عباده - فقد استثنى صورة معينة؛ مراعاة لحال عباده المؤمنين فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [سورة آل عمران: ٢٨]؛

---

(١) روى الواحدي ثلاث روايات في سبب نزول هذه الآية، الأولى: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في نفر من اليهود كانوا يُباطِنُون نفرًا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، الثانية: روى الكلبي أنها نزلت في المنافقين، عبدالله بن أُبي وأصحابه، وقد كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار؛ لكي يظفروا برسول الله ﷺ وأصحابه، الثالثة: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان له حلفاء من اليهود، فتبرأ منهم بعد خيانتهم في الأحزاب. انظر: أسباب النزول: الواحدي: (ص:١٠٢، ١٠٣).

(٢) انظر: جامع البيان: الطبري: (٦/ ٣١٣).

كأن يخاف المؤمن من بطش عدوه به فيواليه ظاهراً وقلبُه غير راض عن ذلك[1]، فلا حرج من اتقاء أذاهم بإظهار اللين في الكلام، واللطف في الفعال، مع إضمار العداوة لهم، وهو ما يمكن أن يعبَّر عنه بالاستثناءات؛ إذ لا بد من مراعاة ملابسات الأوامر والنواهي، وما يمكن أن يُعرقل عن تأديتها والقيام بها على أكمل وجه، وهذا درس تربوي مهم، فعند إصدار الأوامر والنواهي لابد من مراعاة إمكانية تطبيقها دون الحاجة الملجئة للتحايل عليها واختراقها بدعاوى مختلفة.

ثم أتْبَعَ الله هذا النهي بما يُساعد على تنفيذه والقيام به، وينفِّر عن مخالفته والتحايل عليه، قال سيد قطب رحمه الله: «ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكًا للضمائر، ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة اللّه وغضبه، في صورة عجيبة من التعبير حقًا: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [سورة آل عمران: ٢٨].

ويتابع السياق التحذير ولمس القلوب، وإشعارها بأن عين اللّه عليها، وأن عِلْمَ اللّه يشملها: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [سورة آل عمران: ٢٩]، وهو إمعان في التحذير والتهديد، واستجاشة الخشية، واتقاء التعرض للنقمة التي يساندها العلم والقدرة، فلا ملجأ منها ولا نصرة»[2].

هكذا ختم الله هذا النهي بغرس مفهوم الرقابة الإلهية؛ إذ هي أساس نجاح العمل بالقوانين، وضمان عدم اختراقها، فلا فائدة من القوانين في ظل غياب روح الرقابة الذاتية؛ فسيتحيَّن الإنسان فرصة سانحة يخترق فيها القانون بعيداً عن أعين الرقباء، بعكس ما إذا كانت الرقابة متأصلة في قلبه، فهي معه في كل مكان وإن غابت عنه أعين الناس أو كاميرا المراقبة، فتعزيز الرقابة الذاتية سبب في نجاح القوانين، والإتيان بالأوامر والنواهي على أكمل وجه.

(١) انظر: جامع البيان: الطبري: (٦/ ٣١٣)، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز: الواحدي: (ص: ٢٠٥).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٣٨٦).

وهذه المهمة من أعظم ما يحتاجه المربون في كل المجالات التربوية، فمن أنشأ جيلًا يستشعر الرقابة الإلهية، فلن يأتي إلا ما يرضاه الله، وسيجتنب كل ما يبغضه ويأباه. وهذ ما نفتقره في العصر الحالي، فحين غابت الرقابة البشرية في دنيانا، وانعدمت الرقابة الإلهية في قلوب بعضنا رأينا من يسرق ويهتك ويسفك الدم ويأتي الكبائر والمنكرات دون خوف أو وجل، ولو راقب الله واتقاه لما فعل.

٢- النهي عن اتخاذ بطانة من الكافرين: وهذا النهي في السياق السابق، فقد حذر الله المؤمنين من استعمال الكافرين في مفاصل دولتهم، ومن اتخاذ فئة من الأعداء في مواطن سرهم، والاطلاع على دخائل الأمور، وأسرار الدولة والولاة والحكام، وإسناد الوظائف الكبيرة أو المسؤوليات الخطيرة إلى من ليسوا بمؤمنين، والحذر من الإكثار من مخالطتهم ومعاشرتهم والتداخل معهم بلا ضرورة، فقال أحسن القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ١١٨ - ١٢٠].

قال القرطبي رحمه الله: «نهى الله عز وجل المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولُجَاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم. ويقال: كل من كان على خلاف مذهبك ودينك فلا ينبغي لك أن تحادثه»(١).

ولما كان هذا الأمر في غاية الأهمية، ويترتب على حصوله ضرر متحقق يؤدي إلى تسرُّب الأسرار التي تقتضي المصلحة كتمانه، ويؤدي إلى مخاطر تؤثر على كيان الأمة الإسلامية، ومصالحها العامة

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي: (٤ / ١٧٨).

العليا، ذكر المولى عشرة أسباب متتالية، هي كفيلة بإقناع المؤمنين بالتزام هذا الأمر وعدم مخالفته[1]، ثم ختَم الله الآية بقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٨]، فلا ملامة ولا عذر بعد قيام الحُجة، وبيان المحَجَّة[2].

فواجب على المربي إذا أمر بشيء أن يذكر دواعيَه، وإذا نهى عن شيء أن يُبين علَّته؛ ليكون أبلغ في إقناع النفوس بفعل الأمر واجتناب النهي؛ فقد جُبلت على حب معرفة الأسباب، والاطلاع عليها.

وقد فهم الصحابة هذا الأمر فامتثلوه؛ فحين وفد أبو موسى الأشعري[3] ﷺ على عمر بن الخطاب ﷺ ومعه كاتب نصراني أعجب به عمر ﷺ؛ لما رأى من حفظه فقال: "قل لكاتبك يقرأ لنا كتابًا، قال: إنه نصراني لا يدخل المسجد، فانتهره عمر ﷺ وهمَّ به، وقال: لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ اللهُ، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ اللهُ، وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللهُ عز وجل"[4].

وهكذا يجب أن يكون أهل الإسلام دومًا، فلا أمانة لمن خونه الله، ولا كرامة لمن أهانه الله، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [سورة الحج: ١٨]، ومخالفة هذا الأمر سبب لفساد دولة الإسلام،

---

(١) وهذه الأسباب ورد ذكرها في الآيات وهي: أولًا: لا يقصِّرون في إلحاق الفساد والضرر بأهل الإيمان: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾. ثانيًا: حريصون على إتعاب المؤمنين وإضلالهم: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾. ثالثًا: الكراهية لهم إلى حد عدم القدرة على كتمانها: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾. رابعًا: يخفون من البغضاء أكبر مما يظهرون: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾. خامسًا: غير أوفياء في مودتهم: ﴿تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾. سادسًا: مخادعون متملقون: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾. سابعًا: أهل حقد وضغينة: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾. ثامنًا: أهل حسد وبغي: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ﴾. تاسعًا: أهل شماتة وتشفٍ بالمؤمنين: ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾. عاشرًا: أهل كيد ومكر: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾. انظر: تفسير المراغي: أحمد المراغي: (٤/ ٤٤، ٤٥).

(٢) قال الرازي: «و (الْمَحَجَّةُ) بفتحتين جَادَّة الطريق». مختار الصحاح: (ص: ٦٧)، باب: الحاء، مادة: (ح ج ج).

(٣) أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري. أسلم بمكة، وهاجر الهجرتين؛ هجرة الحبشة والمدينة، وبقي بالحبشة حتى خيبر. وهو أحد علماء الصحابة وفقهائهم، بعثه النبي ﷺ مع معاذ إلى اليمن، أُعطي مزماراً من مزامير آل داود، ودعا له رسول الله. ولي البصرة لعمر ولعثمان، وله بها فتوحات كثيرة، وولي الكوفة، وبنى بها داراً. اختلف في وفاته وقبره، فقيل: توفي سنة: (٥٢هـ)، وقيل غير ذلك، ودفن بمكة، وقيل: بالكوفة. انظر: معرفة الصحابة: أبو نعيم: (٤/ ١٧٤٩- ١٧٥٤)، والإصابة في تمييز: ابن حجر: (٤/ ١٨١- ١٨٣).

(٤) السنن الكبرى للبيهقي، برقم: (٢٠٤٠٩)، كتاب: آداب القاضي، باب: لا ينبغي للقاضي ولا للوالي أن يتخذ كاتبًا ذميًا: (١٠/ ٢١٦).

وتمزق قضاياها، وخروج أسرارها إلى عدوها، والتاريخ شاهد بهذا بتألم مرير، فما أُتِيَ المسلمون من قِبَلِ أعدائهم إلا حينما اطمأنوا إليهم، ووثقوا بهم، واتخذوا منهم الوزراء والندماء والأمناء، وما حدث في حاضرة الإسلام – الأندلس[1] – لهو دليل باهر من التاريخ القديم، وما قاله الإمام القرطبي رحمه الله من عبارات دامية، فقد كتبها من أرض قرطبة[2] البلد الذي ينتسب إليه، فأين قرطبة اليوم بعد أن أضاعها الأمراء والوزراء باتخاذ اليهود والنصارى أولياء؟ وأين عشرات المدن والقرى والحواضر التي ضاعت في أيدي أعداء الإسلام منذ سقوط الأندلس إلى اليوم؟

وهكذا التاريخ المعاصر اليوم، فلا يخفى على ذي عينين ما يعانيه أبناء الإسلام من تشرذم وتفرق، واستيلاء العدو على أراضيهم وثرواتهم وحضارتهم، فالتاريخ يعيده الله اليوم بشكل أوسع، وبطريقة أحدث مما كان عليه، وهكذا تضيع مصالح وممتلكات المسلمين، وتسقط دُولهم، وتضيع هيبتهم؛ لأنهم لم ينصاعوا لما أراده الله لهم، فخالفوا شرعه، ورموا بأوامره خلفهم ظهريّا، فحلَّ بهم العقاب المستلزم لفعلهم، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٢].

٣- النهي عن محبة الكافرين: فقد نهى الله عز وجل عن موادّة الكافرين، وأنهم يعاملون المسلمين بنقيض ما يبدونه، قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [سورة آل عمران: ١١٩، ١٢٠]، فيجب على المؤمن أن يكون فطنًا لا تغره المظاهر، ولا تخدعه الكلمات المنمقة، ولا الادعاءات الكاذبة من أعداء الله ورسوله، فلا يلجأ لحُسن الظن بمن هذا حالهم، ولا تأخذه العاطفة بمن هذا مرادهم: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [سورة النساء: ٨٩].

---

(١) الأندلس: هو الاسم الذي أطلقه المسلمون على شبه جزيرة أيبيريا عام: (٧١١م)، بعد أن دخلها المسلمون بقيادة طارق بن زياد، وضمّوها للخلافة الأموية، واستمر وجود المسلمين فيها حتى سقوط مملكة غرناطة عام: (١٤٩٢م). ووصْفها كثير، وفضائلها جمّة، وفي أهلها أئمة وعلماء وزهّاد، ولها خصائص كثيرة ومحاسن لا تحصى. انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: (١/ ٢٦٢ – ٢٦٤)، وتاريخ الأندلس على موقع ويكيبيديا الحرة: https://ar.wikipedia.org .

(٢) قرطبة: مدينة عظيمة في وسط الأندلس، وكانت سريراً لملكها، وبها كانت ملوك بني أمية، وهي معدن الفضلاء، ومنبع النبلاء. بينها وبين البحر خمسة أيام، وهي أعظم مدينة بالأندلس، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة. وكانت حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور. انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: (٤/ ٣٢٤).

أثر الولاء والبراء على حياة الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

في التزام الفرد بأمر الله بعدم تولي الكافرين، أمان لدينه من التحول، ولقلبه من الزيغ، ولعمله من الفساد، فالمؤمن يتولى الله والذين آمنوا، ويتبرأ من كل من عادى الله ورسوله، فيحقق معنى الإيمان، ويجد حلاوته في الحياة، فعن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: ((ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))[1].

وبتحقيق مبدأ الولاء والبراء نجاة من النار، وانضمام لحزب الله المفلحين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

وبضياع هذا المبدأ ضعف لوازع الدين لدى العبد، واضطراب في عقيدته، فيستهين بما حرم الله عليه، ولا يحرص على سلامة دينه وعقيدته؛ بموالاة أعداء الله وعدم البراءة منهم[2].

الأثر على المجتمع:

إن امتثال الأمة والمجتمع لأحكام الله في موالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه يضمن لهم العزة والتمكين، والأمن من كيد الكافرين، أما إذا استهانوا بها، وتوسعوا في موالاة الكفار، والاستعانة بهم

---

(١) صحيح البخاري، برقم: (١٦)، كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان: (١/ ١٢)، وصحيح مسلم، برقم: (٤٣)، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان: (٦٦/١).

(٢) انظر: الولاء والبراء في الإسلام: شعبان محمود البركاتي: (ص: ٧١، ٧٢).

ومشاورتهم واستعمالهم في مفاصل دولتهم، فقد فتحوا على أنفسهم أوسع أبواب الوبال والخبال، وحكموا على دولهم بالزوال. والله المستعان.

وإن كثيراً من أبناء المجتمع المسلم يقدمون صورة مشوهة عن الإسلام، فباسم المواطنة والمساواة والاعتراف بالآخر ضاع مبدأ الولاء والبراء، وضرب الضعف والخور جذوره في الأمة، حتى اندثر مفهوم الجهاد في سبيل الله؛ وغُيِّبت الكثير من التشريعات الإسلامية، في ظل تمييع مبدأ الولاء والبراء، ومحاولة التقرب من أهل الكفر والضلال؛ وبذلك خمدت نار الغيرة على الإسلام، ونبيه ﷺ؛ حتى رأينا وسمعنا من يطعن ويسب دين الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام، دون أن نرى من أبناء المجتمع المسلم من يتمعَّر وجهه غضبًا، أو ينكر بلسانه حبًّا وولاءً؛ إلا القلة ممن وفقهم الله لذلك[1].

(١) انظر: الولاء والبراء في الإسلام: شعبان محمود البركاتي: (ص: ٧٢).

المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بالعبادات.

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول**: المداومة على العبادة والاستمرار فيها.
- **المطلب الثاني**: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- **المطلب الثالث**: الإنفاق في سبيل الله والتحذير من البخل.
- **المطلب الرابع**: التحذير من أكل الربا.
- **المطلب الخامس**: التفكر في مخلوقات الله.

المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بالعبادات.

المطلب الأول: المداومة على العبادة والاستمرار فيها.

لقد تبوَّأت العبادة لله أشرف مقام وأسمى مكانة؛ ولذلك وصَف الله بها أحب خَلْقِه إليه محمدًا ﷺ في أشرف المقامات؛ تكريمًا له وتعظيمًا.

ولعل ما تميزت به سورة آل عمران دوام الأسرة المباركة - أسرة آل عمران -على عبادتها، وكثرة صَلاتها، والتجائها إلى بارئها، ولعل سر توفيق الله لها هو ملازمة المحراب، ومصاحبته طويلًا، وبيان ذلك كالآتي:

١- مداومة العبادة عند والدة مريم: وذلك أن جعلت كل همها اتصال العبادة ودوامها؛ وبيان ذلك أنها نذرت ما في بطنها محررًا لخدمة بيت الله المقدَّس[١]، وفيه إشارة إلى استمرار العبادة والمداومة عليها؛ حيث إنها ظلت فترة حملها كلها تتنظر الوفاء بهذا النذر الذي وهبته لله تعالى، وذلك مداومة منها على العبادة. ثم إن الولد الذي نذرته لخدمة بيت الله حررته من كل أعمال سوى عبادة الله في القيام على بيته، مما يعني التفرغ التام، والمداومة والملازمة للبيت المقدّس، وهو ما حصل لمريم حين تحقق النذر.

٢- مداومة العبادة عند مريم عليها السلام: فقد لازمت المحراب طويلًا، واستصحبت العبادة كثيرًا، فقال جل شأنه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [سورة آل عمران: ٣٧]، فلفظ: (كلَّما) يفيد التكرار[٢]، فقد كانت ملازمة لموطن عبادتها ومناجاتها، وقد قيل: إن اسم مريم يعني: العابدة والخادمة، بلُغَتِهم[٣].

وفي قول الحق تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران: ٣٧] تربية للعبد، ألَّا يخافَنَّ فوات رزق، أو زوال دنيا ما دام أنه مقيمٌ على العبادة، مستمر في الطاعة، فمن انشغل بالله أتته الدنيا راغمة، وجاءه رزقه ساعيًا، فهذه مريم امرأة ضعيفة ساق الله لها رزقًا ليس في أوانه، ومنحها

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ابن عطية الأندلسي: (١/ ٤٢٤)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير: (٢/ ٢٨).

(٢) انظر: الجدول في إعراب القرآن: محمود صافي: (١٧/ ١٠٣).

(٣) انظر: معالم التنزيل: البغوي: (٢/ ٣٠)، والكشاف: الزمخشري: (١/٣٥٦)، والتفسير الكبير: الرازي: (٨/ ٢٠٤)، وغيرهم.

ثمرًا ليس في زمانه، فكان يأتيها بفاكهة الشتاء في الصيف، وبفاكهة الصيف في الشتاء[1]، مما استجلب غرابة زكريا عليه السلام فقال متسائلًا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [سورة آل عمران: ٣٧]، بل ورزقها الله عيسى عليه السلام نبيًّا من الصالحين، وأتى به من أم بلا أب. فكيف يخاف من يعيش في كنف الكريم جل جلاله؟!

٣- مداومة العبادة عن زكريا عليه السلام: فقد جاء وصفه مقرونًا بالمحراب لكثرة ملازمته له، قال تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ [سورة آل عمران: ٣٩]، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ [سورة مريم: ١١]، فذلك سر اصطفاء الله لهذه الأسرة الطيبة.

ومن صور مداومة زكريا عليه السلام للعبادة: أنه لم يُفرط في كفالته لمريم عليها السلام، ولم يذر تعهّدها، والسؤال عن حالها، ومتابعة كفالته لها، وذلك ظاهر من خلال قول الحق سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [سورة آل عمران: ٣٧]، فهو وإن وجد عندها رزقًا يكفيها، إلا أنه يسألها كل وقت عن حالها؛ لأن كرامات الأولياء ليست مما يجب أن يدوم، فيجوز أن تدوم عليهم، ويجوز ألا تدوم، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على تلك الكرامة فيترك تفقد حالها، بل كان يجدّد السؤال عنها بقوله: ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾[2].

وفيه درس تربوي لكل من استرعاه الله على خَلْقِه ألا يتوانى في حفظ ما استرعاه الله، فيتفقد حالهم، ويسأل عن حاجتهم، ويجدد السؤال والتفقد وإن كانوا في حال حَسَنٍ؛ فقد تتغير الأحوال في لحظة بعد أن كانت في تمام كمالها

كما أن في دوام العبادة درس آخر؛ حيث أدرك زكريا عليه السلام مكان تنزل الهبات، وموطن الحصول على الأمنيات، فقد تمنى الولد زمنًا، حتى اشتعل الرأس شيبًا، لكنه حين رأى أن عيسى عليه السلام جاء بلا أب زاد رجاؤه بحصول الولد، وازداد يقينًا على يقين، فلازم المحراب، والتجأ إلى الملك الوهاب: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [سورة آل عمران: ٣٨]، فجاءه الرد وهو في مكان عبادته، وموضع صلاته: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ

(١) انظر: جامع البيان: الطبري: (٦/ ٣٥٣)، والتفسير الوسيط: الواحدي: (١/ ٤٣٢).

(٢) انظر: لطائف الإشارات: القشيري: (١/ ٢٣٩).

يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٣٩]، فاستجاب الله دعاءه، وحقق الله رجاءه، فرزقه النبيَّ السيد الحصور(١) يحيى عليه السلام، وأتى به بعد اليأس من أبٍ اشتعل الشيب بمفرقه، وذبلت الآمال في قلب زوجه.

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن من التزم العبادة، وصاحب محراب الطاعة أتته الأمنيات ولو كانت في نظره مستحيلة، فهو الله الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال النسفي(٢) رحمه الله معلقًا على هذا: «وفيه دليل على أن المرادات تُطلب بالصلوات، وفيها إجابة الدعوات، وقضاء الحاجات، وقال ابن عطاء(٣): ما فتح الله تعالى على عبد حالة سنيَّةً(٤) إلا باتباع الأوامر، وإخلاص الطاعات، ولزوم المحاريب»(٥).

ومن أجَلِّ الجوانب التربوية التي ينبغي أن تكون درسًا لا يُنسى، قصة حصول زكريا عليه السلام على الولد، فإنه لم ييأس من رَوْحِ الله، ولم يَمَلَّ من سؤال الله، بل كرّر الدعاء، واستمر في الطلب حتى آتاه الله مناه. وفي هذا إشارة إلى من له حاجة أن يقف بمحراب المناجاة، وليكرِّر الدعاء، وليكن ملْحَاحًا في طلب حاجته، فإن الله يحب الملحِّين عليه بالدعاء والطلب، و «لا يتبرَّم بإلحاح الملحِّين، بل

(١) الحصور: هو الذي لا يأتي النساء، والمقصود أنه متعفِّفٌ مجتهدٌ في محاربة الشهوة. انظر: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: (ص: ٢٣٨)، كتاب: الحاء، باب: (حصر).

(٢) أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي. مفسر، أصولي، من فقهاء الحنفية. نسبته إلى (نسف) من بلاد السند. تتلمذ لشيوخ كثيرين، ورحل إلى بغداد. وكان إمامًا في الفقه والأصول، بارعًا في الحديث ومعانيه، من أشهر مصنفاته: (مدارك التنزيل)، يعرض فيه وجوه الإعراب والقراءات وشيئًا من البيان والبديع، معوِّلًا على آراء أهل السنة والجماعة. توفي ببغداد سنة: (٧١٠هـ). انظر: طبقات المفسرين: الأدنه وي: (ص: ٢٦٣)، ومعجم المفسرين: عادل نويهض: (١/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) أحمد بن محمد ابن عطاء الله الإسكندراني. متصوف شاذلي. كان فقيهًا عالمًا، وكان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. له تصانيف منها: (الحكم العطائية) في التصوف، و(تاج العروس) في الوصايا والعظات. توفي بالقاهرة سنة: (٧٠٩ هـ). انظر: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر: الطيب بامخرمة: (٦/ ٥٣)، والأعلام: الزركلي: (١/٢٢١، ٢٢٢).

(٤) أي: عالية كبيرة. انظر: معجم متن اللغة: أحمد رضا: (٣/ ٢٣١)، مادة: (س ن هـ)، وهي صفة مشبهة تدل على الثبوت، مشتقة من السَّنَا، وهو الضوء اللامع. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد: (٢/ ١١٢٣)، حرف السين، مادة: (س ن و، س ن ي).

(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفي: (١/ ٢٥٣).

يحب الملحِّينَ في الدعاء، ويُحب أن يُسأل، ويغضب إذا لم يُسأل» كما قال ابن القيم[1] رحمه الله[2]، وقال أيضًا في موضع آخر: «وأَحَبُّ خلقه إليه أكثرهم وأفضلهم له سؤالًا، وهو يحب الملحِّين في الدعاء، وكلما ألَحَّ العبد عليه في السؤال أحبّه وقرّبه وأعطاه»[3].

وإن الله جل شأنه يحب من عبده دوام العبادة، واتصال العمل، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: ((أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ))[4]. وعنها أيضًا رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ))[5]. وكذلك كان أحب العمل إلى الحبيب ﷺ ما داوم عليه صاحبه، واستمر عليه فاعله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كَانَ أَحَبُّ العَمَلِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ))[6].

أثر المداومة على العبادة على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

تعمل المداومة على العبادة في تربية حياة الفرد الأخلاقية والإيمانية والعقدية وشتى النواحي المختلفة، فالعبد الذي تتَّسِمُ حياته بالعبودية في كل لحظاته لا شك أنه يحظى من الله بمزايا عديدة، ومنح مجيدة، والتي من أهمها:

---

(١) شمس الدين محمد بن أبي بكر، الإمام العلامة الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزية. ولد سنة: (٦٩١هـ)، وهو أشهر تلامذة ابن تيمية، كان عارفًا بالتفسير وبأصول الدين، وإليه فيهما المنتهى، وبالحديث والفقه وأصوله، وبالعربية، وبعلم الكلام وغير ذلك، وله في كل فن اليد الطولى. امتُحن وأوذي مرات، وحبس بالقلعة منفردًا عن شيخه، ولم يخرج إلا بعد موت شيخه. صنف الكثير من التصانيف أشهرها: (زاد المعاد، ومدارج السالكين). توفي سنة: (٧٥١هـ). انظر: الوافي بالوفيات: الصفدي: (١٩٥/٢-١٩٧)، طبقات المفسرين: الداودي: (٢/ ٩٣- ٩٧).

(٢) الجواب الكافي: (ص: ٢٣٠).

(٣) حادي الأرواح: (ص: ٩١).

(٤) صحيح مسلم، برقم: (٧٨٢)، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره: (١/ ٥٤١).

(٥) صحيح البخاري، برقم: (٦٤٦٤) كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل: (٨/ ٩٨)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٨١٨) واللفظ له، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل الجنة أحد بعمله: (٤/ ٢١٧١).

(٦) صحيح البخاري، برقم: (٦٤٦٢) كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل: (٨/ ٩٨).

أولًا: إجابة الدعاء وتسهيل الصعاب؛ وهذا ظاهر في قصة زكريا عليه السلام، وإجابة دعائه، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة آل عمران:٣٨-٣٩]. فمَنْ تضرَّع إلى الله خالصَ النية، طاهر النفس والسريرة أجاب الله دعاءه، ومَن أكْثَرَ من طَرْقِ الباب يُوشك أن يُفتَحَ له، ولله سنَّته في إجابة الداعين من خلقه، فهو القائل تعالى جدُّه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

ثانيًا: توالي الرزق وإسباغ النعم؛ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران:٣٧]، فالعبد يسعى لرزقه مبكرًا، ويجري خلف دنياه باذلًا قصارى جهده لتحصيلها، ويغفل عن أعظم أسباب الرزق وأقواها، والتي هي الصلاة أم العبادات وعمود الدين، وينسى أن مريم عليها السلام جاءها رزقها وهي في محرابها، وزكريا عليه السلام جاءته البشرى وهو قائم يصلي في المحراب، وفي الكتاب العزيز يقول الله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة طه: ١٣٢]، فدوام العبادة سبب في دوام الرزق، والإكثار منها داع لاستجلابه وحصوله.

ثالثًا: الولاية والنصرة؛ فإن الله تعالى حين رأى صدق مريم عليها السلام وتوجهها للعبادة كفَّلها زكريا عليه السلام؛ وفي ذلك تأمين لها من ناحية المتابعة والقيام بحوائجها، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، ثم إنه سبحانه لم يدع أمرَها كله على زكريا عليه السلام، بل تدخلت الولاية والنصرة الإلهية لتأتيها برزق لم يستطع توفيره لها زكريا عليه السلام ولا غيره: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ ليُعْلِمَ المؤمنين أنه هو وليهم: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨]، وأنه متكفل بنصرهم: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: ٤٧]، فليطيِّبُوا نَفْسًا، ولينْشَغلوا بعبادة الله والتفرغ لطاعته، وسيُجري الله لهم الأرزاق والألطاف من بين أيديهم ومن خلفهم وهم لا يشعرون.

الأثر على المجتمع:

إن مداومة العبادة، والاستمرار عليها لا تعود بالنفع على صاحبها فقط، بل تعم المجتمع بكله، فهذه مريم عليها السلام حين لازمت العبادة، حصدت ثمرة ذلك أن وهبها الله نبيًّا من المرسلين، وأرسله إلى مجتمع بني إسرائيل ليضع عنهم إصرهم، ويحل لهم ما كان الله قد حرمه عليهم، ويداوي الأبرص منهم فيعود كما كان، والأكمه فيرى النور بإذن الله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة آل عمران:٤٥-٤٩].

وإن من سنن الله في خلْقِه أن رَبَطَ أمْنَهم الوجودي والنفسي والاجتماعي باستقامة أحوالهم، فإن هم استقاموا على نهجة، وساروا بما أمرهم به، حقق لهم وعده؛ بأن يصلح لهم دنياهم، ويُؤمِّن لهم معيشتهم، ويبسط لهم رزقهم، ويوسع عليهم في الدنيا، ويدخر لهم النعيم المقيم في الآخرة، فيحوزون عز الدنيا، وشرف الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [سورة الجن: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٩٦][1].

(١) انظر: صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني: (٣/ ٤٣٦).

المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

تتربع شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – والدعوة بشكل عام – على هرم سلَّم أولويات هذا الدين، فبها قيامه، وعليها اعتماده؛ وبها نالت هذه الأمة الخيرية من بين الأمم.

وفي هذه السورة المباركة أعظم الآيات الباعثة على القيام بهذه الشعيرة، وأكبر أدلة وجوبها والحض عليها، فقد جاء سياقها آمرًا بالقيام بها أولًا، فقال عز وجل: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤]، فأناط الفلاح بالقيام بأمر الدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقَرَنه بإحياء هذه القُربة التي تتضاءل درجات القربات دون ذروتها، فجاء بالحصر بعد الوصف بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. ثم أعقب بالثناء على هذه الأمة، ومنْحِها وسام الخيرية من بين الأمم ثانيًا، فقال جل شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ...﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، وهذه الخيرية مشروطة بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فقد تُسلب هذا الوسام بتخلفها عن تحقيق الشرط، قال قتادة[(١)] رحمه الله: «ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب قال في حجّة حجّها ورأى من الناس رِعَةً سيئة[(٢)]، فقرأ هذه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...﴾ الآية. ثم قال: "يا أيها الناس! من سرَّهُ أن يكون من تلك الأمة فليؤدِّ شرط الله منها"»[(٣)]، ولقد تقلدت أمة بني إسرائيل الأفضلية بين الأمم عهدًا، وفضلهم الله على العالمين زمنًا فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٠]، وقال في معرض الحديث عنهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الجاثية: ١٦]، لكنهم حين

---

(١) أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي، البصري التابعي الأكْمَه المفسِّر. كان أحفظ الناس، عالمًا كبيرًا، وحافظًا للحديث، ورأسًا في العربية وأيام العرب والنسب. روى عن أنس وغيره. أقام عند ابن المسيب ثمانية أيام فقام له: ارتحل يا أعمى فقد أنزفتني. وكان يقول: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا، وقال: ما أفتيت بشيء من رأيي منذ عشرين سنة. توفي سنة: (١١٨هـ)، وقيل غير ذلك. انظر: تذكرة الحفاظ: الذهبي: (١/ ٩٣)، وطبقات المفسرين: الأدنه وي: (ص: ١٤).

(٢) الرِّعَةُ: أصلها من الوَرَع، قال الزمخشري: «يُقَال: وَرِعَ يَرِعُ رِعَةً، مثل: وَثِقَ يَثِقُ ثِقَةً، إذا كفَّ عمّا لَا ينبغي. والمراد هاهنا: الاحتشام، والكف عَن سوء الْأَدَب، أَي: لم يُحسنوا ذَلِك». الفائق في غريب الحديث: الزمخشري: (٤/ ٥٦)، حرف الواو.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري، برقم: (٧٦١٢)، تفسير سورة آل عمران: (٧/ ١٠٢).

تنكبوا صراط ربهم، وخالفوا أمره، وتركوا هذه الشعيرة، انقلب حالهم من أفضل الأمم إلى أرذلها، ومن أعزها إلى أذلها، فحقَّت عليهم اللعنة، وحلّ بهم الغضب: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [سورة المائدة:٧٨، ٧٩]، وأما من كان منهم ثاويًا على العهد، واستطاع تحقيق الشرط فقد استثناهم الله وميزهم، وأعلى من شأنهم وفضَّلهم، ونجاهم مما عاقب به قومهم فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٥]، وقال أيضًا: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾ [سورة آل عمران:١١٣- ١١٥]، فما نالوا هذا الثناء والجزاء بمجرد إيمانهم وصلاح أنفسهم فحسب، بل بتعدي هذا الصلاح لغيرهم، وانتفاع الآخرين بدعوتهم، وكذلك هو حال المؤمنين: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة التوبة: ٧١]. فلا يكفي صلاح النفس وكثرة العبادة والعمل، بل لا بد من تعدي هذا الصلاح إلى الآخرين، قال ابن القيم رحمه الله: «وقد غرَّ إبليسُ أكثر الخلق[1]؛ بأن حسَّنَ لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطَّلوا هذه العبوديات، فلم يحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقلِّ الناس دِينًا؛ فإن الدِّين هو القيام لله بما أمر به، فتَارِكُ حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالًا عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهًا ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه[2]. ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه رأى أن أكثر من يُشار إليهم بالدِّين هم أقلّ الناس دينًا، والله

(١) الأفضل أن يقال: أكثر الناس؛ لأن الخلق يدخل فيهم الناس وغيرهم من المخلوقات المتنوعة.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ابن تيمية: (٢٠/ ٨٥، ١٥٨)، لكنه لم يذكر سوى اثنين وعشرين وجهًا.

المستعان!. وأيُّ دِينٍ، وأي خير فيمن يرى محارم الله تُنتهك، وحدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسنة رسول الله ﷺ يُرغب عنها وهو بارد القلب، ساكت اللسان؟»[1].

ولعل من أجَلِّ المضامين التربوية في هذا الموضوع هو ذلك التدرج التشريعي القرآني البليغ؛ حيث ابتدأ بذكر فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلفظ جاء على سبيل التكليف الكفائي: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ثم أعقب الأمر بذكر الثواب والجزاء: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٤]؛ ليكون فيه تحميس وشحذ للهمم في تنفيذ الأمر، والقيام به دون تردد أو تقاعس.

ولما كانت بعض النفوس شأنها التواني عن اكتساب الثواب تسويفًا أو تكاسلًا فقد عقّب بذكر الآثار المترتبة على تركه، فالتفرُّق والاختلاف في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة هما ما يترتب على ترك هذه الفريضة، مع ضرْبِ مثال حَيٍّ من أهل الكتاب الذين أصابهم ذلك؛ لتقريب الصورة أكثر، ولتسريع وتيرة القبول والاستجابة، ثم خُتم الأمر بالثناء على من يقوم به؛ إذ تشتاق الأنفس بعد القيام بالعمل والفراغ منه لشيء من الثناء الجميل، والمدح العطر؛ كنوع من بثِّ روح الطمأنينة والاستمرارية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، وبهذا تكتمل صورة التكليف تمامًا، بعد مرورها بمراحل متنوعة بتنوع احتياجات النفس والواقع، ومراعاة الظروف والأحوال.

فإذا تعطلت عجلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أمة، وطُوي بساطه، واندرس أثره دبَّت الفرقة إلى صفها، وانتشرت الجهالة بين أفرادها، وساد الفساد في ساحها، فحقّ عليها القول، واستحقت الهلاك، حينها لن ترى إلا مداهنًا للخلق، متهيبًا منهم، أو مستخفًا بأمر الخالق، قد أَخْرَسَ لسانه الشيطان عن قول الحق وهو عالم به، وتلك من أعظم البلايا، ثم ما هو إلا أن ترى تلك اللسان الخَرْسَاء مُبِيْنَةً فصيحة عند المساس بشيء من ممتلكات أهلها الدنيوية، «وهل بَلِيَّة الدِّين إلا من هؤلاء

(١) إعلام الموقعين: (٣/ ٤٢٨).

الذين إذا سَلِمَتْ لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارُهم المتحزِّن المتلمظ[1]، ولو نُوزِعَ في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله لَبَذَلَ وتَبَذَّلَ، وجَدَّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه. وهؤلاء – مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم – قد بُلوا في الدنيا بأعظم بليَّة تكون وهم لا يشعرون، وهو موت القلوب؛ فإنه القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكْمَل»[2].

أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

لا شك أن لكل تشريع أثره التربوي، وبُعده الإيماني والأخلاقي والاجتماعي على حياة الفرد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على رأس هذه التشريعات، ففيه الآثار المتعددة التي تحمل في طياتها الخير العميم، والثواب الجزيل، ومن أهم هذه الآثار ما يأتي:

أن في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استجابة لنداء الله، وتطبيقًا لأمر الله، فينال العبد به من الله الثواب، وينجو به من العقاب، حيث تُكفَّر به ذنوبه، وتمحى عنه سيئاته، فعن حذيفة ﷺ قال: كنا جلوسًا عند عمر ﷺ فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا كما قاله، قال: إنك عليه أو عليها لجريءٌ، قلت: ((فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ، وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ))[3]. وهو سبب النجاة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٥]، وفي الآخرة تبْيَضُّ وجوههم يوم تبيَضُّ وتسوَدُّ وجوه.

---

(١) المتحزِّن: اسم فاعل، وهو المتوجع كثيرًا لما أصابه. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد: (٤٨٨/١)، حرف الحاء، مادة: (ح ز ن).

والتلمُّظ يأتي لمعان عدة، وهو هنا بمعنى التغيُّظ، قال المرتضى الزبيدي: «وألْمَظَ عليه: مَلأه غَيظًا». تاج العروس: المرتضى الزبيدي: (٢٠/ ٢٧٧)، فصل: الميم مع الظاء، مادة: (ل م ظ).

(٢) إعلام الموقعين: ابن القيم: (٣/ ٤٢٨ ، ٤٢٩).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٥٢٥)، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة: (٤/ ٢٠٦٠).

وهو دليل على كمال الإيمان لدى الفرد المسلم، فعن أبي سعيد الخدري[1] ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ))[2].

وفيه الازدياد من الأجور الكثيرة، فمن أمر بمعروف كان له مثل أجر من عمله، قال سبحانه: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١١٤]، وعن أبي هريرة[3] ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا))[4]، ومن نهى عن منكر كان له من الأجر كذلك.

الأثر على المجتمع:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صمام أمان الحياة الاجتماعية، وإن من أهم مفاسد تعطيل هذه الشعيرة العظيمة التي يعود أثرها على المجتمع ما جاء ذكره في سياق الآيات البينات، من ذِكْرِ التفرق والاختلاف والنهي عنه، والوعيد بالعذاب العظيم لأهله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥]، وعلاقة هذا بذاك ما ذكره سيد قطب رحمه الله بقوله: «يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف، ويُنذرها عاقبة

(١) أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري، وخدرة وخدارة أخوان بطنان من الأنصار، وهو من خدرة. وكان من الحفاظ لحديث رسول الله المكثرين لروايته، روى عنه جماعة من الصحابة والتابعين. عُرض على رسول الله يوم الخندق وهو ابن ثلاث عشرة فردَّه، ثم شهد بعد ذلك اثنتي عشرة غزوة. وكان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم. توفي سنة: (٧٤هـ). انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٢/ ٦٠٢)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٦/ ١٣٨).

(٢) صحيح مسلم، برقم: (٤٩)، كتاب: الإيمان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيمان: (١/ ٦٩).

(٣) أبو هريرة، اشتهر بكنيته، واختُلف في اسمه واسم أبيه اختلافًا كثيرًا. وأصحها: عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني. أسلم يوم خيبر، وشهد كل المشاهد بعدها. وكان من أحفظ الصحابة للحديث، فقد روى عنه نحو الثمانمائة راوٍ. استعمله عمر على البحرين ثم عزله، ثم أراده على العمل فأبى عليه، سكن المدينة حتى توفي سنة: (٥٨هـ) وقيل غير ذلك. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/١٧٦٨- ١٧٧٢)، الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٧/ ٣٤٨ -٣٦٢).

(٤) صحيح مسلم، برقم: (٢٦٧٤)، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة: (٤/ ٢٠٦٠).

الذين حملوا أمانة منهج اللّه قبلها من أهل الكتاب، ثم تفرقوا واختلفوا، فنَزَع اللّه الراية منهم، وسلَّمها للجماعة المسلمة المتآخية، فوق ما ينتظرهم من العذاب: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٦]»[(١)].

فلا ينال مجتمعٌ سمة الخيرية والفلاح إلا بالأمرين المذكورين في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]؛ إذ فيهما عوامل زيادة الخير وأهله، والقضاء والتقليص من الشر وأهله، فتنمو في المجتمع آداب جمة وفضائل، وتختفي منه منكرات كثيرة ورذائل، ويحظى بالتكافل بين أبنائه، فيأخذون بأيدي بعض لتحقيق الخير والمعروف، ويأخذون على أيدي آخرين لدفع الشر والمنكر.

فالمجتمع الذي يدل على الخير ويأمر به، وينهى عن المنكر ويأخذ على يد صاحبه، يعيش حالة من الاستقرار والأمن النفسي والمجتمعي، فتبقى شرائع الإسلام فيه محروسة من الانتهاك، وآدابه مصونة من الانحلال؛ لأن أثر ضياع هذه الشعيرة لا يصيب فاعلها فقط، بل يتعدى ليشمل المجتمع وكل مجاور له، كما قال النبي ﷺ: ((مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا))[(٢)]، وقال جل شأنه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: ٢٥].

وهكذا جاء الإسلام بإقرار المعروف وتحسينه والدعوة إليه، وإنكار المنكر وتقبيحه والنهي عنه؛ ليبقى المجتمع المسلم أنموذجًا للطهارة والصفاء والنقاء.

---

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤٤٥).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٢٤٩٣)، كتاب: الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه: (٤/ ٢٠٦٠)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

المطلب الثالث: الإنفاق في سبيل الله والتحذير من البخل.

لقد جاء الإسلام بحزمة من التشريعات التي تنظّم شؤون المجتمع، وتدعو لبنائه وحفظ كيانه، فحددت معالمه، ونظَّمَت أُطُرَهُ، وثبتت أوتاده، ومن أهم عوامل بناء المجتمع: التكافل والترابط بين أبنائه، فلا يمكن لمجتمع أن ينعم بحياة مستقرة إذا لم يكن متكافلًا، ولن يستمتع بأمن ما لم يكن مترابطًا؛ ولأجل ذلك تظافرت النصوص المرسية لهذا المبدأ، والمثبتة لهذا الركن الركين في المجتمع.

وإن سورة آل عمران المباركة قد جسَّدت دورًا هامًا في ترسيخ مبدأ الإنفاق في سبيل الله عز وجل، ابتداء من محور السورة وقُطْرَها – أسرة آل عمران المباركة –، فقد قامت امرأة عمران بفعلٍ يعد من قبيل الإنفاق والهبة في سبيل الله، فوهبت ما في بطنها لله عز وجل، يخدم بيته، وينشغل بالقيام عليه، وأي إنفاق أعظم من أن يجود المرء بفلذة كبده في سبيل الله ومرضاته؟ فقبل الله هبتها، واصطفاها وأسرتها على العالمين.

ثم إنه سبحانه ندَب عباده للإنفاق في سبيله بأسلوب يراعي رغبات النفوس، ويلامس مواطن الترغيب فيها، فدعاهم إلى المسارعة وحثِّ الخطى لجنة عرضها السموات والأرض، ثم جعل أول سمة للوصول إليها الإنفاق في السراء والضراء، والعسر واليسر؛ مما يجعل النفس تستجيب لذلك النداء، وتحث الخطى مسارعة نحو تلك الجنة والنعيم المقيم، محققة أولى صفات أهلها وساكنيها، فقال جل شأنه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]، ومعنى الآية كما قال ابن الجوزي رحمه الله: «أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يبطرهم الرخاء فينسيهم، و لم تمنعهم الضراء فيبخلوا»[(١)].

وفي سياق تربوي آخر يعْلَمُ سبحانه أن بعض النفوس وإن تقبَّلت الجود بما يقع في يدها من مال الله على خلاف هواها، إلا أنها قد تضن[(٢)] بالطيِّب منه وتنفق الرديء، فأعلمهم أن ذلك ليس من البرِّ، وإنما البر أن ينفق الإنسان مما يحب من المال، وأرشدهم أن الجنة التي عرضها السموات والأرض

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: (١/ ٣٢٦).

(٢) قال الفراهيدي: «الضِّنُّ والضِّنَّةُ والمَضِنَّةُ، كلُّ ذلك من الإمساكِ والبُخْل». العين: (٧/ ١٠)، باب: الضاد مع النون. وقال ابن الفارس: «الضَّاد والنُّون أصل صحيح يدل على بُخْلٍ بالشيء. يقال: ضَنِنْتُ بالشيء أَضَنُّ به ضَنًّا وضَنَانَةً، ورَجل ضَنِينٌ. وهذا عِلْقُ مَضَنَّة ومَضِنَّة، إذا كان نفيسًا يُضَنُّ به». مقاييس اللغة: (٣/ ٣٥٧)، كتاب: الضاد، باب: الضاد في المضاعف والمطابق، مادة: (ضَنَّ).

والتي يُعبَّر عنها بالبرِّ أحيانًا[1] لا تُنال إلا بإخراج أحب المال إلى النفس، فقال جل ثناؤه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢].

ثم إنه تعالى بعد أن حببَّ الإنفاق في سبيله، وزينه للنفوس والقلوب، ذم البخل وأهله، وتوعد أهله بجَعْلِ ما بخلوا به طوقًا لهم من النار، ويلازم إثم ذلك البخل رقابهم فلا ينفك عنها[2]؛ وفي هذا ترسيخ لمبدأ الإنفاق والجود من وجه، وتنفير من البخل والإمساك من وجه آخر، فقال جل وعلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٠].

وهكذا يكتمل المشهد بكل فصوله، فبعد أن اتَّصفت النفس بحب المال حبًّا جمًّا، ها هي تعْمَد إلى أفضله وأعزّه عليها لتُقْرِضَهُ مولاها؛ راجية منه البِرَّ الذي يهدي إلى جنة عرضها السموات والأرض، منتظرة موعود رب العالمين لها بالإخلاف والمضاعفة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [سورة آل عمران: ٩]. وبهذا تكون عوامل تربية النفس وترويضها على الإنفاق قد تكاملت، وطرق علاجها قد تنوعت، ولم يبق أمامها سوى الاستجابة لنداء رب العالمين، وأحاديث سيد المرسلين؛ لبناء مجتمع متكافل مترابط، يعيش أبناؤه بروح الجسد الواحد، فيتألمون لألم بعضهم، ويفرحون لفرحهم.

أثر الإنفاق في سبيل الله على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

للصدقة شأن عظيم في الإسلام؛ فهي من أوضح الدلالات على صدق إيمان المتصدِّق؛ ففيها تربية للنفس إذا تعمَّدَتْ ما تحب فأخرجَتْهُ في سبيل الله، فتنال بذلك البِرّ من جهة، كما قال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢]، وتتربى على حب الغير، ومعالجة النفس من البخل من جهة أخرى، قال الحق سبحانه: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ

(١) انظر: المحرر الوجيز: ابن عطية: (١/ ٤٧١)، والتفسير الكبير: الرازي: (٨/ ٢٨٩).

(٢) انظر: جامع البيان: الطبري: (٧/ ٤٣٨)، وتفسير السمعاني: منصور السمعاني: (١/ ٣٨٣).

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٠]، فمن فعل ذلك فقد تغلَّب على ما جُبلت عليه نفسه من حب المال والسعي إلى اكتنازه، ففيها دفع للبلاء، ووقاية من مصارع السوء، وهي للمال من أعظم أسباب زيادته ونمائه، وهي طهرة له من البخل، ولماله من الْمَحْقِ والزوال(١)، وفيها حماية للنفس من الشح الذي غلب النفوس، واستجلاب للبركة والخُلْفِ، وانشراح للصدر؛ فإن المنفق إذا أعطى معسراً، أو رسم البشر على وجه ذي الحاجة ينشرح صدره، ويرتاح باله، بعكس البخيل الذي لا يزيده تكديس المال إلا همًّا، ولا بُعْدُه إلا ألمًا(٢).

ويُلاحَظ في آياتِ الإنفاقِ أنها تربط بين الإنفاق وبين تربية النفس وتوجيهها كثيراً؛ مما يوحي إلى أن لها الدور الأسمى في تربيتها، قال تعالى: كما قال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

الأثر على المجتمع:

ندب الله تعالى أفراد المجتمع بشكل عام للإنفاق في سبيل الله تعالى، وجعله صفة لفئة مميزة منهم، فقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]. فالإنفاق من محاسن الإسلام الذي جاء بالمساواة، والتراحم، والتعاطف، والتعاون، وقَطْعِ دابر كل شرٍّ يُهدِّد الفضيلة والأمن والرخاء، وغير ذلك من مقومات البقاء لصلاح الدنيا والآخرة.

(١) انظر: تيسير العلام شرح عمدة الأحكام: عبد الله البسام: (ص: ٢٩٥).

(٢) انظر: الزكاة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة: سعيد بن وهف القحطاني: (ص:٢٩، ٣٠).

فقد جعل الله في الإنفاق مساواة بين خلقه بما خوَّلهم من مال، وإعانة من الأغنياء لإخوانهم الفقراء، الذين لا يقدرون على تحصيل ما يُقيم أَوَدَهُم من مال، ولا قوة لهم على كسب وعمل. وتحقيقًا للسلام، الذي لا يستقر بوجود طائفة جائعة ترى المال المحرومة منه دُولَة بين الأغنياء دون الفقراء، وتأليفًا للقلوب، وجمعًا للكلمة؛ حينما يجود الأغنياء على الفقراء بنصيب من أموالهم التي آتاهم الله إياها.

فإنه بالإنفاق في سبيل الله يُعْلَمُ أن الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية، الذي يكفل للفقير العاجز العيش والقوت، وللغني حريَّة التملك مقابل سعيه وكدحه. وهذا هو المذهب المستقيم الذي به عمارة الكون، وصلاح الدين والدنيا(١).

وإن للإنفاق في سبيل الله بُعدًا اجتماعيًا واقتصاديًا بالغًا؛ فإن مجتمعًا يواسي فيه الغنيُّ الفقيرَ، ويعطف الواجِدُ فيه على المعدم، لهو جدير بأن تسود فيه الألفة، وتختفي منه مظاهر الفساد الأخلاقي والاقتصادي، وتغيب من جنباته الجريمة، فلن يُضطر الفقير فيه للسرقة والنهب، ولن يسلك درب قطع الطريق والسلب، ولن يختل أمْنٌ، أو يموت جائِعٌ، أو يُعاني ذا مسغبة(٢)، فلو أن الأغنياء أخرجوا زكاة أموالهم لما وُجِدَ فقيرٌ يتسوَّل الناس ما يقُوت به نفسه وأبناءه(٣).

هكذا يُبني المجتمع المسلم، وبهذا يؤسس بنيانه، فلا يُوصف مجتمع بالتكافل إذا باتت بطنٌ متخمة ممتلئة، وبجوارها أخرى خاوية ضاوية، وقد شارك المصطفى ﷺ في وضع لبنة بناء هذا المجتمع المسلم بقوله: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))(٤)، ولا يتحقق هذا التَّوادُّ والتَّراحم في مجتمع إلا بمواساة محتاجه، وإعانة ضعيفه، وإطعام بائسه الفقير.

---

(١) انظر: تيسير العلام شرح عمدة الأحكام: عبد الله البسام: (ص: ٢٩٥).

(٢) المسغبة: هي المجاعة، قال ابن قتيبة: «﴿ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ [البلد: ١٤] أي: ذي مجاعة: والسَّغَب: الجوع؛ والساغِب: الجائع. يقال: سَغِب الرَّجل يَسْغَب سَغَبًا وسُغوبًا؛ إذا جاع». غريب القرآن: (ص: ٥٢٨).

(٣) انظر: الزكاة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة: سعيد بن وهف القحطاني: (ص:٣٢- ٣٥).

(٤) صحيح مسلم، برقم: (٢٥٨٦)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم: (٤/ ١٩٩٩)، من حديث: النعمان بن بشير رضي الله عنه.

المطلب الرابع: التحذير من أكل الربا.

بعد ذكر الإنفاق في سبيل الله والصدقة، تَنَاسَبَ ذكر الربا والتحذير من أكله؛ لأن في مقابلة الصدقة التي تنمي المال وتزيده، يناسب الحديث عن الربا الذي يُذهِبُه ويمحقه، فإن «الصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل، والربا شح وقذارة ودنس، وأَثَرة وفردية»(١).

وقد ابتدأ تشريع تحريم الربا من سورة آل عمران، وذلك بقول الحق جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٠]، فابتدأ تشريع تحريم الربا بهذه الآية المباركة(٢)، وعلَّق الفلاح بالتزام هذا الأمر الرباني المبين، ثم تعاقبت الآيات في تحريم الربا، وتوالت لأجله النُّذُر.

وإنما كان الربا ممقوتًا لأن صاحبه «لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل»(٣)، همُّهُ زيادة مالِه، وتراكُم أرصدته ولو على حساب جوع الآخرين، وإثقال كاهل المستدينين، واستعباد المعسرين الذين لم يفوا بديونهم المتراكمة، فلا يرق قلبه لبكاء مُعدم، ولا تذرف عينه لعجز مَدِيْن

فالمال هو شريان الحياة، وركيزة بناء المجتمعات، وطريقة اكتسابه وإنفاقه من أجل اهتمامات الدين الإسلامي، فحين كان حب الناس للمال حبًا جمًّا، وفي الوقت الذي وصفهم بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤]، أرشدهم سبحانه لطرق الكسب الطيب، وحذرهم من طرق الكسب المحرم، فقال عز شأنه: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥]، فالبيع والاشتغال بالمضاربة أمر مشروع، والربا والركون إليه محرم.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٣١٨).

(٢) انظر: تفسير المنار: محمد رشيد رضا: (٣/ ٩٥)، ولمعرفة مراحل تحريم الله للربا انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام: محمد علي الصابوني: (١/٣٩٠، ٣٩١).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: (١/ ٥٥٣).

ولقد أضحى الرِّبا من أشد بلايا العصر، فصار أمرًا اعتياديًا، وعُرفًا سائدًا، وتَسَمَّى بغير اسمه، فتداوله الناس وأرباب الأموال وأصحاب البنوك باسم الفوائد المالية، واستهانوا بخطره، وعظيم جرمه، وتناسوا أنهم بذلك قد أذِنوا بإقامة حرب مع الله ورسوله، ومُحَارِبُ الله ورسوله مغلوب لا محالة.

أثر أكل الربا على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

الإسلام دين الاجتهاد والعمل، والتعاطف والتراحم، والصفاء، وسلامة النفوس من الأحقاد، وهو دين الحق والعدل؛ فقد حرّم على الفرد أن يأخذ مالًا بغير كدٍّ، وشنَّع عليه استغلال حاجة الضعيف، وأغلق أمامه كل طريق يؤدي إلى العداوة والبغضاء والمنازعات(١).

وإن من آثار الربا على الفرد: أن فيه تنكُّب لنداء الله، وارتكاب لنهيه، وبُعْدٌ عن تقوى الله التي يجب أن تتصف بها نفسه، ورفض منه أن يصل إلى الفلاح، أو يكون من المفلحين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٠].

كما أن للربا آثاره الخُلُقية والنفسية والاقتصادية على صاحبه، فإنه لن يكتسب منه سوى الشح والبخل والأنانية وحب الذات وموت الضمير؛ فالمرابي لا يعرف إلا فلسفة الأخذ دون العطاء، ولا يعيش إلا على استغلال حاجة الآخرين وتنغيصهم في لقمة عيشهم، وفي المقابل فإن الله ليس بغافل عنه، فقد جعل حياته متخبطة، ودنياه منغصة، فهو في همٍّ اكتساب المال وزيادته يرتَعْ، وفي اكتناز المال والمراباة يهيم(٢)، وهذا «مؤيَّد بالمشاهدة؛ فإنا لم نر و لم نسمع قط بآكل ربا ينطق بالحكمة، ولا يُشْهِرُ بفضيلة، بل هم أدنى الناس وأدنسهم»(٣)، كما قال البقاعي رحمه الله.

فالمرابي يأخذ المال من غير عوض ولا حق، وهو أمر تكرهه النفوس؛ فالمال شقيق الروح، فكما أن إزهاق الروح محرم وجريمة، فكذلك إزهاق المال وأخذه بغير حق. فهو وإن تنامت أمواله، وتكدست أرصدته؛ فإن مآلها إلى زوال، وعاقبتها الفقر والحاجة، ولو استمرت ارصدته في يده حتى

(١) انظر: التفسير المنير: وهبة الزحيلي: (٣/ ٩٨).

(٢) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام: محمد علي الصابوني: (١/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٣) محاسن التأويل: محمد القاسمي: (٢/ ٢٢٠).

الموت فليست عقوبة الآخرة بأهون من العاجلة، فسيرحل بلا مال، وستبقى عليه العقوبة والتبعات. ولا يأمن صاحبها على نفسه من انتقام من أخذ أموالهم بغير وجه، فيخشى منهم الانتقام وإن طال الزمان[1].

كما أن المرابي يعيش في غفلة عن أن الربا ماحق للمال، مذهب لبركته، جالب للحرمان وعدم التوفيق من رب العالمين. ويتناسى أو يتغافل أنه قد سدَّ الباب الذي بينه وبين ربه، فلا تُجاب له دعوة، ولا تُقال له عثرة؛ لأن النبي الكريم ﷺ ((ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟))[2].

الأثر على المجتمع:

إن المتمعن في حال الأمة المسلمة اليوم ليرى أن ما آل إليه حالها من ذلة وهوان على الناس ما هو إلا إحدى نتائج البعد عن منهج الله سبحانه وتعالى، وابتعادها عن منهج الفلاح والنجاة، وهو ما أرشدهم إليه مولاهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٠]، أما حين تعاملت معظم البلدان المسلمة بالربا، ورآه كثير من أبنائها مباحاً، حاربهم الله تعالى، وسلط عليهم الأمم تنهش في جسمها العليل من كل جانب[3].

ويعتبر الربا من أهم العوامل العالمية التي تؤدي إلى الارتفاع في الأسعار، وتضخم ديون الدول، والاستيلاء على موارد بعضها وثرواتها بحجة مديونياتها، فتنتشر في المجتمع المرابي البطالة، ويزداد عدد المعوزين، فيبقى المجتمع متثاقل الخطى نحو التنمية والاستثمار، وتنتشر الطبقية بين أبنائه، وتصبح الأموال دولة بين الأغنياء منهم، ويختل التوازن الاقتصادي، مما يشعل الضغائن والأحقاد بين أفراده، ويقطع أواصر التواصل والتعاون، وتموج الأزمات الاقتصادية الناتجة عن الديون المبالغ فيها بسبب الربا.

---

(١) انظر: تفسير آيات الأحكام: محمد علي السايس: (ص: ١٧٦- ١٧٨).

(٢) صحيح مسلم، برقم: (١٠١٥)، كتاب: الكسوف، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب: (٢/ ٧٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: يسألونك عن المعاملات المالية المعاصرة: حسام الدين بن عفانة: (ص: ١٣).

فالربا باعث للبطالة والركون إلى الدعة، وترك العمل وتحمل المشاق، والمشي في مناكب الأرض، وهو قاطع للقرض الحسن الذي دعا إليه المولى جل وعلا، والذي به تُقضى حوائج المحتاجين، وتتسير به أمور المعسرين[1]. وهو مُولِّد للعداوة والبغضاء، مفكك لأواصر المجتمع، باعث للطبقية، داع لإماتة التراحم والتعاون والإحسان بين أبناء المجتمع، زارع مكان ذلك حقدًا وحسدًا وغلًّا، وصاحبه عدو للمجتمع وأبنائه؛ لأنه ينظر إليهم نظرة امتصاص لأموالهم وحقوقهم، واستغلال حاجتهم وظروفهم[2]. قال سيد قطب رحمه الله: «والبشرية الضالة التي تأكل الربا وتوكله تنصبُّ عليها البلايا الماحقة الساحقة؛ من جراء هذا النظام الربوي، في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها، وتتلقى - حقًّا – حربًا من اللّه، تُصبُّ عليها النقمة والعذاب أفرادًا وجماعات، وأممًا وشعوبًا، وهي لا تعتبر ولا تفيق!»[3].

ولقد كره الإسلام تكديس الثروة في أيدي فئة قليلة من الناس، يتحكمون في مصائر الآخرين، ويجعلون بأيديهم أقوات الناس وأرزاقهم، ويتلاعبون باقتصاديات الدولة والأمة، دون مبالاة ولا نظر[4].

(١) انظر: التفسير المنير: وهبة الزحيلي: (٣/ ٩٩)، وتفسير آيات الأحكام: محمد علي السايس: (ص: ١٧٦).

(٢) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام: محمد علي الصابوني: (١/٣٩٥، ٣٩٦).

(٣) في ظلال القرآن: (١/ ٣١٨).

(٤) انظر: التفسير المنير: وهبة الزحيلي: (٣/ ٩٨).

المطلب الخامس: التفكر في مخلوقات الله.

سُئلت عائشة ﵂ عن أعجب ما رأت من رسول الله ﷺ، فسكَتت ثم قالت: ((لما كان ليلَة من اللَّيالي قال: يَا عَائِشَةُ! ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي، قلت: والله إني لأحبُّ قُربكَ، وأحبُّ ما سَرَّكَ، قالت: فقام فتطَهَّر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزَل يبكِي حتى بَلَّ حِجْرَهُ، قالت: ثمَّ بَكَى فلم يزَل يَبكِي حتى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قالت: ثمَّ بكى فلم يَزَل يبكي حتى بَلَّ الأرض، فجاء بِلال[1] يُؤْذِنُهُ بالصَّلاة، فلما رَآهُ يبكِي، قال: يا رسول الله، لِمَ تَبْكي وقد غفرَ اللَّهُ لك ما تقدَّم وما تأخَّر؟ قال: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟! لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠] الآية كلَّها))[2].

وعن ابن عباس ﵄ قال: ((بِتُّ في بيتِ ميمونة[3] ليلةً، وَالنَّبِيُّ ﷺ عندها؛ لأنظُرَ كيف صلاةُ رسول الله ﷺ بالليل، فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثم رَقَدَ، فلمَّا كان ثلثُ الليل الآخرُ أو بعضُهُ، قعَدَ فنظَرَ إلى السماء فقرأَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ إلى قوله: ﴿ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، ثُمَّ صَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ...)) الحديث[4].

إن هذه الآيات الكريمات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) بلال بن رباح، مولى أبي بكر. هو من السابقين الأولين، شهد بدرًا والمشاهد كلها. مؤذِّن رسول الله سفرًا وحضرًا، وخازنه على بيت ماله. كان شديد الأدمة، نحيفًا، صبر على أذى قريش، وهانت عليه نفسه، حتى أخذوه وجعلوا في عنقه حبلًا ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به في رمال مكة حتى ملوه فتركوه، فاشتراه الصدِّيق وأعتقه. توفي بدمشق، ويقال: بحلب، سنة: (٢٠ هـ) وقيل غير ذلك. انظر: معرفة الصحابة: ابن منده: (ص:٢٦٧-٢٧٠)، ومعرفة الصحابة: أبو نعيم: (١/٣٧٣- ٣٧٧).

(٢) صحيح ابن حبان، برقم: (٦٢٠)، كتاب: الرقائق، باب: التوبة، ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات: (٢/ ٣٨٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (٦٨)، وقال: «إسناده جيد». (١/ ١٤٧).

(٣) ميمونة بنت الحارث الهلالية، زوج النبي ﷺ. وكان اسمها برَّة فسماها رسول الله ميمونة. تزوجها رسول الله في عمرة القضاء بمكة في ذي القعدة سنة: (٧هـ)، وبنى بها بسَرِف. وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ. وقد تزوجها بعد صفية ﵂. توفيت في الموضع الذي ابتنى بها فيه رسول الله ﷺ، وذلك سنة: (٥١هـ)، وقيل: غير ذلك. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/١٩٤-١٩١٨)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٧/ ٢٦٢).

(٤) صحيح البخاري، برقم: (٧٤٥٢)، كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في تخليق السموات والأرض: (٩ / ١٣٥).

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠، ١٩١] أصل في الدعوة للتفكر في خلق الله للسموات والأرض، وإن كان التفكر عامًا في كل ما خلق الله، وفي كل آياته ودلائله الشاهدة بعظمته، والناطقة بوحدانيته، إلا أن الحديث هنا مقتصر على التفكر في خلق السموات والأرض. والتفكر في خلق السموات والأرض يكون كالآتي:

١- التفكر في خلق السموات: ففي قول المولى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دعوة للعبد قائلة: «ارفع بصر فكرك إلى عجائب السموات، فتلمح الشمس في كل يوم في منزل، فإذا انخفضت بَرَدَ الهواء وجاء الشتاء، وإذا ارتفعت قوي الحر، وإذا كانت بين المنزلتين اعتدل الزمان»[(١)].

وإننا لنرى على أبواب المتاحف ومواطن الآثار تهافت الزائرين، وازدحام المتأملين، ونرى من يسافر الدول والقارات؛ لزيارة هذه المتاحف والمعارض، ورؤية الآثار القديمة، والحضارات العريقة، ويتعجبون من صنع الإنسان القديم وإبداعه، وينسون أن أمامهم كتابًا مفتوحًا، ومعرضًا متكاملًا، ومتحفًا يبهر العقول، وآيات تسر الناظرين، أبواب هذا المعرض مفتوحة، ومالكه يدعو الناس إلى الولوج فيه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٠]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [سورة ق:٦]، فلا يحتاج المتفكر لتذكرة سفر، ولا لجواز عبور، ولا لتأشيرة مرور، وإنما يحتاج لخلوة بالنفس، وإرسال للبصر والفكر، وإعمال للعقل؛ ليرى الكواكب السابحة في الفضاء، والنجوم المبعثرة على وجه السماء، قد أحكم الله سيرها، وأحسن توزيعها، ثم يُرْجع البصر لها كرات، ويرسله إليها مرات، فهل يرى غير العظمة والإحكام؟! وهل يشاهد سوى الدقة والانتظام؟!.

«ومشهد النجوم في السماء جميل، - ما في هذا شك -، جميل جمالًا يأخذ بالقلوب، وهو جمال متجدد، تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب، بل إنه ليختلف من ساعة لساعة، ومن مرصد لمرصد، ومن زاوية لزاوية، وكله جمال، وكله يأخذ بالألباب.

هذه النجمة الفريدة التي تُوصْوِصُ هناك وكأنها عين جميلة، تلتمع بالمحبة والنداء! وهاتان النجمتان المنفردتان هناك وقد خلصتا من الزحام تتناجيان! وهذه المجموعات المتضامّة المتناثرة هنا وهناك، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء، وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان!

---

(١) تعظيم الله جل جلاله: أحمد بن عثمان المزيد: (ص: ٦٧).

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة، والزاهي المزهو ليلة، والمنكسر الخفيض ليلة، والوليد المتفتح للحياة ليلة، والفاني الذي يدلف للفناء ليلة. وهذا الفضاء الوسيع الذي لا يمل البصر امتداده، ولا يبلغ البصر آماده.

إنه الجمال؛ الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملَّاه، ولكن لا يجد له وصفًا فيما يملك من الألفاظ والعبارات! والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون كله؛ لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه؛ لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة، في عالم طليق جميل، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية.

وإن أسعد لحظات القلب البشري لهي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في الكون؛ ذلك أنها هي اللحظات التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملَّاهُ»[1].

إن من يرسل بصره في الأفق سيرى سماء مرفوعة بلا عمد، وكواكب سيارة ليس لها عدد، وكونًا يتفجر عظمة وإجلالًا: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: ٨٨]، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة لقمان: ١١]، حينها يتساءل: هذا الكون الفسيح الممتدُّ مَنْ الذي سيّر أفلاكه؟! ومن الذي نظّم مَساره؟ ومن الذي أشرف على بنائه؟! من أمسك هذه السماء وزيَّنها؟ ومن رفع سمكها بغير عمد وثبَّتها؟ فيجد الجواب في قول الخالق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: ٤١].

٢- التفكر في خلق الأرض: ففيها آيات باهرات، ودلائل واضحات، فقد أودع فيها صانعها عجائب صنعه، وفرائد إبداعه، ففي ظهرها معالم عامرة، وفي بطنها لآلئ باهرة، دعا خالقُها عباده للسير في فجاجها، واكتشاف كنوزها، والتفكر في خلقها، فيتأملون كيف بسطها ودحاها؟ وأخرج منها ماءها ومرعاها؟ وثبَّت استقرارها بالجبال وأرساها؟ فهو القائل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٠]، والقائل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦].

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: (٦/٣٦٣٣، ٣٦٣٤).

«اخفض بصرك إلى الأرض، ترى فجاجها مذللة للتسخير، ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [سورة الملك:١٥]، وتفكروا في شربها بعد جدبها بكأس القطر.

وتَلمَّحْ خروج النبات يرْفُلُ في ألوان الحلل على اختلاف الصور والطُّعوم والأراييح. وانظر كيف نزل القطْرُ إلى عرق الشجر، ثم عاد ينجذب إلى فروعها، ويجري في تجاويفها بعـــروق لا تفتقـــر إلى كلفة. فلا حَظَّ للغافل في ذلك إلا سماعُ الرعد بأذنه، ورؤية النبات والمطر بعينيه، كلا! لو فتح بصر البصيرة لقرأ على كل قطرة خطًّا بالقلم الإلهي: أنها رزق فلان في وقت كذا!.

ثم انظر إلى المعادن لحَاجَات الفقير إلى المصالح، فمنها مُودَعٌ كالرصاص والحديد، ومنها مصنوع بسبب غيره كالأرض السَّبْخَة، يُجمع فيها ماءُ المطر فيصير ملحًا. وانظر إلى انقسام الحيوانات ما بين طائر وماشٍ، وإلهامها ما يصلحها. وانظر إلى بُعْدِ ما بين السماء والأرض، كيف ملأ ذلك الفراغ هواءٌ؛ لتستنشق منه الأرواح، وتسبح الطير في تياره إذا طارت»[1].

يرى الإنسان الأرض غبراء قاحلة، فيسُوق الله لها الماء، فتدبُّ فيها الحياة فتمسي مخضرَّة يانعة، ويرى أخرى قطوفها دانية، وثمارها هانئة، فيطوف عليها طائف من ربك فتصبح كالصريم، ويمسي زرعها وثمرها كالهشيم، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [سورة الذاريات: ٢٠].

٣- التفكر في اختلاف الليل والنهار: فإن للمتفكر أن يتساءل: أليس في اختلاف الليل والنهار عبرة؟ وفي تداولهما بانتظام عظة؟ فيجيبه الله تعالى بأن في اختلاف الليل والنهار آية وعظة، ولكن لا يدركها إلا من أعمل عقله، واستعمل لبَّه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٠]. حين يطول أحدهما فيقصُر الآخر، وينتهي أحدهما ليأتي الثاني آية للمعتبرين: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [سورة لقمان: ٢٩]، يَلِجُ الليل في ثوب النهار عند الإشراق، ويتوارى النهار في معطف الليل عند المغيب؛ ليجعل الله الليل لباسًا للناس وسكنًا، والنهار كدًّا لهم ومعاشًا، وليعلموا بتعاقبهما عدد السنين والحساب[2].

(١) تعظيم الله جل جلاله: أحمد بن عثمان المزيد: (ص: ٦٧).

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (١١/ ٥٨٩).

٤- التفكر في عظمة الله في خلقه: فلو أمضى المتفكر عمره - قائمًا وقاعدًا - ينظر في السماء وما بناها، والأرض وما طحاها، والليل والنهار، والبر والبحار، لما انتهى له طرْف، ولا توقف له قلم، ولن يملك عند نظره لملكوت الله، وتأمله في صنع مولاه إلا يعترف بعظمة الخالق جل شأنه ويقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩١]، فكيف يجوز للملِك الجليل أن يخلق خلقًا كهذا لعبًا؟ أو ينشئ كونًا كهذا عبثًا؟! وهو القائل جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الدخان: ٣٨، ٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧].

إن التفكر فيما خلَقَ الله من علامات المؤمنين، وصفات أولي الألباب الصادقين، أما من عطَّل قلبه وعقله، وأوْصَدَ سمعه وبصره، فلم يتفكر في الكون مع عظمته، و لم يتأمل في السموات والأرض رغم اتساعهما فإنه من شرار خلق الله كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

أثر التفكر في مخلوقات الله على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن من أهم عوامل زيادة الإيمان في القلب، وتقوية وترسيخ اليقين فيه، وتطوير العقل وملَكَاته: التفكر في خلق الله تعالى، حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٠]، وهو جالب لخشيته وتعظيمه، فمن عَرَفَ الله عَبْرَ آياته الكونية الزاخرة ازدادت منه خشيته: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [سورة فاطر: ٢٨]، وتقلصت سيئاته ونقصت هفواته: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ

فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥]، وقد قيل: «التفكر مفتاح الرحمة؛ ألا ترى أنه يتفكر فيتوب؟»(١).

ومن أعظم آثار التفكر في خلق الله على الفرد: أن في كل شيء خلقه الله آية تدل عليه، وترشد في الوصول إليه، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا تأملت ما دَعَا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أَوْقَعَكَ على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته، وصفات كماله، ونُعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته، وإحسانه وبره، ولطفه وعدله، ورضاه وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تَعَرَّفَ إلى عباده، وندَبَهُم إلى التفكر في آياته»(٢).

الأثر على المجتمع:

يفتح التفكر في ملكوت الله آفاقًا من المعرفة والعلم، فيعود بالفائدة على المجتمع بشكل عام؛ وإنما يجد هذا الأثر أصحاب العقول في المجتمع، الذين يتأملون خلق الله من حولهم، ويستغلون ما فيه من سنن كونية جارية، ويجرون عليها تجاربهم العلمية، واكتشافاتهم النظرية، فيهتدون بتلك الآيات، والتي لا يصل إليها إلا هم: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٠].

وما وصل العالم اليوم إلى التطور العلمي والتكنولوجي إلا بالتأمل في الكون الفسيح، وتجربة النظريات العلمية في سنن الله الكونية التي سخرها لعباده، فآتت التجارب أكلها، وأظهرت لهم فوائدها، فتنعم بها المجتمع بشكل عام، والمتفكرون من المجتمع بشكل خاص.

(١) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني: (٧/ ٣٠٦).

(٢) مفتاح دار السعادة: ابن القيم: (١/ ١٨٧).

المبحث الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالأخلاق.

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول:** الاستعانة بالله في بناء الأسرة وتربيتها.
- **المطلب الثاني:** بيان قيمة المرأة في التربية وبناء الأخلاق.
- **المطلب الثالث:** الإحسان إلى الناس بكظم الغيظ والعفو عنهم.
- **المطلب الرابع:** الحرص على التزام الجماعة وتحقيق الأخوة.
- **المطلب الخامس:** الرحمة واللين في التعامل والخطاب.

المبحث الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالأخلاق.

المطلب الأول: الاستعانة بالله في بناء الأسرة وتربيتها.

تعتبر الأسرة نواة المجتمع الأولى، وأحد أركانه وأعمدته، وهي مصدر التربية فيه، وعليها الاعتماد في صلاح المجتمع وفساده، وإن شاركتها جهات أخرى في التربية – كالمدرسة والمسجد والبيئة – إلا أن الريادة تظل لها، فالطفل إنما يأخذ تكوين شخصيته البدائية من والديه والمحيطين به في مرحلة النشأة الأولى؛ ولذلك جاءت أهمية الأسرة في القيام بواجب التربية ابتداء من الحمل، ومروراً بكل مراحل التكوين البشرية.

وفي السورة الكريمة – آل عمران – أجمل صور الاستعانة بالله في تربية الأسرة وتنشئتها، وذلك من خلال نموذجين:

النموذج الأول: استعانة امرأة عمران بالله في تربية نشئها، فحين أيقنت بالحمل بدأت أولى خطوات الدرب التربوي، متوجهة إلى الله مستعينة به قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ٣٥]، فربطت ما في بطنها بالله ابتداء، ثم تابعت خطواتها في درب الاستعانة بالله على القيام بدور المربية لما وهبها الله بأن قالت حين وضعت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [سورة آل عمران: ٣٦]، وهكذا تتجلى الاستعانة بالله بأبهى صورها، فهي تلتجئ إلى جناب الله وتستعينه في تربية ابنتها الوليدة، وتعيذها وذريتها به من الشيطان الرجيم.

ولما علم الله صدق تضرعها، ورأى العزيمة في توجهها إليه، تقبَّل نذرها، واستجاب لتضرعها واستعانتها به: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [سورة آل عمران: ٣٧]، فآتت تلك الاستعانة أُكلها، وكانت النتيجة أن اصطفى الله مريم وطهرها واصطفاها على نساء العالمين: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٢]، وأعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم، كما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا

مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [سورة آل عمران: ٣٦]))[1].

النموذج الثاني: استعانة زكريا بالله في طلب الولد وبناء الأسرة، فقد كان زكريا عليه السلام شاهِدًا على مراحل تربية مريم، وكفيلًا لها، فلما رأى نجاح تلك الطريقة في التربية، وكان يتوقُ لتكوين أسرة تملأ حياته فرحًا وسرورًا بعد أن حُرِمَ منها سنوات طوال، سلك الدرب الذي سلكته امرأة عمران في تربية مريم وتنشئتها، فيمم وجهه نحو المحراب متضرعًا إلى الله قائلًا: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [سورة آل عمران: ٣٨]، فهو لم يسأل الذرية فحسب، بل تلطف لله بأن تكون طيبة مباركة، وسأل ربه وليًّا مرضيًّا يرضاه هو سبحانه، ويرضاه عباده دِينًا وخُلُقًا وخَلْقًا[2]، وأن يجعله وارثًا للنبوة والعلم، اللذان تَمَيَّز بهما آل يعقوب عليهم السلام، فقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [سورة مريم: ٦]. فليس الشأن أن يُرزق المرء الذرية في الدنيا، فكم من ولد كان وبالًا على والديه، وكم من ذرية عادت بالويل على أهلها، بل الشأن كله أن تكون تلك الذرية وارثة للفضائل، متمثلة للقيم، مستجيبة للأوامر.

ولما كانت التربية الأسرية مسؤولية شرعية يُحاسَب عليها المفرِّط، ويجني ثمرتها المجتهد، ويتمتع بها من بناها على تقوى من الله ورضوان، وجبت الاستعانة بالله على القيام بها على وجهها، فكل جهد تربوي بشري لم يُقرن بعون الله وتوفيقه مصيره للفساد والكساد.

إذا لم يكُنْ عُونٌ من الله لِلْفَتَى فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُه[3]

---

(١) صحيح البخاري، برقم: (٣٤٣١) واللفظ له، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦]: (٤/١٦٤)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٣٦٦)، كتاب: الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام: (٤ / ١٨٣٨).

(٢) انظر: جامع البيان: الطبري: (١٨/ ١٤٧).

(٣) البيت نسبه التنوخي والأصفهاني إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: الفرج بعد الشدة: (١/ ١٧٧)، ومحاضرات الأدباء: (١/ ٥٣٢).

أثر الاستعانة بالله في بناء الأسرة وتربيتها على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

تعاني الإنسانية اليوم من غياب المسؤولية التربوية لدى كثير ممن ولاهم الله رعاية الأسرة والقيام بتربيتها، فترى كثيرًا من أفرادها يتنصَّلون عن هذا الواجب بقصد أو بغير قصد، مع أن أضرار ضياع الفرد والتقصير في تربيته يعود بالضرر على الأسرة بالدرجة الأولى، ثم على المجتمع بالدرجة الثانية، فصلاح تنشئة الفرد وتربيته التربية الحسنة هي أولى لَبِنَات بناء الأسرة والفرد هو أحد المنتسبين لهذه الخلية، كما فهمت ذلك امرأة عمران، فاستعانت بربها، وطلبت منه القبول والتوفيق: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ٣٥].

وإن الاستعانة بالله في عملية التربية من أهم عوامل نجاحها، فلا اعتماد على الجهد الشخصي دون معونة الله وتوفيقه، بل ربما كان الجهد المبذول ليس في الطريق التربوي السوي، وقد يعود بنتائج سلبية في حين كان المنتظر أن يكون إيجابيًّا، وقد قيل:

إذا كان غيرُ الله للمرء عدةً أتته الرَّزايا من وجوه الفوائد[1]

فمن استعان بالله في مسؤوليته التربوية أعانه الله، كما أعان امرأة عمران حين استعانت به: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [سورة آل عمران: ٣٧]. فالعبد محتاج إلى معونة الله في مسيرته التربوية، ومن استغنى بنفسه، واعتمد على قوَّته فإنه إلى الخذلان رَكَنَ، وعلى ضعف اعتمد[2].

الأثر على المجتمع:

ما من مصيبة تحلُّ في مجتمع، ولا رزية تنزل بقوم إلا كانت نتيجة لسوء تربية أبنائه، وخلل في بناء شخصية منتسبيه، وهذا الخلل غالبًا ما يأتي من عدم الاستعانة بالله في تيسير الأمور عند كثير من المربين، وإلا فكيف يعتدي الإنسان على أخيه الإنسان إذا كان تربى على معرفة حقه من حق

(١) ديوان أبي فراس الحمداني: أبو فراس الحمداني: (ص:١٠١).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي: (١/ ٤٨١، ٤٨٢).

الآخرين؟ ولقد جاء الإسلام بحزمة من التوجيهات التربوية لمنع هذا المصائب والرزايا، وحماية للمجتمع من الفتن والبلايا.

ولما كان الدين الإسلامي يحمل ميزة بناء الشخصية المسلمة المتميزة، والمجتمع الحضاري المتوافق مع الفطرة، المتعايش مع الواقع، فقد صاغ المبادئ التي ترقى بكل مجتمع إلى أن يكون نموذجًا يحقق الأمن والعدالة وكل مقومات الحياة البشرية؛ وذلك عبر سلسلة من الخطوات؛ والتي من أهمها: طلب المعونة من الله عز وجل، والاتكال على تدبيره واختياره، وهذا شرط أساسي في منهج التربية الناجحة[1]، ثم يأتي بعد ذلك بذل الأسباب التي يُتوصل بها إلى التربية التي تؤتي ثمرتها ابتداءً بإصلاح الفرد، ومروراً بالتربية المثالية للأسرة، ووصولًا إلى صياغة المجتمع المتكامل المترابط، وهذه الأسباب كلها من خصائص الدين الإسلامي الحنيف.

(١) انظر: مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها: على أحمد مدكور: (ص: ٦٤).

المطلب الثاني: بيان قيمة المرأة في التربية وبناء الأخلاق.

نصف المجتمع هو المرأة، وهي التي تلد النصف الآخر، وهي مربية الأجيال، وصانعة الأبطال، وهي شقيقة الرجل، وبذرة الإنتاج، فإن كانت البذرة صالحة أنبتت الصلاح، وإن كانت فاسدة فلا يُنتظر منها ثمرة ولا نِتَاج.

وفي السورة الكريمة – آل عمران – يبرز دور المرأة – كأمٍّ – في أحلى صوره، فهذه امرأة عمران حين أحست بالحمل في بطنها بعد رحيل رجُلها إلى ربه، وبلوغها السن الذي تحتاج فيه لخدمة الولد بعد أن كانت عاقراً[1]، ومع كل ذلك فقد آثرت أن تهبه لله، مستغنية عن خدمته لها، وهذه أولى خطوات التربية الإيمانية، وبداية القيام بالمسؤولية التربوية؛ حيث ربطت الجنين بطاعة الله، ونذرته لخدمة قدس الله، وتلك هي القدم الأولى في هذا الدرب المتعدد الخطوات، الممتلئ بالمنعطفات والتعرجات، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [سورة آل عمران: ٣٦]، كانت تطمح أن يكون ذكراً؛ ليكون أقوى في تحقيق نذرها[2]، ولكن الله أرادها أنثى؛ ليكون لها دور أيضًا في تربية رجل من أعظم رجال التأريخ، بل نبي من أنبياء الله ورسله، فقد أنجبت فيما بعدُ عيسى عليه السلام، فأحسنت تربيته، وأعانها الله على إعداده ليكون نبيًّا، فتحملت لأجل تربيته الشدائد، وعانت في طريق بلوغه المراد الآلام والمتاعب؛ لأن صناعة الأنبياء لا يكون إلا على يد العظماء.

فالأم هي المدرسة الأولى، والحضن التربوي الأهم، منها يتلقى الأجيال أبجديات الحياة، وعلى يديها تتشكل طينتهم السلوكية، وعلى عاتقها تقع مسؤولية بناء المجتمع؛ لأن اتصالها بالأولاد دائمًا أكثر من الرجل، وانجذابهم إليها بسبب عاطفتها أكثر كذلك، فلذلك حازت هذا الشرف، وتحملت تلك المسؤولية.

الأمُّ مدرسَـــــةٌ إذَا أَعْـــــدَدْتَهَا أَعْدَدْتَ شَـعْبًا طَيِّـبَ الأَعْـرَاقِ[3]

(١) انظر: جامع البيان: الطبري: (٦/ ٣٣٠).

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي: (٣/ ١١٦)، وتيسير الكريم الرحمن: السعدي: (ص: ١٢٩).

(٣) هذا البيت للشاعر: حافظ إبراهيم. انظر: ديوان حافظ إبراهيم: (ص: ٢٨٢).

وقد حفظ الإسلام الحنيف للمرأة حقوقًا لم تعهدها في غيره من التشريعات والقوانين، فوضع عنها إِصْرَ الجاهلية وأغلالها، وحفظ لها مكانتها وصان كرامتها، اعتنى بها بنتًا، وأكرمها زوجة، ورعاها أمًّا، فلم يكلِّفها «أن تعمل لتعيش، فتجُورَ بذلك على أمومتها وأنوثتها، وواجبها في رعاية أثمن الأرصدة الإنسانية، وهي الطفولة الناشئة الممثِّلة لجيل المستقبل، في مقابل لقيمات أو دريهمات تنالها من العمل، كما تُضطر إلى ذلك المرأة في المجتمع النكد المنحرف الذي نعيش فيه اليوم!»[1].

جاء الإسلام فأوفى لها الكيل بعد التطفيف الذي عانت منه، وأعطاها حقها بعد الحظر الذي عاشت فيه، فلا طعام خالص لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، ولا منع للزوجة أن ترجع إلى زوجها، ولا إكراه على البغاء لمن أردن تحصّنًا، ولا وأد في قيد الحياة مخافة العار وخشية الافتقار[2]، بل هي تربية يصل بها صاحبها لمرافقة المصطفى ﷺ في الجنة، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: ((مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ))[3]، ومسؤولية يحصل بها صاحبها أيضًا على حجاب وستر من النار، فقد قال النبي ﷺ - كما في حديث عائشة رضي الله عنها -: ((مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ))[4].

وأشركها الإسلام مع الرجل في بناء المجتمع، وجعلها صنواً له في تولي مهام تربية الأجيال، وهي التي خُلقت من ضلعه ولا غنى لها عنه[5]، فقد خرجت من ضلعه في الجنة ليأنس بوجودها، فهما قطبا الاستخلاف في الأرض، وبهما قامت الحياة عليها.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) انظر: المصدر السابق: (١/ ٥٠٩).

(٣) صحيح مسلم، برقم: (٢٦٣١)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الإحسان إلى البنات: (٤ / ٢٠٢٧).

(٤) صحيح البخاري، برقم: (٥٩٩٥) واللفظ له، كتاب: الأدب، باب: رحمة الولد: (٨ / ٧)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٦٢٩)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الإحسان إلى البنات: (٤ / ٢٠٢٧).

(٥) إشارة إلى الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إِنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ...» الحديث. صحيح البخاري، برقم: (٣٣٣١)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم: (٤/ ١٣٣)، وصحيح مسلم، برقم: (١٤٦٨)، كتاب: الحج، باب: الوصية بالنساء: (٢/ ١٠٩١).

أثر دور المرأة في التربية والبناء على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

يتجلى دور المرأة التربوي في عنايتها ببناء شخصية الفرد، فالطفل في مراحله الأولى يحتاج للأم أكثر منه للأب، فتَغْرسُ الأخلاق الحميدة في أرض خصبة قابلة للغرس، وترسم الأبجديات المهمة في جدران صافية لا تستطيع محوها الأيام. وهي أيضًا شريكة الرجل في إنجاز مهماته، والقيام بواجباته؛ تهيئ له الجو المناسب في البيت، وتحفظه في غيابه في نفسها وأولاده، وتلون الحياة بألوان الطّيف أمام عينيه.

وقد اصطفى الله تعالى مريم على العالمين، وأولاها مهمة تربية نبي من أنبيائه فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران:٤٢].

الأثر على المجتمع:

تُعدُّ المرأة جزءًا مهمًّا من كيان المجتمع، بل هي مكوِّنه الأساسي، فهي الأم القائمة بالتربية والبناء، وهي الزوجة المنشغلة بالإدارة المنزلية والاقتصاد، وهي الأخت القائمة بأعمال البيت؛ وهي المتواجدة حيث يريدها الإسلام في المجتمع؛ وهذا يجعل ما تقوم به أمرًا لا يُستهان به، ولا مجال لهضم حقها في بناء المجتمع ورقيِّه أبدًا، ولا مناص من الاعتراف بدورها في صناعة المجتمعات بأي حال من الأحوال.

ويكمن دورها البارز في تنشئة لبنة المجتمع الأولى؛ فالأطفال يتلقون تعاليمهم وقيمهم الأولى منها قبل أن ينخرطوا في المجتمع، فلا تكاد الأم تخرج أولادها إلى المجتمع إلا وقد أعطتهم الجرعات الوافية من القيم والتعاليم التي يعيشون بها فيه، ويكونون فاعلين في بنائه وإصلاحه.

ولا يمكن لأي مجتمع أن يحيا ويزدهر دون أن يُشرك المرأة في دور فعال في كافة المجالات الأساسية والهامة فيه، فهي مع الرجل يشكلان ركيزة المجتمع مع اختلاف دور كل منهما، لها مهامها في بناء مجتمعها كما للرجل مهامه، ولها أدوار رئيسة وفعالة في الحياة المجتمعية. فالأم في الماضي والحاضر هي صانعة نهضة الأمة الحقيقية؛ من خلال بناء جيل من الرجال استطاع تحمل الأمانة، والقيام بمسؤولية رسالته في الحياة، والسعي لتمكين هذه الرسالة في الأرض، فاستطاع بتلك التربية بناء حضارة من أكبر الحضارات في تاريخ البشرية.

المطلب الثالث: الإحسان إلى الناس بكظم الغيظ والعفو عنهم.

يمر المرء بحالات متنوعة من الانفعالات والتفاعلات الحياتية التي تتنوع فصولها، وتتعدد أطوارها، تتجاذبه المتضادات من حين لآخر، ويعيش الحياة بما فيها من الحلو والمر، فيوم يُسَاءُ ويوم يُسَرُّ، ولحظة يعيش الفرح، وأخرى يكويه فيها التَّرح، يغضب ويتأثر، ويفرح ويأنس.

والذي يخصنا هنا هو ما يلقاه المرء في حياته مما ينغص حلوها، ويكدر صفوها، فيقع عليه الظلم، ويصيبه الضيم، فينشب في قلبه غيظ على ظالمه، وهذه جبلَّة في ابن آدم، فجاءت التوجيهات التربوية الربانية للمسلم في التعامل مع هذا بأمرين: الأول:

الأمر الأول: كظم الغيظ: فالإنسان مأمور أن يكظم غيظه ولا يبديه بقول ولا فعل، وهو إحدى صفات المتقين: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [سورة آل عمران:١٣٣، ١٣٤]، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: لا يَعْمَلون غضبهم في الناس بل يَكُفُّون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.»[1]. وكما أن الجود بالمال إحسان، فإن كظم الغيظ إحسان أيضًا.

وكظم الغيظ يوحي بأنه ثقيل على نفوسهم، فإنهم يجدون له ألمًا؛ ولذلك يكظمونه مع مغالبة للنفس، ويأتي في المرحلة الأولى، «وهي وحدها لا تكفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين، وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن؛ لذلك يستمر النَّص ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسماحة والانطلاق»[2].

الأمر الثاني: العفو عن الناس: وقد جاء العفو مقرونًا بالتقوى كما في قول المولى عز وجل: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٠٦).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٤٧٥).

يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [سورة آل عمران:١٣٣، ١٣٤]، وهو أقرب إليه: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧]، وهو سبب لمغفرة الله واكتساب عفوه: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة النور: ٢٢]، **قال ابن كثير** رحمه الله: «ثم قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مع كفِّ الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم مَوْجِدَة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فهذا من مقامات الإحسان»(١).

وقد أمر الله نبيه ﷺ بالعفو في أكثر من موطن فقال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة المائدة: ١٣]، ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

وقد جاء الحث على كظم الغيظ والعفو عن الناس في هذه السورة بأسلوب الترغيب، فجعلهما من صفات المتقين الذين أُعدَّت لهم الجنة، ووصفهم بالمحسنين الذين يحبهم، وكفى به شرفًا ومنالًا.

التربية الإلهية على العفو والصفح: فإن من عجيب ما في هذه السورة من الدروس التربوية: أن الله سبحانه يعلّمنا أن من طلب شيئًا فمن اللازم أن يتحلى به أولًا، فمن أراد العفو من الله فليعف هو عن الخلق، وهو ما حكاه الله بقوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤]، ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة النور: ٢٢]، فتراه يعقب بعد الحث على هذا الخلق بأنه سبحانه غفور رحيم، وأنه يحب المحسنين، وفي هذه السورة المباركة ثنى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥](٢). فحين طلب الله سبحانه منهم العفو والسماح أطْلعهم على جانب من جوانب سماحته وعفوه عن عباده الذين يسيؤون بمخالفة أوامره. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «من يَعْفُ يَعْفُ الله عنه، ومن يَكْظِم الغيظ يأجره الله، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يصبر على الرزية يَعْقُبْه الله»(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ١٠٦).

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ابن عطية: (٤/ ١٧٣)، ومدارك التنزيل: النسفي: (٢/ ٤٩٦).

(٣) الفوائد: (ص: ١٤٦).

أثر كظم الغيظ والعفو على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

في كظم الغيظ والعفو تربية للفرد، وبناء لشخصه؛ حيث تنضبط بذلك نفسه، ويتحكم بانفعالاته، فلا يلتفت لانتقام وهو يجد لذة العفو حاضرة، ولا يسعى لما يُنبت الحقد والكراهية في قلبه بعد أن استجاب لنداء مقلب القلوب؛ وذلك سبب اجتماع القلوب على حب من هذا حاله، فإن القلوب تَنْفَضُّ عن الفَظِّ الغليظ، وتألَفُ اللين الرقيق، فيكون بذلك قد استجاب لنداء الله، وانضم لصفوف المتقين، حيث قال الله جل وعلا: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران:١٣٣، ١٣٤]، وينال بذلك محبة الله له، واتصافه بالإحسان الذي يحب الله أهله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. ولا يزيده الله بذلك إلا عزًّا وكرامة عند الخلق وخالقهم، فالإنسان المتمتع بالتسامح وكظم الغيظ يتبوأ مكانة في قلوب الخلق، ويحصل له الأجر والمثوبة من الخالق سبحانه وتعالى.

الأثر على المجتمع:

يعيش المجتمع الذي ينعم أبناؤه بالتسامح فيما بينهم في جوّ من التآلف والترابط ليس له مثيل؛ فإنه مجتمع يوصف أبناؤه بالمتقين، ويرتقون إلى مرتبة المحسنين، وإذا كانوا كذلك فإن محبة الله تشملهم، وعنايته تحيط بهم: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [سورة آل عمران:١٣٣، ١٣٤]، فإن أغلب ما يُقطِّع روابط المجتمع هو إساءة بعضهم لبعض، وجناية بعض أفراده على بعض، وإذا غاب مبدأ كظم الغيظ والصفح عن الزلات في مجتمع ما نشبت فيه الخلافات، وقامت الحروب، ودبّ إلى أهله الحقد والحسد، فترى أقوامًا لا يرقبون فيمن خالفهم إلًّا ولا ذمة، يَكْوُون الناس بشواظ الانتقام، ويقلقون سكينة المجتمع، ويسعون لتشويهه، وحينها يسود فيه الفساد.

وإذا فشا التسامح وكظم الغيط والعفو في مجتمع فشت فيه المحبة والتلاحم، وتداعت القلوب للترابط والتآلف، ونبذ الضغائن والأحقاد، ومحاربة المشاكل والنزاعات، فيبقى المجتمع بهذه القيم رائدًا، وأبناؤه في ظله متآلفون، لا تؤثر فيهم المحن، ولا تستأصلهم الفتن.

المطلب الرابع: الحرص على التزام الجماعة وتحقيق الأخوة.

يريد الله من عباده الاجتماع والائتلاف، ويكره منهم التفرق والاختلاف، ويأمرهم بالاعتصام بالجماعة وعدم التفرق؛ ويعتبر تأليف القلوب من النعم الجليلة التي تستحق الشكر والتأمل، وفي هذا المقام يطيب الحديث عن وقفتين:

الوقفة الأولى: الأمر بلزوم الجماعة وعدم التفرق: فإن المولى قد أمر عباده بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق، وهو المقصود بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]، قال ابن عباس ﷺ: "الْجَمَاعَةَ، الْجَمَاعَةَ، إِنَّمَا هَلَكَتِ الأُمَمُ الْخَالِيَةُ بِتَفَرُّقِهَا، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]؟"(١)، وهو أيضًا رأي ابن مسعود(٢) ﷺ، وقال الإمام ابن كثير ﷺ: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أمرهم بالجماعة، ونهاهم عن التفرقة»(٣).

وقد رهّب المولى عباده وحذَّرهم من التفرق والاختلاف فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥]، وقال عز شأنه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الروم: ٣١، ٣٢]، وبرَّأ حبيبه ﷺ من أهل التفرق فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩]، فالتفرق مذموم كليًّا، والاختلاف منهي عنه شرعًا.

وفي السنة ما يَذُمُّ التفرق والخروج عن الجماعة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))(٤)،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم: (٣٩٢٠)، تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَاتَفَرَّقُواْ﴾: (٣ / ٧٢٤).

(٢) انظر: جامع البيان: الطبري: (٧ / ٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٧٧).

(٤) صحيح مسلم، برقم: (١٧١٥)، كتاب: الحدود، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة: (٣ / ١٣٤٠).

قال الإمام النووي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قوله ﷺ: (وَلَا تَفَرَّقُوا) فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتألف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام»[2].

الوقفة الثانية: الدعوة إلى تحقيق مبدأ الأخوة: فإن أعظم ما يحقق الائتلاف والاعتصام بحبل الله: الأخوة في الله، وإنَّ «عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين، وكما يقتضي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق النكاح فكذا عقد الأخوة، فلأخيك عليك حق في المال والنفس، وفي اللسان والقلب؛ بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء، وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف»[3].

فالأخوة في الله ركن من أركان الاعتصام والتآلف، ولا يمكن أن يجمع هذه القلوب «إلا أخوة في اللّه، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء اللّه الكبير المتعال»[4].

وهي أخوة مستلزمة للموافقة فيما يوافق الشريعة الإسلامية وعدم الاختلاف، وقد قيل: «موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم»[5]؛ إذ مخالفة الإخوان سبب لمفارقة الجماعة، فانفراد كل فرد برأيه دليل التفكك والافتراق.

أما إنه «لو صحت لنا هذه الأخوة الإيمانية المرجوة، لو سعينا في زرع بساتينها في قلوبنا لأثمرت فينا حياة أخرى غير تلك التي نحياها، فإنَّ القلوب تحيا وتترابط وتتآلف فيورثها الله من النعيم ما لا يستشعره إلا من ذاقه»[6]؛ ولذلك كانت نعمة امتن الله بها على عباده، استوجب بها شكره، واستحقت دومًا تذكُّرها: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

(١) أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الحافظ الفقيه الشافعي، ولد سنة: (٦٣١هـ) بنوى (من قرى حوران، بسورية). أخذ علم الحديث عن جماعة من الحفاظ، أشغل وقته بالاشتغال بالعلم وتحصيله، وكان محققًا في علمه وفنونه، مدققًا في عمله وشؤونه، حافظًا للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله. وقد نفع الله الأمة بتصانيفه، وانتشرت في الأقطار والتي من أشهرها: شرح مسلم، والمنهاج، ورياض الصالحين الذي لا تخلو منه بيت ولا مكتبة إلا ما ندر. توفي سنة: (٦٧٦ هـ). انظر: تاريخ الإسلام: الذهبي: (١٥/ ٣٣٢)، والأعلام: الزركلي: (٨/ ١٤٩، ١٥٠).

(٢) شرح النووي على مسلم: (١٢/ ١١).

(٣) إحياء علوم الدين: الغزالي: (٢/ ١٧٣) بتصرف يسير.

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٤٤٣).

(٥) آداب العِشْرَة وذكر الصحبة والأخوة: أبو البركات الغزي: (ص: ١٧).

(٦) الأُخُوَّة أيها الإِخْوَة: محمد بن حسين يعقوب: (ص: ٤٧).

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]، فبعد أن كنتم في الجاهلية أعداءً يقتل بعضكم بعضًا، ويسلب بعضكم حياة بعض، وبعد أن استطالت فيكم النعرات والثارات، ووجدت في ناديكم بغيتها، فأكلت روابط الألفة والقرابة، وأرسلت على القلوب شواظ من نار العداوة، بعد كل ذلك عمّتكم نعمة الله فألَّفَ بين قلوبكم، وأزال دعوى الجاهلية من صدوركم، وأطفأ نار الحقد والكراهية في نفوسكم، فأصبحتم إخوانًا بعد أن كنتم أعداءً، ومتآلفين بعد أن كنتم متنافرين، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

أثر الالتزام بالجماعة وتحقيق الأخوة على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن انضمام الفرد لجماعة المسلمين انضمام إلى عصمة الأمة المجموعة، وأمان له من الوقوع في الأخطاء الممنوعة، وفيه استجابة لأمر الله بالاعتصام بالجماعة وعدم التفرق: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]، وتحقيق لنعمة الأخوة المنجية من عذاب الله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]، وفي ذلك الهداية له والرشاد والصلاح: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فالجماعة لها تأثير خاص في سلوك الفرد؛ فمن خلالها يكتسب كثيرًا من معاني الانضباط، وعدم التفرد بالرأي، وتنمية القدرات، وترقية المهارات، وعن طريقها يجد الفرد ذاته، ويتفهم الدور المناط به، ويتربى على الشعور بالآخر، دون الأحادية والأنانية التي يعاني منها من يعيش وحيدًا لنفسه.

الأثر على المجتمع:

إن للمجتمع ركيزتين مهمتين تساعدان على قيامه وهما: لزوم الجماعة وعدم التفرق، وإشاعة ثقافة الأخوة والمحبة، فإن الله قد حذر المجتمع من التفرق والاختلاف، وتوعد من يتصف بذلك بالعذاب العظيم فقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

وقد كانت هاتان الركيزتان من أولى اهتمامات النبي ﷺ حين ابتدأ ببناء جيل الإسلام في البقعة المباركة – المدينة النبوية –، فبدأ بأولى خطوات تأسيس ذلك الجيل الفريد، وهي المؤاخاة بين المهاجرين والذين تبوؤوا الدار من قبلهم؛ لتكون هي أساس المجتمع المتين، إذ البناء على أساس هش غير مترابط آيل للسقوط، مهدد بالتصدع، فكانت المؤاخاة بين الأوس والخزرج بعد سنوات من الاقتتال والاختلاف، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد مفارقتهم الديار والأبناء، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣]، وبذلك ابتدأ تأسيس كيان المجتمع الإسلامي. وقد سطر التاريخ لهم صفحات مشرقة في تآخيهم وتعاونهم.

والمجتمع الإسلامي إنما قام على أساس الجماعة الواحدة، والجسد الواحد، والأخوة الصادقة، وفي الحديث: ((الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ؛ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ...)) الحديث[1].

وإن التزام الجماعة، وتحقيق الأخوَّة الصادقة ضمان من الفتن، وأمان من الخطأ، وبه تحصيل التقوى، وصلاح الدين والدنيا، كما أن التفرق سبب للضعف والهزيمة، ومظان للخطأ والمعصية، وابتعاد عن المنهج الرباني، واختلال للنظام الاجتماعي، وتقطيع للروابط، وتمزيق للأواصر، واستحقاق للعذاب العظيم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

(١) سنن أبي داود، برقم: (٢٧٥١) واللفظ له، كتاب: الجهاد، باب: في السرية ترد على أهل العسكر: (٣/ ٨١)، وسنن ابن ماجه، برقم: (٢٦٨٥)، كتاب: الديات، باب: المسلمون تتكافأ دماؤهم: (٣/٦٩١)، كلاهما من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وصححه ابن خزيمة في الصحيح، برقم: (٢٢٨٠)، كتاب: الزكاة، باب: النهي عن الجلب عند أخذ الصدقة من المواشي: (٤/ ٢٦)، والألباني في صحيح الجامع برقم: (٦٧٠٧)، حرف الميم: (٢/ ١١٣٧).

المطلب الخامس: الرحمة واللين في التعامل والخطاب.

الرحمة جَمال الأخلاق، وزينة المناقب، وجوهرة الشمائل، فهي دليل صفاء القلب، وعلامة يقظة الضمير، وهي فطرة من الله، وصبغته التي لا أحسن منها، فليست لونًا من ألوان العاطفة الآنيَّة، بل هي رقة دائمة، ورأفة مستدامة.

والرحمة مع لين الجانب والخطاب كفيلان بصناعة شخصية تألفها القلوب، وتستهوي الأفئدة، وبهما وصف الله رسوله ﷺ في – مقام الرسالة – أشرف المقامات فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، فلو سقيتهم التوحيد شرابًا سائغًا دون أن تمزجه بالرحمة واللين لتفرقوا عنك، هائمين في الأرض، غير مطيقين للوقوف معك ولو للحظة من اللحظات(١).

فهي دعوة لكل مسلم بأن يلين في خطابه، ويترفق في معاملاته، فحين أرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون(٢) الذي فاق في طغيانه الطغاة، قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [سورة طه: ٤٤]، فأمرهما أن يأتيانه بالترغيب لا بالترهيب، ويدعوانه بالحض لا بالأمر، ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النازعات: ١٨، ١٩]. فعلى المسلم أن يلين في خطابه؛ فإنه ليس بأفضل من موسى عليه السلام، ومن يخاطِبُ ليس بأخبث من فرعون(٣).

فإذا كان هذا رفق الله ورحمته بمن هذا حاله، فكيف بمن هو أعبد له وأطوع؟ وإذا كان هذا رِفْقُهُ بالكفار فكيف الحال مع الأبرار؟ وإذا كان هذا اللين مع من جحَدَهُ، فكيف هو مع من وحَّده(٤)؟

فلِينُ الكلام يصقل القلوب من الضغائن فتغدو صافية، ويُنبت المودة فيها مكان الشحناء والكراهية، ويُحوِّلُ العداوة إلى صداقة، والبراءة إلى ولاية، ويجمع ولا يفرق: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ

(١) انظر: لطائف الإشارات: القسيري: (١/ ٢٩٠).

(٢) ورد ذكره في القرآن كثيرًا، ولم تُذكر له ترجمة معتمدة، فقد ذكر بعضهم أن اسمه: الوليد بن الريان، وأن أصله من بلخ. وقيل: كان اسمه وليد بن مصعب، وكنتيه أبو مُرّة، ولا شيء صحيح يمكن الجزم به. وروي أنه عاش أربعمائة سنة، وكان طوله ستة أشبار. وليس في الفراعنة أعتى منه، وليس هو فرعون يوسف عليه السلام؛ لأنه أسلم على يديه. انظر: الكامل في ضعفاء الرجال: الجرجاني: (٥/ ١٥١)، وتاريخ دمشق: ابن عساكر: (٧٢/ ١٥١)، وتهذيب الأسماء واللغات: النووي: (٢/ ٤٩).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي: (٢/ ١٦).

(٤) انظر: تفسير السمعاني: منصور السمعاني: (٣/ ٣٣٢).

لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، وقال أيضًا: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٤]، وقد قال بعض الحكماء: «الكلام اللَّيِّن يغسل الضغائن المسْتَكِنَّة فِي الجوارح»(١).

والرحمة مع لين الخطاب ليسا من نوافل الأخلاق، بل هما من واجباته، فهذا الدين مبني على الرحمة، ورسوله مرسل بالرحمة، وقرآنه ودستوره يفيض بالرحمة. وهما من الأخلاق الممكن اكتسابها بالرياضة والمداومة، شأنها شأن باقي الأخلاق الجميلة، قال أبو حامد الغزالي(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تَكَلُّفُ الأفعال الصادرة عنها ابتداءً لتصير طبعًا انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، أعني النفس والبدن؛ فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يَرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور»(٣).

أثر الرحمة واللين في التعامل والخطاب على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن الفرد المتصف بالرحمة ولين التعامل متمتع بصفات الحكمة، فهو يختار أسهل السبل للوصول إلى القلوب، ويأخذ بأحسن الأساليب للحصول على اجتماع الناس عليه، وعدم تفرقهم عنه، وتلك نعمة من الله تعالى: ففي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

---

(١) إحياء علوم الدين: الغزالي: (٣/ ١٢٠).

(٢) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، الطوسي، الفقيه الشافعي، قدم نيسابور، ولزم إمام الحرمين الجويني حتى صار أنظر أهل زمانه، وعظمت حشمته ببغداد، حتى كانت تغلب حشمة الأمراء والأكابر، ثم تغير حاله، وظهر عليه طريق التزهد، ثم لازم بيته، وانشغل بالتفكير، وبقي على ذلك مدة، وظهرت له عدة من التصانيف، والتي من أشهرها: (إحياء علوم الدين)، وفي خاتمة أمره أقبل على طلب الحديث، و لم يتفق له أن يروي. توفي سنة: (٥٠٥ هـ). انظر: تاريخ الإسلام: الذهبي: (١١/ ٧١)، والوافي بالوفيات: الصفدي: (١/ ٢١١).

(٣) إحياء علوم الدين: الغزالي: (٣/ ٥٩).

وكلما كان العبد رحيمًا ليّنًا مع الخلق، محسنًا إليهم، اقترب من رحمة الله، واقتربت هي منه: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٦]، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ))(١).

والرحيم اللين مرهف القلب، يرق لحال الضعيف، ويحن لحاجة الفقير، ويحنو على الكسير، وتأسره دمعة المحتاج، ويمد يده للملهوف، فيحبه الناس، وتنجذب إليه القلوب، بعكس الفظ الغليظ، فإن القلوب تنفر منه، والناس تستوحش من الجلوس معه: ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

الأثر على المجتمع:

يمتاز المجتمع المسلم بالتراحم بين أفراده، ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [سورة الفتح: ٢٩]، ويتمتع أبناؤه فيه بالتراحم، فهم كالجسد الواحد، والبنيان المرصوص المترابط، فبالرحمة واللين تسعد المجتمعات، وتصفوا الحياة، وينعم بالعيش حتى البهائم، وبالتظالم والعداوة تشقى المجتمعات، ويأكل القوي الضعيف، وينام أفرادها على ما يقضُّ المضاجع، بينما أهل التراحم والتعاطف في الهدوء وراحة البال ينعمون، فهي رحمة الله التي وصف بها نبيه بقوله: ففي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

ومن آثار عدم التراحم بين أفراد المجتمع، وسيادة الفظاظة والغلظة: أن ينشأ مجتمع متفكك، لا يجتمعون على رأي، ولا يستقرون على حال، وهو مصداق قوله تعالى لنبيه ﷺ: ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

ويستلزم من قوله جل وعلا: ففي قوله تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ ألا يستقر المجتمع، وأن يخرج أبناؤه عن طاعة ولي أمرهم، فتفسد بذلك شؤونهم، وتسود الفوضى في سائر حياتهم.

---

(١) صحيح البخاري، برقم: (١٢٨٤)، كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: ١١٠]: (٩/ ١١٥)، وصحيح مسلم، برقم: (٩٢٣)، كتاب: الجنائز، باب: البكاء على الميت: (٢/ ٦٣٥)، كلاهما من حديث أسامة رضي الله عنه.

الفصل الثاني:

المضامين التربوية المتعلقة بأهل الكتاب والتعامل معهم.

الفصل الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بأهل الكتاب والتعامل معهم. وأثرها على الفرد وا لمجتمع.

وفيه مبحثان:

- **المبحث الأول: أدب التعامل مع أهل الكتاب.**
- **المبحث الثاني: مجادلة أهل الكتاب.**

مدخل:

في ظل الثورة العملاقة في مجال الاتصالات والعلاقات، وسهولة تلاقي الأفكار وتلاقحها، واختصار الزمان وتقارب المكان، حتى غدا العالم كالقرية الواحدة، وفي ظل انتشار الحملات التنصيرية في البلاد الإسلامية وغيرها، ومع تزايد الهجرة المستمرة إلى بلدان العالم المختلفة، مما سبب الاتصال المباشر بين كثير من أهل الملل المختلفة، والنِّحَلِ المتنوعة، في ظل تلك الأوضاع والمسببات أضحت المجادَلة والمناظرة ضرورة واقعية، وحاجة عصرية، كأسلوب دعوي، وخطاب ديني قائم على قواعد وأصول يجب استصحابها في هذا الغمار.

وقد فرضت هذه المسببات أمرين: توثيق الصلة الدينية بالصف المسلم والاعتناء بأفراده أولًا، وتبليغ دين الإسلام وإيصال صوته إلى العالم بالحجة والبيان ثانيًا، ويتحقق الأخير بوسائل متعددة، ومن أهمها: المجادلة بالتي هي أحسن، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولو استشعر المسلمون ذلك، وقام به كل فرد في نطاقه وحسب طاقته لذاع للإسلام صِيتُه، وتوسعت رقعته، وقد كان من المستطاع للأقليات الإسلامية في أنحاء الأرض أن تكون «رؤوس جسورٍ يعبر عليها الإسلام، – وكل شيء هنالك يطلبه ويهفو إليه – لو أن المسلمين يفقهون دينهم، ويصنعون من أنفسهم ومسالكهم صوراً وسيمة له»[1].

وهذا ما سيتم تناوله في هذا الفصل فيما يتعلق بالحديث عن أهل الكتاب.

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه: محمد العزالي: (ص: ٤٤).

المبحث الأول: أدب التعامل مع أهل الكتاب.

وفيه أربعة مطالب:

- **المطلب الأول:** التعريف بأهل الكتاب.
- **المطلب الثاني:** إقامة الحجج والبراهين على بشرية عيسى عليه السلام.
- **المطلب الثالث:** الحرص على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام عند مجادلتهم.
- **المطلب الرابع:** العدل في النظر لأهل الكتاب والتعامل معهم.

المبحث الأول: أدب التعامل مع أهل الكتاب.

المطلب الأول: التعريف بأهل الكتاب.

في سورة آل عمران العديد من الآيات التي تتحدث عن أهل الكتاب وتناديهم بذات الوصف، وتبحث مواضيعهم وشؤونهم، وقد مرَّ أن سبب نزول هذه السورة الكريمة هو مجادلة نصارى نجران لرسول الهدى ﷺ، وكان هذا الوفد سبب نزول كثير من الآيات المخاطِبة لأهل الكتاب. وقبل الشروع في الحديث عن أهل الكتاب، نبين المراد بهم:

مفهوم أهل الكتاب:

نلحظ حضوراً مكثفًا للفظ أهل الكتاب في القرآن الكريم، والسنة النبوية، يجعل البحث عن مفهوم المراد بهم، ومعرفة الفئة التي تمثلهم في غاية الاهتمام؛ لذا فقبل الشروع في الحديث عن مجادلتهم نبين المراد بهم.

أهل الكتاب لغة: يتكرر الخطاب عنهم في اللغة بأنهم من أُنزل عليهم كتاب من عند الله، ويتوالى ذكرهم بأنهم: «اليهود والنصارى الذين لهم كتابٌ مُنزَّل»[1]، وهو تعريف مشترك بين أهل اللغة وغيرهم.

أهل الكتاب اصطلاحًا: بناء على ما ذُكِرَ فإن المراد بأهل الكتاب في الاصطلاح: «اليهود – المشهور ببني إسرائيل – والنصارى وغيرهما ممن اعتقدوا دينًا سماويًا، ولهم كتابٌ منزل كصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام»[2]، وهذا تعريف فضفاض أُدخل فيه كل من له كتاب منزل من السماء.

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عبد الحميد: (١/ ١٣٦)، حرف الهمزة، مادة: (أ هـ ل).

(٢) التعريفات الفقهية: المجددي: (ص: ٣٩).

أما أهل الكتاب في اصطلاح الفقهاء فعلى قولين:

القول الأول: أنهم اليهود والنصارى ومن دانَ بدِيْنِهم، فيدخُل في اليهود السامرية؛ لأنهم يدينون بالتوراة ويعملون بشريعة موسى عليه السلام، ويدخل في النصارى كل من دَانَ بالإنجيل وانتسب إلى عيسى عليه السلام سواء كان مدعيًا أو عاملًا بشريعته[1]، وهو مذهب الحنفية[2] والحنابلة[3].

القول الثاني: أنهم اليهود والنصارى، وهو مذهب المالكية[4]، ومذهب الشافعية أيضًا، إلا أنهم يرون أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى من نسل بني إسرائيل، ومن دان بدينهم من غير نسلهم قبل النسخ والتبديل فهو كتابي[5].

وأدْخَلَ ابن حزم[6] رحمه الله معهم المجوس، ويرى أن أهل الكتاب «انقسموا إلى من له كتاب محقَّقٌ؛ مثل التوراة والإنجيل، وعن هذا يخاطبهم التنزيل بأهل الكتاب، وإلى من له شبهة كتاب؛ مثل:

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية: وزارة الأوقاف الكويتية: (٧/ ١٢١).

(٢) انظر: تبيين الحقائق وحاشية الشلبي: فخر الدين الزيلعي، حاشية: أحمد الشلبي: (٢/ ١٠٩، ١١٠)، والبناية شرح الهداية: أبو محمد العيني: (٥/ ٤٣)، والدر المختار وحاشية ابن عابدين: ابن عابدين: (٤/ ١٩٨).

(٣) انظر: المغني: ابن قدامة: (٩/ ٣٢٨، ٣٢٩)، والشرح الكبير على المقنع: ابن قدامة: (١٠/ ٣٩٤ - ٣٩٩)، والفروع وتصحيح الفروع: ابن مفلح الحنبلي: (١٠/ ٣١٩).

(٤) انظر: المدونة: مالك بن أنس: (٢/ ٢١٩)، وشرح الرسالة: عبد الوهاب الثعلبي: (١/ ٤٢٦)، والتبصرة: علي بن محمد اللخمي: (٥/ ٢١١٣)، والبيان والتحصيل: ابن رشد القرطبي: (٤/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٥) انظر: الأم: محمد بن إدريس الشافعي: (٤/ ١٨٢ – ١٨٤، و: ٢٨٩)، والحاوي الكبير: الماوردي: (٩/ ٢٢٠)، والمهذب: أبو إسحاق الشيرازي: (٢/ ٤٤٢)، والتهذيب في فقه الإمام الشافعي: البغوي: (٥/ ٣٦٨).

(٦) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، ولد سنة: (٣٨٣هـ)، وسكن وآباؤه قرطبة ونالوا فيها جاهًا عريضًا، حتى صار وزيرًا ، ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على العلوم يستكثر منها، حتى نال ما لم ينله أحد بالأندلس قبله، وصنّف مصنفات كثيرة بلغت نحو أربعمائة، معظمها في أصول الفقه وفروعه وأشهرها: (المحلّى)، وله نصيب وافر من النحو واللغة والشعر والخطابة. وقد استقر على مذهب داود الظاهري. وقد قيل: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين؛ لوقوعه في الأئمة. توفي سنة: (٤٥٦هـ). انظر: معجم الأدباء: ياقوت الحموي: (٤/١٦٥٠- ١٦٥٩)، ووفيات الأعيان: ابن خلكان: (٣/ ٣٢٥- ٣٣٠).

المجوس والمانوية[1]؛ فإن الصُّحفَ التي أُنْزلت على إبراهيم عليه السلام قد رُفعَت إلى السماء؛ لأحداث أحدثها المجوس، ولهذا يجوز عقد العهد والذِّمام معهم، ويُنحَى بهم نحو اليهود والنصارى؛ إذ هم من أهل الكتاب؛ ولكن لا يجوز مناكحَتُهم، ولا أكل ذبائحهم؛ فإن الكتاب قد رُفِعَ عنهم»[2].

ومن خلال ما سبق يتبين أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ومن دان بدينهم، واتبع ملَّتهم.

(١) فرقة تنتسب إلى ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، وكان يعترف بنبوته، ولا يعترف بنبوة موسى عليه السلام. وقد أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، واقتبس من المجوسية القول بأن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور وهو إله الخير، والآخر ظلمة وهو إله الشر، وأنه ستظل أجزاء النور في الصعود، وأجزاء الظلمة في النزول حتى تتخلص الأجزاء من الأجزاء، ويصل كل إلى كله وعالمه، وذلك هو القيامة والميعاد. انظر: الملل والنحل: الشهرستاني: (٢/ ٤٩- ٥٤).

(٢) انظر: المصدر السابق: (٢/ ١٣).

المطلب الثاني: إقامة الحجج والبراهين على بشرية عيسى عليه السلام.

لما كان خَلْقُ الله عيسى عليه السلام على صورة فريدة لم يسبق لها نظير، و لم يُرَ لها مثيل، اختلف الناس في أمره كثيرًا، وصاروا فيه شِيعًا وفِرَقًا، «كل شيعه تقول فيه قولًا، وكل فرقة تذهب فيه مذهبًا. أما اليهود فقد ارتضوا الجريمة مركبًا، فقتلوا أنفسهم، وقتلوا الحق معهم، وقالوا في المسيح: إنه وُلِدَ كما يُولد الناس من ذكر وأنثى، وكان ميلاده على فراش الإثم والفاحشة؛ لأنه ابن زنا! وأما أتباع المسيح فقد قصُرَتْ مداركهم عن إدراك قدرة الله، فلم تحتمل عقولهم تلك الحقيقة، وهي أن الله قادر على كل شيء، يخلق ما يشاء، مما يشاء، كيفما يشاء! فقالوا: إن المسيح هو الله تَجَسَّدَ بشرًا في جسد عذراء، وإذًا: فهو ميلاد صُوْريّ؛ لأنه لم يُولد إلا الله نفسه، الذي كان موجودًا بكماله الإلهي قبل هذا الميلاد! وإذًا فلا مسيح، وإنما هو الله تسمّى باسمٍ بشري، كما لبس صورة بشرية»[1].

وإن لسورة آل عمران نصيب كبير في إثبات بشرية عيسى عليه السلام، وذلك عبر وسائل عدّة وهي:

١- إثبات بشريته عليه السلام عبر الحديث عن خلقه وتصويره: فقد افتتحت آيات السورة الأولى بذكر تصوير الله الأجنة في الأرحام كيف يشاء: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ٦]، في إشارة إلى أن كل ما اشتملت عليه الأرحام فهو من خلق الله تعالى، وأن عيسى عليه السلام مما اشتملته رحم، وأنه صوره كما صور جميع خلقه في الأرحام، ولو كان إلهًا لما تقلب في الأحشاء، وجاور في الرحم الأمعاء[2].

ثم إن السورة تحدثت عن مسيرة خلق الله لعيسى عليه السلام؛ بذكر مراحل متوالية من حياة الأسرة الكريمة: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران:٣٤]، ابتداء بمريم وحَمْلِ أمّها بها: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣٥، ٣٦]، ثم حَمْلِ مريم بعيسى

(١) التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (٢/٤٧٧، ٤٧٨) بتصرف يسير.

(٢) انظر: جامع البيان: الطبري: (٦/ ١٦٦، ١٦٧)، وتفسير القرآن العظيم: ابن كثير: (٢/ ٤)..

عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة آل عمران:٤٥، ٤٦]. وفي كل ذلك يقرر ربنا جل علاه بشرية عيسى عليه السلام، وأنه كسائر البشر في الخلق والتكوين، إلا أن الله اختصه بالرسالة كإخوته من الرسل عليهم السلام.

٢- إثبات بشريته عليه السلام بعبوديته لله: فقد أوردت السورة اعتراف عيسى عليه السلام بالعبودية المطلقة للمولى تقدست أسماؤه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٥١]. ولقد خلَّد القرآن الكريم اعتراف عيسى عليه السلام بعبوديته لله بكلمات تلفظ بها في المهد قائلًا: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٣٠]، فكان «أول شيء تكلم به أن نزَّهَ جناب ربه تعالى، وبرَّأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه»(١). مع أن الموطن يستدعي نفي التهمة عن أمِّه حين أتت به قومها تحمله، لكنه «لم ينص على ذلك، وإنما نَصَّ على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أولى من إزالة التهمة عن الأم»(٢). وأعلنها مدوية في أكثر من موطن كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة المائدة: ٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٥١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة مريم: ٣٦].

٣- إثبات بشريته عليه السلام بالإخبار عن قتله وصلبه: ثم إن الله أخبر أنه سيُطلب للقتل والصلب، وأنه سينقذه من أيدي الظالمين، وسيرفعه إليه ليخلصه من شرهم: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥]، والمعنى: «إني عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومُؤَخِّرُكَ إلى أجل كتبته لك، ومُميتُك حتف أنفك لا قتيلًا بأيديهم، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى سمائي ومقرّ ملائكتي، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جِوَارِهم

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: (٥/ ٢٠٢).

(٢) التفسير الكبير: الرازي: (٢١/ ٥٣١).

وخبث صحبتهم»[1]. والمراد بالوفاة في الآية: «قيل: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: قابضك من الأرض، من توَفَّيتُ ما لي على فلان، إذا استوفيته، وقيل: مُميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن، وقيل: متوفي نفْسَك بالنوم، من قوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ [سورة الزمر: ٤٢]، ورافعك وأنت نائم؛ حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمنٌ مقرَّبٌ»[2]. ولو كان إلهًا لما احتاج لمن يحميه، ولا من يخلصه من خَلْقٍ هم أضعف ناصرًا وأقل عددًا، ولكنه عبد يفتقر إلى العون، ويحتاج للحماية، فحماه الله وجعله آية.

٤- إثبات بشريته عليه السلام ببيان اختلاف صفة خلقه عن بقية الخلق: فإنه إن كان داعي ألوهيته أنه خُلق بلا أب فقد كان آدم عليه السلام أغرب منه ولادة، حيث قال المولى تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠﴾ [سورة آل عمران: ٥٩، ٦٠]، وإنَّ عدم نسبته لوالد لا يعني نسبته لله تعالى، فقد خُلِقَ من قبله آدم عليه السلام بلا أب ولا أم، فإن كان ذلك داعٍ لاتخاذه إلهًا من دون الله فآدم عليه السلام أولى بهذا الادِّعاء منه. «وهذا ليس بشبهة فضلًا أن يكون حُجة؛ لأن خَلْقَهُ كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، وأن جميع الأسباب طَوعُ مشيئته، وتبعٌ لإرادته، فهو على نقيض قولهم أدَلّ، وعلى أن أحدًا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصارى في المسيح، فإن صح ادَّعاء البُنوَّة والإلهية في المسيح، فادِّعاؤها في آدم من باب أولى وأحرى»[3].

وإن الله بقدرته قد خلق الناس على أربع صور: فمخلوق من غير ذكر ولا أنثى كآدم عليه السلام، ومخلوق من ذكر بلا أنثى كحواء عليها السلام، ومخلوق من أنثى بلا ذكر كعيسى عليه السلام، ومخلوق من ذكر وأنثى كباقي البشر. قال سيد قطب رحمه الله: «ويعجب الإنسان - وهو يرى وضوح القضية وبساطتها - من فعل الهوى ورواسب الوثنية، التي عقَّدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله في أذهان أجيال وأجيال، وهي كما يصورها القرآن بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة. إن الذي وهب

(١) الكشاف: الزمخشري: (١/ ٣٦٦).

(٢) المصدر السابق: (١/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن: السعدي: (ص: ١٣٣) بتصرف يسير.

لآدم – من غير أبوين – حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذي وهب عيسى – من غير أب – هذه الحياة الإنسانية كذلك»[1].

وقد جاءت كثير من آيات القرآن الكريم مثبتة بشرية عيسى عليه السلام، فتحدثت عن مولده، ومعجزاته التي اختص بها من بين البشر، والتي من أبرزها: أن الله خلقه من أم بلا أب، وإن كان هذا الميلاد قد انفرد به عيسى عليه السلام بإرادة من الله رب العالمين، إلا أنه لا ينبغي أن يكون داعيًا لعبادته، وأن يكون ذريعة لإخراجه من مقام المخلوق ورفعه إلى مقام الخالق. وقد نفى المولى عز شأنه هذا الادعاء، وردَّ هذه التهمة بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة آل عمران: ٥٩]، وهكذا جاء القرآن بأسلوب قياس الأولى، فهو وإن كان مولده بلا أب إلا أنه لا يخرجه ذلك عن بشريته، ولا ينزع عنه لباس العبودية. والحق فيه عليه السلام ما ذكرته آيات الكتاب الحكيم، من أن الله خلقه بتلك الصورة آية ومعجزة، فقال أصدق القائلين: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢١]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٩]، وبيَّن أن الحق الذي لا محيد عنه، والقول الفصل الذي لا صحيح سواه أنه كآدم عليه السلام في البشرية؛ ولذلك أعقب بقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٠]. فهل بعد هذا الحق إلا الضلال؟

وبعد هذا البيان الذي لا ينكره إلا مكابر، ولا يرده إلا جاحد، إن وُجِدَ من يُحاجج في ألوهية عيسى عليه السلام بعد ما جاءه من العلم فليستعد للمباهلة، وليَرْضَ بالملاعنة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦١]. وهكذا أثبت القرآن الكريم بشرية عيسى عليه السلام، ونفى ادّعاء ألوهيته بأساليب متنوعة، وحُجَجٍ مختلفة.

(١) في ظلال القرآن: (٢/ ٨١٧).

أثر إثبات بشرية عيسى عليه السلام على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

أعزك أثر يمكن أن يستفيده الإنسان من إثبات الآيات لبشرية عيسى عليه السلام هو ذاك التسلسل والتدرج في الخطاب الإلهي؛ حيث بدأ بذكر الأرحام وتصويرها، ثم انتقل للحديث عن خلق عيسى عليه السلام، ثم اعترافه بأنه عبد لله، ثم الإخبار عن أنه كغيره من البشر يُقتل ويموت، ثم ناقش القضية المهمة التي هي أساس ادعاء ألوهيته، وهي معجزة خلقه من أم بلا أب، ودلَّل على ذلك بأن آدم عليه السلام أشد منه غرابة؛ حيث خلق من غير أب ولا أم. ثم ختمت الآيات ببيان أن هذا هو الحق، ولا يحيد عنه إلا مكابر معاند، ولا ينفع معه بيان، ولا تؤثر فيه موعظة

وإن في الإيمان ببشرية عيسى عليه السلام سلامة للفرد من النار، ونجاة له من العذاب، وبراءة له من الإشراك بالله، فإن الله وصف من اعتقد في عيسى عليه السلام غير البشرية، ووصفه بالألوهية بالكفر، فحرم عليه الجنة، وجعل مأواه النار، وتوعده فيها بالعقاب الشديد يوم القيامة.

الأثر على المجتمع:

إن أثر بيان القرآن لبشرية عيسى عليه السلام يثمر تعايش المجتمعات التي تنصاع للحق وتؤمن به، فإن القرآن ما بيَّن في هذه الآيات عبودية عيسى عليه السلام، إلا لتنعم المجتمعات بالتدين بالدين الواحد، وهو الدين الحق الذي أنزله الله في كتابه. فحين يعتاد المجتمع على التعامل بالأدلة والبراهين، وتصبح الحجة والبينة ديدنه، فإن أبناءه يعتادون قبول الحق ما دامت دلائله واضحة، ويرفضون دعاوى الباطل ما دامت لم تصاحبها بينة، فلا ينساقون خلف كل ناعق، ولا يتبعون كل داعية ضلال، فيَسْلم أبناء المجتمع من كل صاحب ضلال، ويتصدَّون لكل داعي غواية.

المطلب الثالث: الحرص على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام عند مجادلتهم.

لا بد أن ينطلق المجادِلُ لأهل الكتاب من قاعدة الحرص على هدايتهم، وإيصال الحق إليهم، وإرشادهم إلى الدين القويم، مستشعراً إبراز صورة الإسلام النقية، وإزالة النظرة السلبية المترسبة في أذهان الكثير من أهل الكتاب عن الإسلام وأهله، خاصة في ظل التشويه المتعمد الذي يُكال للإسلام والمسلمين، سواء من أعدائه، أو من بعض أبنائه؛ بنسبته للعنف والإرهاب تارة، وبوصمه بالتخلف والرجعية تارة أخرى.

وإن دعوة الناس عامة بما فيهم أهل الكتاب أمرٌ فرضه الله على نبيه ﷺ في أكثر من موطن، أما فيما يخص أهل الكتاب فقد أرشده سبحانه لبيان هذا الدين لهم، ودعوتهم إليه فقال أصدق القائلين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، و«هذه الآية أساس الدِّين المتين، وأصله الأصيل؛ ولذلك كان النبي ﷺ يدعو بها أهل الكتاب إلى الإسلام»[(١)]، وقال جل ثناؤه: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠]، وفي الاستفهام ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ الأمر بالإسلام، والمعنى: أسلموا هو خير لكم[(٢)].

وقد استجاب المصطفى ﷺ لهذا الأمر، فنشر الرسالة، وبلَّغَ ما أُنزل إليه من ربه، وتنوَّع أسلوبه في دعوته لأهل الكتاب، فدعا بالحكمة والموعظة الحسنة أقوامًا، كما هو ظاهر في مكاتبته إلى الملوك والأمراء، ففي دعوته هرقل[(٣)] إلى الإسلام كتب إليه: ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ،

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا: (٣/ ٢٧٠).

(٢) انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن: الثعلبي: (٣/ ٣٦)، ومعالم التنزيل: البغوي: (١/ ٤٢٢).

(٣) هرقل اسم عَلَمٍ لعظيم الروم في الشام في زمن رسول الله ﷺ، ويلقب بقيصر، وهو اسم لكل من ملك الروم، وقد جاءت التسميتان في الأحاديث عن النبي ﷺ. وقد ثبتت عنده صحة نبوة رسول الله ﷺ وهم أن يسلم، فلما لم توافقه الروم على ذلك ترك الإسلام؛ خوفًا على ملكه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: النووي: (٢/ ٦٥)، وتهذيب الكمال: المزي: (١/ ١٩٧).

أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ[1]، وَ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]))[2]. وجادَلَ من كان منهم مجادِلًا، واستجاب للمباهلة لمن طلبها منه، وذلك ظاهر في تعامله مع وفد نصارى نجران.

ورغم ما عليه الغرب – من أهل الكتاب – اليوم من تطور صناعي وحضاري إلا أنه يعيش فراغًا روحيًّا، وضياعًا عقديًّا، واضطرابًا وقلقًا نفسيًّا؛ وذلك مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [سورة الروم: ٧]، فلا دين يُقيم حياتهم، ولا عقيدة تنفعهم في آخرتهم؛ لذلك كله غدت دعوتهم إلى دين الإسلام ضرورة، واستجابتهم للدعوة مصلحة وهداية: ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠]، وفيها إنقاذ لهم من النار، وسلامة من العذاب، قال سيد المرسلين ﷺ: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ))[3]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[4] رحمه الله: «وهذا القرآن – الذي يَعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به – مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى اتِّباعه، ويُكفِّر من لم يتَّبعه منهم ويذمُّه ويلعنه؛ والوعيد له كما في تكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه والوعيد، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا

---

(١) قال الخطابي: «يريد الضُعفاءَ والأتباع منهم. ويقال: إن الأريسيين الذين كانُوا يحرثُون أرضَهم كانوا مجُوسًا». غريب الحديث: (١/ ٤٩٩، ٥٠٠)، وقال الأصبهاني: «قال أبو عُبيد: هم الخدَم والحَول، أي بِصَدِّه إيَّاهم عن الدِّين». المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: (١/ ٥٣).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٢٩٤١)، كتاب: الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام: (٤/ ٤٥)، وصحيح مسلم: برقم: (١٧٧٣)، كتاب: الجهاد والسير، باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام: (٣/ ١٣٩٣). كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) صحيح مسلم، برقم: (١٥٣)، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس: (١ / ١٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، شيخ الإسلام، المجتهد المطلق، وُلد سنة: (٦٦١هـ) بحرَّان. وتحوَّل به أبوه إلى دمشق. فاق الأقران، وصار عجبًا في سرعة الاستحضار، والتوسع في المنقول والمعقول، قرأ القرآن والفقه وناظر واستدل وهو دون البلوغ، وأفتى ودرَّس وهو دون العشرين، وصار من أكابر العلماء في حياة مشايخه، وقد عَرَف الفِرَق وأصولها، وكان في مناظرة أهلها لا يُشق له غبار. وقد صنَّف في فنون كثيرة زادت على مائتي مجلد. توفي محبوسًا في قلعة دمشق سنة: (٧٢٨هـ). انظر: فوات الوفيات: محمد شاكر صلاح الدين: (١/٧٤-٨٠)، والبدر الطالع: الشوكاني: (١/٦٣- ٧٢).

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ...﴾ [سورة النساء: ٤٧]، وفي القرآن من قوله: يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل ما لا يُحصى إلا بِكُلْفَة»[١].

وتتجلى أهمية هذه الدعوة بالفرحة التي خالجت النبي ﷺ في هداية فتى من اليهود على يديه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((كان غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فقال له: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فقال له: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ))[٢].

والأمة المحمدية وارثة لدعوته ﷺ من بعده، مأمورة بالبلاغ عنه، فهو الآمر بذلك بقوله ﷺ: ((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ...)) الحديث[٣]، خاصة العلماء منهم وأهل البصيرة والدعوة، كيف والله قد جاء بنا كأمّةٍ لنُخرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، من ضيق الدنيا إلى سِعَتِها، ومن جَوْرِ الأدْيان إلى عَدْلِ الإسلام[٤].

ويجب استغلال كل الوسائل المتاحة اليوم في إيصال هذا الدين للناس، وإبراز جماله وتألُّقِه، عبر الإعلام المرئي والمسموع والمقروء وكل وسيلة يصل بها الإسلام إلى الناس، بحوار هادئ، ومجادلة بالتي هي أحسن، وبيانٍ مُدعَّمٍ بالحكمة والموعظة الحسنة، يستهدف قادة الفكر وروَّاد التأثير خاصة، وبقية طبقات المجتمع عامة.

وفي درب مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم لا بد من استشعار الهدف السامي لها، وهو أن تُكَلَّل بهدايتهم لدين الإسلام الحنيف، لا أن يُقصد بها الغلبة والشهرة عليهم، أو بيان فساد ما هم عليه من اعتقاد باطل فقط، ولا بد أن يُخلِصَ المجادِلُ لله النية، ويبذل قُصَارى الجهد في بيان الحق وإيصاله إلى من يُجادلهم، وينتظر الثمرة من الله عز وجل.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٠٤).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (١٣٥٦)، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلى عليه: (٢ / ٩٤).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٣٤٦١)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل: (٤/ ١٧٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) هذه المقولة لربْعِيِّ بن عامر رضي الله عنه، قالها لرستم قائد الفُرْسِ قبيل معركة القادسية؛ وذلك حين سأله عما جاء بهم. انظر: تاريخ الرسل والملوك: ابن جرير الطبري: (٣/ ٥٢٠)، والبداية والنهاية: ابن كثير: (٩/ ٦٢٢).

أثر الحرص على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن العبد إذا حمَل على عاتقه دعوة أهل الكتاب إلى الله فإنه على خير عظيم؛ إذ في طريقه ذلك الفلاح، والأجر المستمر؛ حيث قال المصطفى ﷺ: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ...)) الحديث[1]، فهو أول من يجني ثمار دعوته، ثم إن هداية رجل واحد على يديه خير له من الحياة الدنيا وزهرتها، فقد قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب[2] رضي الله عنه: ((فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))[3]، وله ثواب السعي في إنقاذهم من النار، فليفرح بذلك؛ خاصة وأنها وظيفة رسول الله ﷺ، وقد قال المولى تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [سورة آل عمران: ٢٠].

الأثر على المجتمع:

في دعوة أهل الكتاب للإسلام تقوية للمجتمع الإسلامي وزيادة في أهله، وفي مقابل ذلك تقليل من المجتمع الكافر وتضعيف له، فيتسع المجتمع الإسلامي، ويصبح في كل رقعة من الأرض من يعبد الله عز وجل لا يشرك به شيئًا، ويسود الإسلام، ويعم السلام، وتصل رسالة النبي ﷺ للعالمية، وفي ذلك أصل فلاح المجتمعات، وفيها هدايتها ورشادها، كما أخبر بذلك المولى تباركت أسماؤه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠].

---

(١) صحيح مسلم، برقم: (٢٦٧٤)، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة: (٤/ ٢٠٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أبو الحسن، علي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أخو رسول الله، وابن عمه وصهره، وأبو السبطين، أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، ولد بمكة سنة: (٢٣ ق هـ)، ورُبي في حجر رسول الله و لم يفارقه. وكان اللواء بيده في أكثر من مشهد. ولي الخلافة بعد مقتل عثمان، و لم يستتب له الأمر، فكانت وقعة الجمل التي بلغ قتلاها عشرة آلاف، ثم وقعة صفين التي بلغ قتلاها أيضًا سبعون ألفًا. ثم وقعة النهروان مع الخوارج. وأقام عليّ بالكوفة (دار خلافته) إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم سنة: (٤٠ هـ)، واختلف في مكان قبره. انظر: أسد الغابة: ابن الأثير: (٤/ ٨٨ - ١٠٢)، والأعلام: الزركلي: (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٣٠٠٩)، كتاب: الجهاد والسير ، باب: من أسلم على يديه رجل: (٤/٦٠)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٤٠٦)، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (٤/١٨٧٢). كلاهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

المطلب الرابع: العدل في النظر لأهل الكتاب والتعامل معهم.

في قول المولى جل شأنه: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ٧٥]، ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا﴾ [سورة آل عمران: ٧٨]، و﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ٧٢]، و﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾ [سورة آل عمران: ١١٣]، منهج قرآني تربوي بديع؛ وهو منهج التمييز والتفصيل وعدم الانجرار خلف شهوة الشمول والإطلاق الذي يجعل الجميع في قفص الاتهام، وذلك ليس في منهج المقسطين في شيء، والقرآن مليئة جنباته بهذا المنهج، فيذكر الطائفة والفرقة والفريق و(مِنْ) التبعيضية، ويأتي بالتخصيص بعد التعميم، والقصر عقب الجمع؛ وذلك هو رُقيُّ الإسلام ومنهج كتابه الكريم، فعند الحديث عن طائفة بصفة سلبية لا يسوغ التعميم، بل ينبغي ذكر الجانب السلبي والإيجابي.

عدل الخطاب القرآني مع أهل الكتاب في سورة آل عمران: لقد تنوّع الخطاب في سورة آل عمران في شأن أهل الكتاب، فأنصفهم غاية الإنصاف، وجاء التعبير مراعيًا هذا الجانب، وذلك في آيات عدة، كقوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٩]، وقوله: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٢]، وقوله: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٥]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٠]، وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ

ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٩].

وهكذا «أنصف القرآن أهل الكتاب إنصافًا عاليًا رفيع المستوى، فأقرَّت آيات القرآن بوجود فئة أمينة من أهل الكتاب، تُؤتمن على القليل والكثير، وأعْلنت عن وجود جماعة مؤمنة صالحة مستقيمة عادلة، تؤمن بالله واليوم الآخر، وترعى الذِّمم، وتحترم القيم، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتبادر إلى فعل الخيرات»(١).

وهذا التوجيه التربوي الرباني من شأنه أن يضبط مقاييس الشخصية المسلمة، فتبتعد عن الإطلاق والتعميم في الأحكام، وتنتهج الإنصاف والعدل مع كل مُخالف؛ بذكر جانب الخير والشر، والالتزام بعدم التسوية والشمول؛ إذ الناس مذاهب متنوعة، والخَلْق مشارب مختلفة.

قال ابن حزم رحمه الله: «أفضل نعم الله على العبد أن يطْبَعَهُ على العدل وحبِّه، وعلى الحق وإيثاره، فما استعنتُ على قمع هذه الطوالح الفاسدة وعلى كل خير في الدين والدنيا الا بما في قوَّتي من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى. وأما من طُبع على الجور واستسهاله على الظلم واستخفافه فليأس من أن يُصلح نفسَه، أو يُقوِّم طِباعَهُ أبدًا، وليعلم أنه لا يفلح في دِيْنٍ ولا في خُلُق محمود»(٢). وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»(٣).

(١) التفسير الوسيط: الزحيلي: (١/ ٢٢٨).

(٢) رسائل ابن حزم: (١/٣٥٧، ٣٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٤٦).

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «والعدل مما تواطأت على حُسْنه الشرائع الإلهية، والعقول الحكيمة، وتمدَّح بادعاء القيام به عظماءُ الأمم، وسجَّلوا تمدُّحهم على نقوش الهياكل من كلدانية[1]، ومصرية، وهندية. وحسنُ العدْل مستقِرٌّ في الفطرة، فإن كل نفس تنشرح لمظاهر العدل ما كانت النفوس بمعزل عن هوى يغلب عليها في قضية خاصة، أو في مبدأ خاص تنتفع فيه بما يخالف العدل بدافع إحدى القوتين: الشاهية والغاضبة[2]»[3].

وإن ثقافة التعميم والشمول دون استثناء تثقلها كثير من السلبيات، وتورث التشويه في النظرة الحياتية والإنسانية، فحين تطغى هذه الثقافة على الفرد فإنها تحصره في دائرة التعامل بالنظرة الواحدة للكل، واستنساخ تلك النظرة لتطبيقها على المجتمع بشكل كلي، فيجانب صاحبها العدل، ويقع في دائرة الحيف.

أثر العدل في النظر لأهل الكتاب والتعامل معهم على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إذا سلك الفرد المسلم درب الإنصاف والعدل في مجادلة أهل الكتاب ومحاورتهم سَلِمَ له قلبه ودينه، وابتعد عن كل ما يدعو للتحامل عليهم، أو يكون مظنة للجور، ومجانبة للحق، وكتمًا للحجة وبيان ما أنزل الله على رسوله، أو معاملتهم بشيء من حظوظ النفس. وحين ينظر إليهم بنظرة التمييز والتفصيل لا الشمول فإنه يستطيع التنويع في أسلوب الخطاب معهم، فيجادل بالتي هي أحسن من يناسب معهم ذلك، ويستخدم أساليب أخرى مع من لا ينفع معهم الأسلوب الأول وهكذا.

---

(١) حضارة ودولة قامت على أنقاض الدولة الآشورية التي انتهت عام: (٦١٢ ق م)، ومقرها بابل، وتسمى الدولة البابلية الحديثة، وقد كانت قبائل كالدو فرعًا من الأراميين الذين جعلوا ضفاف العراق قِبْلَتَهم في القرن (١٤ ق م). وترتب على انتشارهم في بلاد النهرين، وتدخلهم في المعاملات التجارية، ووجود بعضهم خدمًا في بيوت الأثرياء وضياعهم أن وَجدت لهجاتهم سبيلها إلى السكان الأصليين، وكتبوا بها بعض كتبهم، ولا زالت بعض كلماتهم تتداول في كثير من الكتب. انظر: الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق: عبد العزيز صالح: (ص:٥٣٨، ٥٣٩)، والعرب في العصور القديمة: لطفي عبد الوهاب:(ص: ٤١٤).

(٢) المراد قوة الشهوة وقوة الغضب، والمعنى: أنهما يغلبان على الإنسان فيُخرجانه من العدل إلى الجور، ومن الإنصاف إلى الإجحاف.

(٣) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام: (ص: ١٨٥، ١٨٦).

الأثر على المجتمع:

إن المجتمع المتكامل مهما كانت ديانته وأخلاقه فلا يعني أنه على شر محض، وأن كل معاملاته خاطئة، بل لا بد أن فيه جانبًا مغايرًا، وأن أهله ليسوا على صفة واحدة، فهم متنوعون في المشارب، مختلفون في الآراء، فلا ينبغي التعميم عند الحكم عليهم، ولا الإطلاق عند الحديث عنهم، وذلك مصداق ما قاله الله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ١١٣، ١١٤].

إن غياب العدل وآلياته في المجتمعات عند التخاطب يعني سيطرة الأنانية على أفراده، وادعاء الانفراد بالإيجابية على حساب تعميم السلبية على الآخرين، مما يؤدي إلى التنافر وسيادة الطبقية في المجتمعات، بعكس استعمال الإنصاف والتخصيص بالسلبية، وذكر الإيجابية مقابلها، فإن ذلك كله من شأنه أن يؤلف بين قلوب متنافرة، وأفكار متضادة. وفي مجادلة أهل الكتاب بالعدل والإنصاف عند مجادلتهم زيادة في كسبهم إلى الدين الحنيف، وإدخالهم في الإسلام، وبه تقوية المجتمع المسلم، وزيادة أبنائه وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

المبحث الثاني: مجادلة أهل الكتاب:

وفيه خمسة مطالب:

- **المطلب الأول:** مفهوم مجادلة أهل الكتاب وشروطها.
- **المطلب الثاني:** نماذج من مجادلة النبي ﷺ لأهل الكتاب.
- **المطلب الثالث:** الثناء على أنبيائهم ومحاولة استمالة قلوبهم.
- **المطلب الرابع:** البدء في المجادلة بنقاط الاتفاق وتحرير محل النزاع.
- **المطلب الخامس:** التنويع في أساليب المجادلة والالتزام بآدابها.

المبحث الثاني: مجادلة أهل الكتاب.

المطلب الأول: مفهوم مجادلة أهل الكتاب وشروطها.

لما كان جدال أهل الكتاب مشروعًا، وأمرًا ضروريًّا، وحاجة مُلحَّة، كان لا بد من الكلام حول مفهوم وأسس وشروط هذه المجادلة.

أولًا: مفهوم المجادلة:

المجادلة لغة: مفاعلة من الجَدَلِ، «وهو شِدَّةُ الخصُومَة»[1]، «وجَادَلتُ الرَّجلَ مجادلةً وجِدَالًا إذا خاصَمتُه»[2]، ويعني أيضًا: «مقابلةُ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ»[3]، وهو المراد في هذا السياق.

ومن هنا يتبين أن المجادلة: نوع من أنواع التخاطب، ومراجعة الكلام القائم على مواجهة الحجَّة بالحجة؛ بُغية الغلبة حال الاختصام[4].

والفرق بينها وبين المخاصمة والمناظرة – وإن كنَّ نظائر –: أن المجادلة تعني المخاصمة فيما وقع فيه خلاف بين اثنين، والمخاصمة منازعة ومخالفة بين اثنين على وجه الغلظة، أما المناظرة فهي ما يقع بين النظيرين من كلام[5].

المجادلة اصطلاحًا: يختلف تعريف المجادلة – أو الجَدَل – في الاصطلاح باختلاف الفنون، فله تعريفه عند الفقهاء، وعند المناطقة وأهل الكلام وغيرهم، أما في مجالنا فيمكن تعريف الجدل بأنه: «عِلْمٌ يُتعرفُ به كيفية تقرير الحجج الشرعية»[6].

---

(١) مختار الصحاح: الرازي: (ص: ٥٥)، باب: الجيم، مادة: (ج د ل).

(٢) جمهرة اللغة: ابن دريد: (١/ ٤٤٨)، باب: الجيم والدال وما يليهما من الحروف في الثلاثي الصحيح، مادة: (ج د ل).

(٣) لسان العرب: ابن منظور: (١١/ ١٠٥)، باب: اللام، فصل: الجيم، مادة: (جدل).

(٤) انظر: مجادلة أهل الكتاب في القرآن والسنة: د/ نور الدين عادل: (ص: ٣٥)، وأصل الكتاب رسالة دكتوراة.

(٥) انظر: معجم الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري: (ص: ٤٨٨)، حرف الميم، الفرق بين المخاصمة والمجادلة والمناظرة.

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي التهانوي: (١/ ٥٥٣).

وقد أجمل ابن خلدون[1] رحمه الله تعريفه بأنه: «معرفةٌ بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصّل بها إلى حفظ رأي وهدمه، سواء كان ذلك الرّأي من الفقه أو غيره»[2].

والجدَل نوعان: الأول المحمود: وهو ما كان لإظهار حق، وإزهاق باطل، وهذا النوع «ربما يُنتفَعُ به في تشحيذِ الأذْهانِ، وتصْقِيلِ الخواطرِ، وتمرين الطبائع»[3]. وهو دأب الأنبياء عليهم السلام، فقد كان ديدنهم ردع القوم عما هم عليه من باطل، ودعوتهم لاتِّباع الحق بإيراد الدليل والحجة، فقد حكى الله عز وجل عن مجادلة نوح عليه السلام لقومه بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة هود: ٣٢][4]، وبه أمر الله حبيبه ﷺ فقال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

والثاني المذموم، وهو ما كان لإظهار باطل، أو لإشهار غَلَبة، وهو الذي «يُضيع الأوقات، ولا يحصل منه طائل، وكثيراً ما لا يخلو عن التحاسد والتنافس المذمومين في الشرع»[5]. وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [سورة غافر: ٥]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [سورة الحج: ٣]، وقول النبي المجتبى ﷺ: ((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ

(١) عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون الحضرمي الأشهيلي، من ولد وائل بن حجر. الفيلسوف، المؤرخ، البحاثة. أصله من إشبيلية، ولد سنة: (٧٣٢هـ) بتونس ونشأ بها، كان فصيحًا، عزوفًا عن الضيم، طامحًا للمراتب العالية. طلب العلم، وحفظ القرآن، وقرأه بالقراءات السبع إفرادًا وجمعًا، وأخذ الحديث والفقه والعربية والنحو، وحفظ العديد من الشعر، وأشهر كتبه: (تاريخ ابن خلدون). ترك تونس، وهاجر إلى القاهرة، وتعرَّف على الملك الظاهر بوقوق، حتى ولاة قضاء القضاة بمصر. وتوفي فيها سنة: (٨٠٨ هـ). انظر: المنهل الصافي: يوسف بن تغري: (٧/ ٢٠٥- ٢٠٩)، والأعلام: الزركلي: (٣/ ٣٣٠).

(٢) تاريخ ابن خلدون: (١/ ٥٧٩).

(٣) أبجد العلوم: محمد صديق خان: (ص: ٣٥٦).

(٤) انظر: معجم الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري: (ص: ١٥٨)، حرف الجيم، الفرق بين الجدال والحجاج.

(٥) أبجد العلوم: محمد صديق خان: (ص: ٣٥٦).

هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٥٨]))[1].

ثانيًا: شروط المجادلة:

وهي شروط من شقين، شروط متعلقة بالمجَادِل من أهل الإسلام، وشروط متعلقة بالمجَادَل من أهل الكتاب. وهذه الشروط بعضها أشارت لها سورة آل عمران، وبعضها تطرقت لها آيات في سور أخرى؛ لذلك سأحاول سرد هذه الشروط عمومًا؛ لأهمتها في هذا الباب.

١- شروط المجَادِل من أهل الإسلام[2]:

ليس كل فرد من المسلمين قادر على مجادلة أهل الكتاب ومحاورتهم وإقناعهم، بل لا بد من توفر بعض الشروط التي يجب أن يستصحبها كل مُجادِل لهم، والتي من أهمها:

-**العلم**: ويُقصد به العلم الشرعي المتضمن لعلوم الكتاب والسنة، وهو ضروري لمن يتصدى لمناظرة أهل الكتاب ومجادلتهم، فيجب الإحاطة بمسائل المجادلة من جميع جوانبها؛ لأنه لا يصح الاجتهاد فيهذا المضمار في غير المواطن السائغ فيها، وقد ذم الله من يُجادل بغير علْمٍ فقال تعالى منكرًا على أهل الكتاب مجادلتهم بغير علم فقال جلت حكمته: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [سورة آل عمران: ٦٥، ٦٦].

ويجب الاطلاع على شبههم المثارة غالبًا؛ ليسهل الرد عليها، وإلا ستنقلب المجادلة إلى صورة سلبية، فبعد أن كان يراد منها جلاء الحق وإظهاره للناس، إذا بالباطل يلبس لباسه، ويظهر على أنه

---

(١) سنن الترمذي، برقم: (٣٢٥٣)، باب: ومن سورة الزخرف: (٥/ ٣٧٨)، وقال: «حسن صحيح». وسنن ابن ماجه، برقم: (٤٨)، كتاب: الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: اجتناب البدع والجدل: (١/ ٣٣)، كلاهما من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وصححه الحاكم في المستدرك، برقم: (٣٦٧٤)، كتاب: التفسير، باب: تفسير سورة الزخرف: (٢ / ٤٨٦)، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (٥٦٣٣)، حرف الميم: (٢/ ٩٨٤).

(٢) بعض هذه الشروط مستفادة من مقال بعنوان: «أسس الحوار والجدال مع أهل الكتاب». على موقع الجماعة: https://www.aljamaa.net/ar/

هو، وإذا بالشبهة تتغلغل في القلوب؛ بسبب الجهل بالرد، والعجز عن إزالة الشبهة بشكل كامل، فيضر من حيث أراد النفع، وهذا ما يحدث كثيراً في المناظرات الحوارية.

وقد قال ابن القيم رحمه الله: «ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليُوَلِّ ذلك إلى أهله، وليُخَلِّ بين المطِيِّ وحادِيهَا، والقَوسِ وبَارِيهَا»(١).

– **الإحاطة بما عليه أهل الكتاب والتوسع في معرفة دينهم ومعتقداتهم**: وهذا بالإضافة إلى الإلمام بالعلوم الشرعية، فلا بد من الإحاطة بكتب أهل الكتاب، ومعرفة معتقداتهم، والاطلاع على شبههم التي يوجهونها؛ ليكون الرد عليها من كتبهم، وليروا أن بضاعتهم قد ردت إليهم؛ وذلك أشد إقناعًا وتأثيرًا، وأنفع في دحر الحجة وإبطال الباطل، فإن القوم حين يسمعون الرد عليهم من كتبهم يُلقَمون الحجر، ويعرفون الحق ولا يجدون عنه محيصًا.

– **المجادلة بالتي هي أحسن**: وقد أرشد المولى جل في علاه إلى هذا بقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ...﴾ [سورة النحل: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]؛ وذلك لأن المجادِل إنما يريد وجه الله، والخير لمن يجادلهم، مبتعداً عن حظوظ النفس ودوافع الانتقام، وحب الظهور والاستعلاء، فلا يقرب التأنيب ولا القسوة في خطاب الخصم، بل اللين والأسلوب الحسن، إلا من كان منهم ظالمًا، ومن لا ينفع معهم الأسلوب الحسن والجدال بالتي هي أحسن.

- **الجهر بالحق والإلزام بالحجة**: فقوة الحجة تحتاج قوة في طرحها، ولا يعني ذلك رفع الصوت والصخب، بل العكس من ذلك تمامًا، فإن الصخب ورفع الصوت لا يأتي إلا بالنتيجة العكسية السلبية، لكن الجهر بالحق يكون بسرد الحجة متسلسلة الأفكار، واضحة المعالم، سهلة التناول والفهم. وبذلك جادل النبي صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب قائلًا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا

(١) زاد المعاد: (٣/ ٥٥٩).

وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، وبه أمره الله بقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩٤].

هذا الأمر لا يعني التنصل عن أدب الجدال والحوار، والبعد عن أخلاق وآداب الإسلام، بل يجب على المجادِل أن يكون داعية بأخلاقه قبل ألفاظه، فهو إنما يجاهد بتلك الكلمات لأجل الله، والدعوة إلى دينه عز وجل.

ولا بد من الإلزام بالحجة حال الجهر بالحق، فإما أن يستجيبوا لما بان لهم من الحق، وإما أن يظهروا عجزهم وبطلان ما هم عليه، وذلك مثل قول المولى تبارك اسمه: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة القصص: ٤٩، ٥٠].

٢- شروط المجَادَل من أهل الكتاب:

لا توجد شروط خاصة بالمجادَل من أهل الكتاب إلا أن يكون مُسالمًا طالبًا معرفة الدين الحق، غير ظالم متعنت، فإن الظالمين منهم لا مُجادلة معهم كما قال المولى سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالظالم لم يُؤمر بجداله بالتي هي أحسن، فمن كان ظالمًا مستحقًا للقتال، غير طالب للعلم والدين فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يُجادَلُون بالتي هي أحسن، بخلاف من طلب العلم والدين، و لم يَظهر منه ظلم، سواء كان قصدُه الاسترشاد، أو كان يَظنُّ أنه على حق يَقصد نصرَ ما يظنه حقًا، ومن كان قصدُه العناد يَعْلَم أنه على باطل ويُجادِل عليه فهذا لم يُؤمر بمجادلته بالتي هي أحسن، لكن قد نُجادِلُه بطرق أخرى نُبيِّن فيها عناده وظلمه وجهله؛ جزاءً له بموجب عمله»[1]. وما سوى هذه الطائفة فإنهم يُجَادلون ويُحاوَرُون، ويُبيَّن لهم الحق من الباطل.

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: (١/ ٢١٩).

المطلب الثاني: نماذج من مجادلة النبي ﷺ لأهل الكتاب.

ليست المجادلة خاصة بأهل الكتاب، أو بالكفار عمومًا، بل قد تكون بين المؤمنين، ودليل ذلك ما وقع بين رسول الله ﷺ والمرأة التي جاءته تجادل في زوجها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: ١].

وهي أيضًا بين المسلمين والكفار، وشواهدها في القرآن كثيرة جدًّا، كمجادلة إبراهيم عليه السلام لمن ادعى الألوهية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٨]، ومجادلته لأبيه في الأصنام التي يعبدها: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم:٤٢- ٤٨]، وكذلك فعل موسى والأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وهي كثيرة في القرآن العزيز والتراث الإسلامي، سواء على مستوى المناظرات الفقهية والعقدية، أو المجادلة بين أهل الإسلام وباقي طوائف الكفر. والنبي ﷺ قد جادل أهل الكتاب في مواطن عدة، فجادل اليهود في دينهم، وجادل النصارى في اعتقادهم، وجادلهم جميعًا في آن واحد، وجادل غيرهم من بقية الطوائف، وسنكتفي بذكر صورة واحدة لكل من ذُكر.

أولًا: مجادلته ﷺ لليهود: فقد حكى القرآن المجيد كثيرًا من تعسفات اليهود وأسئلتهم للنبي ﷺ؛ يريدون بذلك مجادلته، واختبار رسالته، كسؤالهم عن أصحاب الكهف والرَّقِيم، وعن ذي القرنين وعن الروح، وأن يُنزِّل عليهم كتابًا من السماء، ودعواهم بأن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا، فتولى القرآن الرد على كل تلك الأسئلة، ودحض حجتهم، وبيّن زيف ادعاءاتهم.

أما مجادلة النبي ﷺ لهم فذلك حين جاءوا إليه يتحاكمون في رجل منهم زنى بامرأة، فقال لهم رسول الله ﷺ: ((مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟ قالوا: نُسَوِّدُ وجوهَهُما، ونُحَمِّلهما، ونُخالفُ

بين وجوههما، ويُطَافُ بهما، قال: فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فجاءوا بها فقرؤوها، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سَلَام[1] – وهو مع رسول الله ﷺ –: مُرْهُ فليرفع يده، فرفعها فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِمَا، قال عبد الله بن عمر[2]: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يَقِيْهَا من الحجارة بنفسه))[3]. فأثبت رسول الله ﷺ الحق من كتابهم، وحاكمهم إلى دينهم، وأقام عليهم الحجة بألسنتهم، وذلك هو دأبه، وهو الحق المبين.

ثانيًا: مجادلته ﷺ للنصارى: فبعد أن بعث رسول الله ﷺ كتابًا إلى نصارى نجران يدعوهم فيه إلى الإسلام، أرسلوا إليه وفدًا مكونًا من ستين رجلًا فيهم السيّد والعاقب، وهما من كبار رهبانهم، فلما كلموه عرض عليهما الإسلام، فقالا: إنا قد أسلمنَا قَبلك، فقال: ((كَذَبْتُمَا؛ إِنَّهُ يَمْنَعُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ: عِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ، وَأَكْلُكُمَا الْخِنْزِيرَ، وَقَوْلُكُمَا لِلَّهِ وَلَدٌ))[4].

ثم نَقَلُوا ميدان الجدال إلى مسألة هي من صلب دينهم، فقالوا: ((مَا شَأْنُكَ تَذْكُرُ صَاحِبَنَا؟ قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالُوا: عِيسَى، تَزْعُمُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: أَجَلْ إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالُوا لَهُ: فَهَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ عِيسَى أَوْ أُنْبِئْتَ بِهِ؟ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِأَمْرِ رَبِّنَا السَّمِيعِ الْعَلِيمِ فَقَالَ: قُلْ لَهُمْ

---

(١) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، ثم الأنصاري. كان حليفًا لهم. كان من بني قينقاع، وهو من ولد يوسف عليه السلام، وكان اسمه في الجاهلية الحصين، فسماه رسول الله ﷺ حين أسلم عبد الله. وكان إسلامه حين قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا. وروي أنه ممن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وأوصى بالتماس العلم منه. توفي سنة: (٤٣هـ). انظر: أسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٢٦٥)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٤/ ١٠٢، ١٠٤).

(٢) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي. أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم. وهاجر قبله، لم يشهد المشاهد الأولى لصغر سنة، وكانت أول مشاهده الخندق. وكان من أهل الورع والعلم، كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ. شديد التحري والاحتياط والتوقي في فتواه. بلغ ستًا وثمانين سنة، وأفتى في الإسلام ستين سنة، ونشر نافع مولاه عنه علمًا جمًا. توفي بمكة سنة: (٧٣هـ).انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٣/ ٩٥٠– ٩٥٣)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٣٣٦).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٦٨٤١)، كتاب: الحدود، باب: أحكام أهل الذمة: (٨/ ١٧٢)، وصحيح مسلم، برقم: (١٦٩٩) واللفظ له، كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة بالزنا: (٣/ ١٣٢٦)، كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) تاريخ المدينة لابن شبة، باب: وفد نجران: (٢/ ٥٨٣) من حديث الليث بن سعد، والشريعة للآجري من طريق آخر برقم: (١٦٩٠)، كتاب: جامع فضائل آل البيت رضي الله عنهم: (٥/ ٢٢٠٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

إِذَا أَتَوْكَ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ٥٩، ٦٠]))[(١)].

وفي مضمار إثبات الحجة، وتفنيد الشبهة جادلهم رسول الله الكريم ﷺ في زعمهم ألوهية عيسى عليه السلام متسائلًا: «ألستم تعلمون أن الله حيٌّ لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ويموت؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويُشْبِهُ أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيِّمٌ على كل شيء يَكْلؤُهُ[(٢)] ويحفظه ويرزقه، فهل يملك عيسى شيئًا من ذلك؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئًا من ذلك إلا ما عَلِمَ؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صوَّرَ عيسى في الرحم كيف شاء، فهل تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يُحدِثُ الحدث، وتعلمون أن عيسى حَمَلتهُ امرأة كحَمْلِ المرأة ووضعته كما تضع المرأة، ثم كان يَطعم الطعام ويَشرب الشراب، ويُحدِثُ الحدث؟ قالوا: بلى، فقال ﷺ: فَكَيْفَ يَكُونُ كَمَا زَعَمْتُمْ؟، فعرفوا، ثم أبوا إلا جحودًا، ثم قالوا: يا محمد ألست تزعم أنه كلمة الله ورُوحٌ منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا إذًا، فأنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ [سورة آل عمران: ٧] الآية»[(٣)].

فلم تنفع معهم الحُجة، ولم تؤثر فيهم المجادلة، بل طلبوا المباهلة في شأن عيسى عليه السلام وقالوا: ((هَلْ لَكَ أَنْ نُلَاعِنَكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ قَالَ: وَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا شِئْتُمْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَمَعَ وَلَدَهُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: لَا تُلَاعِنُوا هَذَا الرَّجُلَ؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ لَاعَنْتُمُوهُ

(١) تفسير ابن أبي حاتم، برقم: (٣٦٠٦)، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]: (٢/ ٦٦٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأصل قصة وفد نجران مذكورة في صحيح البخاري، برقم: (٤٣٨٠)، كتاب: المغازي، باب: قصة وفد نجران: (٥/ ١٧٢).

(٢) قال ابن الفارس: «(كَلَأَ) الكاف واللام والحرف المعتل أو الهمزة أصل صحيح، يدل على مراقبةٍ ونَظَرٍ ... فأما النظر والمراقبة فالكلاءة، وهي الحفظ، تقول: كلأه الله، أي حفظه. قال الله عز وعلا: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، أي: يحفظكم منه، بمعنى لا يحميكم أحد منه». مقاييس اللغة: (٥/ ١٣١، ١٣٢)، كتاب: الكاف، باب: الكاف واللام وما يثلثهما، مادة: (كَلَأَ).

(٣) انظر: أسباب النزول: الواحدي: (ص: ٩٧، ٩٨)، والتفسير الكبير: الرازي: (٧/ ١٢٨).

لَيُخْسَفَنَّ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ. فَجَاءُوا فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَكَ سُفَهَاؤُنَا، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تُعْفِيَنَا، قَالَ: قَدْ أَعْفَيْتُكُمْ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظَلَّ نَجْرَانَ))[1].

وهذه من أكبر نماذج مجادلة النبي ﷺ للنصارى؛ حيث تنوع فيها أسلوب الجدل بين الموعظة الحسنة والدعوة بالحسنى والترغيب، وبين المباهلة بعد إثبات الحق والترهيب.

ثالثًا: مجادلته ﷺ لليهود والنصارى مجتمعين: وقد فعل ذلك حين اجتمعت أحبار اليهود في المدينة مع النصارى من أهل نجران عنده ﷺ بعد أن دعاهم إلى الإسلام، فتجادلوا في المسجد أمام رسول الله ﷺ، وكلٌّ يَكْفُر بما عند الآخر، ويقولون: لستم على شيء، وكلٌّ يدعي أن إبراهيم عليه السلام منتسب إليهم، ثم وصل بهم الحال إلى أن قالوا: ((يا محمد أتريد منا أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رسول الله ﷺ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أَوْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ! مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي))[2]، فأنزل الله جل شأنه قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ٧٩، ٨٠][3].

رابعًا: مجادلته ﷺ لغيرهم من الطوائف: وذلك في خبر عدي بن حاتم رضي الله عنه[4]، فقد كان كارهًا خروج النبي ﷺ وظهوره في الناس أشد الكراهة، فخرج باتجاه الروم فارًّا من مقابلته، فلما ضاقت عليه الأرض بما رحبت قال: لَولا أَتَيْتُ هذا الرَّجُلَ، فإن كان كَاذِبًا لم يَضُرَّنِي، وإن كان صَادِقًا عَلِمْتُ، قال: فلما قدمتُ قال النَّاس: عَدِيٌّ بن حاتم، عَدِيٌّ بن حاتم. قال: فدَخَلتُ على رسول الله

---

(١) الحاكم: المستدرك: (٤١٥٧)، كتاب: تواريخ المتقدمين من الأنبياء، باب: ذكر نبي الله وروحه: (٢/ ٦٤٩)، من حديث جابر رضي الله عنه. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه»، ووافقه عليه الذهبي.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري، برقم: (٧٢٩٦)، تفسير سورة آل عمران، تفسير قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩]: (٦/ ٥٣٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: جامع البيان: الطبري: (٦/ ٥٣٩)، وتفسير ابن أبي حاتم: ابن أبي حاتم: (٢/ ٦٩٣).

(٤) أبو طريف عدي بن حاتم الطائي، وأبوه مضرب المثل بالجود. قدم على النبي ﷺ في شعبان سنة: (١٠هـ)، ثم قدم على أبي بكر بصدقات قومه في حين الردة، ومنعهم من الردة بثبوته على الإسلام وحسن رأيه، وكان سيدًا شريفًا في قومه، خطيبًا حاضر الجواب. سكن الكوفة، وشهد مع علي وقعة الجمل، وفقئت عينه يومئذ، ثم شهد صفين والنهروان. ومات سنة: (٦٧هـ). وقيل: غير ذلك. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (١٠٥٨/٣، ١٠٥٩)، وأسد الغابة: ابن الأثر: (٤/ ٧).

ﷺ فقال لي: ((يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، ثَلَاثًا، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي عَلَى دِينٍ، قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ، فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ: نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ[1]، وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ، قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا، فَتَوَاضَعْتُ لَهَا، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ، تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ[2]؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ[3] مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ[4]، قَالَ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ، فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا))[5].

تلك صفحات مشرقة من مجادلته ﷺ لأهل الكتاب وغيرهم، تتجلى فيها قوة الحجة، وجمال الأسلوب، وإيصال الحق، وإحاطة بما عليه المخالف من دين ومعتقد: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

---

(١) هم فرقة عرّفهم أهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين، وقد شملت جماعة من الحائرين في أمر دينهم؛ ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء. وقد حسبهم العرب نصارى، فأدخلوهم فيهم في أثناء كلامهم. انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د/ جواد علي: (١٢/ ٤٣).

(٢) هي أرض معروفة في العراق، وسبب تسميتها أن تبّعًا سار في غزوة فلمّا أتى موضع الحيرة، خلّف هناك مالك بن فهم على أثقاله، وتخلّف معه اثنا عشر ألفًا، فتحيّروا في هذا الموضع، فسمّى الموضع الحيرة. فهو أوّل ملوك الحيرة وأبوهم؛ والحيرة من أطيب البلاد، وأرقّها هواء، وأخفّها ماء، وأحسنها تربة، وأصفاها جوّا. وهي باردة في الشتاء، مفرطة الحرّ في الصيف. انظر: المسالك والممالك: عبد الله البكري: (١/ ٣٥٨)، ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: أبو عبيد الأندلسي: (٢/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٣) مشتق من الظَّعْن، وهو السير والسفر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠]. قال القاسم بن سلام: «الظَّعِينَة كلّ جمل يُركب ويُعْتَمل عليه، وهذا هو الأصل، وإنّما سميت المرأة ظَعِينَة لأنها تركبه، فيقال: ذهبت الظعينة، وأقْبَلت الظعينة وهي راكبة، وكان إقبالها وإدبارها به، فسميت به». غريب الحديث: (٤/ ٤٣٧)، مادة: (ظعن).

(٤) كسرى بن هرمز، عظيم الفرس في العراق وحواليها. وكسرى: لقب لكل من ملك الفرس. قال ابن قتيبة: كسرى أنوشروان بن قباز بن فيروز، وهو الذي ملّكَ المنذر على العرب، وهو الذي قصده سيف بن ذي يزن يستنصره على الحبشة. وكان مُلْكه سبعًا وأربعين سنة وستة أشهر. وقد دعا عليه رسول الله ﷺ بتمزيق ملكه كما مزق الكتاب الذي أرسل به إليه. انظر: تهذيب الأسماء واللغات: النووي: (٢/٦٦، ٦٧).

(٥) مسند أحمد، برقم: (١٨٢٦٠)، حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه: (٣٠/ ١٩٦، ١٩٧)، وقال الأرنؤوط وجماعته: «بعضه صحيح، وهذا إسناد حسن». وهو في صحيح البخاري بغير هذا اللفظ.

المطلب الثالث: الثناء على أنبيائهم ومحاولة استمالة قلوبهم.

لم يذكر القرآن المجيد خديجة بنت خويلد[1] ﵂ صاحبة الحب الأول في قلب النبي ﷺ وأُولى زوجاته، وأم أبنائه، ولا عائشة الصِّدِّيقة ﵂ أحب نسائه إلى قلبه، وأقربهن إلى جَنَانه، ولم تُسطِّر أحرفه اسم فاطمة[2] ﵂ ريحانته وابنته وأم سبطيه وحبيبيه، ولم تتعرض آياته لذكر آبائه وأجداده، ولا للحديث عن أبنائه وبناته، بيد أننا نقرأ في طياته اسم مريم وحكاية أمها، واسم امرأة فرعون وقصة زوجها.

وإننا لنجد الكتاب العزيز هذا الثناء بارزًا في سورة آل عمران وهو كالآتي:

١- الثناء على عمران وأسرته: وقد أطنبت هذه السورة في الحديث عن عمران وآله ابتداءً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣٣، ٣٤]، ونرى تخصيصًا لمريم وأمَّها وابنها؛ لأنهم محل النزاع، ومربط فرس الجدال، فاصطفى الله مريم على العالمين، وبشرها بولد جعله آية للناس ورحمة، ووجيهًا في الدنيا والآخرة، وجعله في الآخرة من المقربين، وباركه أينما حلّت به الركائب. وإن هذا الإطناب في الثناء الجميل، والحديث المتسلسل البديع، ما هو إلا تقدمة لما سيأتي، وتمهيد لما سيعقُب من تحرير محل النزاع، وتقرير نقطة الجدال، وهي إعلان بشرية عيسى ﵇ وعبوديته للخالق جل في علاه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ٥٩، ٦٠]. وتلك منهجية مطَّردة

---

(١) أم هند خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية الأسدية، وكانت تدعى في الجاهلية الطاهرة، وهي أول زوجة لرسول الله ﷺ، تزوجها قبل نزول الوحي عليه، وهو ابن خمس وعشرين سنة. ولها من العمر أربعين سنة، ولدت له كل أبنائه عدا إبراهيم. ولم ينكح غيرها حتى توفيت. وهي أول من آمنت به، بشرها ربها ببيت في الجنة من قصب، وهي من سيدات نساء أهل الجنة. مكثت عند رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين، بعد أبي طالب بثلاثة أيام، ولها يومئذ خمس وستون سنة. انظر: معرفة الصحابة: أبو نعيم الأصفهاني: (٦/ ٣٢٠٠- ٣٢٠٨)، والاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/ ١٨١٧- ١٨٢٥).

(٢) فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ، سيدة نساء العالمين. ولدت سنة: (٤١) من مولد النبي ﷺ، وهي من أصغر بناته. تزوجها علي ﵁ بعد وقعة أُحد. وكان سنها خمس عشرة سنة، وكانت سن علي إحدى وعشرين سنة. فولدت له الحسن، والحسين، وأم كلثوم، وزينب، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت. وهي من سيدات نساء أهل الجنة. ما كان أحد أشبه كلامًا وحديثًا برسول الله منها، وكان ﷺ يحبها ويقوم إليها يقبلها كلما دخلت عليه. توفيت بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر، وقيل غير ذلك، وكانت أول أهله لحاقًا به سنة: (١١هـ). انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/ ١٨٩٣- ١٨٩٩)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٧/ ٢١٦).

في القرآن الكريم في جانب التعامل والخطاب وإصدار الأحكام، يُثني على من يستحق الثناء، ويمدح من جاء بصفات المدح.

والأعجب أن القرآن الحكيم الذي أُنزل على محمد ﷺ لم يَذكر اسمه – محمدًا – إلا في أربعة مواطن، بينما ورد ذكر اسم أنبياء بني إسرائيل كثيرًا، وعلى رأسهم موسى وعيسى عليهما السلام، فموسى عليه السلام – مثلًا – جاء ذكره في مائة وستة وثلاثين مرة في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم(١)، حتى قيل: «كادَ القرآن أن يَكُون كله موسى»(٢)؛ وما ذاك إلا للتناسب الكبير بين الأمة المحمدية والأمة الإسرائيلية، والتَّشابه في أحكام الكتابين العامة، وقد أشار لهذا ابن القيم رحمه الله بقوله: «ولهذا يَذكر سبحانه وتعالى قصة موسى ويُعيدها ويُبديها، ويُسلِّي رسوله ﷺ، ويقول رسول الله عندما يناله من أذى الناس: ((قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ))(٣)؛ وقال النبي ﷺ: ((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ...)) الحديث(٤). فتأمَّل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين والشريعتين! أعني الشريعة الصحيحة التي لم تُبدَّل»(٥).

٢- الثناء على كتب أهل الكتاب والأمر بالإيمان بها: فقد أمر الله نبيه الأكرم ﷺ بالإيمان بالأنبياء السابقين له، وإعلان الإيمان بكتبهم المنَزَّلة إليهم، وجعل ذلك من الجدال الحسن، فقال أعز القائلين: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٨٤]، وبذات الأمر أُمر المؤمنون: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ

---

(١) انظر موقع ملتقى أهل التفسير: https://vb.tafsir.net/tafsir/#.Wo٣٥٤٩jTIU٤ZsK٨

(٢) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي: (١/ ١٩٩).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٦١٠٠)، كتاب: الأدب، باب: الصبر على الأذى: (٨/ ٢٦)، وصحيح مسلم، برقم: (١٠٦٢)، كتاب: الكسوف، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام: (٢/ ٧٣٩)، كلاهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) سنن الترمذي، برقم: (٢٦٤١)، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة: (٥/ ٢٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وقال: «هذا حديث مفسَّر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه». وقال المناوي: «في سنده عبد الرحمن بن زياد الأفريقي قال الذهبي فيه: ضعفوه». كشف المناهج والتناقيح، برقم: (١٣٤)، كتاب: الإيمان، باب: الاعتصام بالكتاب والسنة: (١/ ١٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، برقم: (٢٦٤١)، باب: ما جاء في افتراق الأمم: (٣/ ٥٣، ٥٤).

(٥) جلاء الأفهام: (ص: ١٩٩، ٢٠٠) بتصرف.

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٣٦]. بل إنه عاتب أهل الكتاب على نَقْمِهم على هذه الأمة إيمانهم بما أنزله الله إليهم وما أنزله إلى مَن قبلهم فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٩].

وكذلك الحال مع كتبهم المنزلة من السماء، فقد توالى ذكرها في الكتاب الحكيم ثناءً، وتُليت آياته بها استشهادًا، وفي سورة آل عمران استشهد الله بالتوراة على من حرَّموا على أنفسهم بعض الأطعمة؛ ادِّعاء بأن يعقوب عليه السلام - إسرائيل - حرَّمها على نفسه، فقال علا شأنه: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٣]. وكذلك فعل النبي ﷺ - كما في الحديث الآنف الذكر[1] - حين جاء إليه اليهود يختصمون في شأن الرجل والمرأة اللذين زنيا، فدعا بالتوراة استشهادًا بما فيها من حُكم على حالتهما؛ إذ كان الحُكم موافقًا لما جاءت به شريعته النيرة ﷺ.

وفي السنة النبوية الكريمة ما يدل على عدم التعرض لذكر أنبيائهم بما يُثير حفيظتهم، أو يُشعر بتفضيل أحد عليهم، أو يُرى منه تنقص لأنبياء الله ورسله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سلعة له أُعطي بها شيئًا كرهه، فقال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، قال: فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه، قال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله بين أظهرنا؟ قال فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ((يا أبا القاسم! إن لي ذمة وعهدًا، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله حتى عُرِفَ الغضب في وجهه، ثم قال: لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ، فَلاَ

(١) انظر: (ص: ١٤٩) من هذا البحث.

أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي. ولا أقول: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام))[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: ((لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى))[2].

هكذا هو الثناء على المخاطب بما هو له أهل، وهذه ثمرته. وإن تسليط الضوء على مكامن الخير في الإنسان، والإشادة بما هو عليه من حق، مبدأ رائع في جذب القلوب واستمالتها، وسَوْقٌ للنفوس لتقبّل الحق والانصياع له، لا سيما لمن نصَّب نفسه داعية للناس إلى الهداية، أو مُناظرًا لأهل الكتاب لإخراجهم من الضلالة، فإن في النفس نوازع لِحُبِّ الثناء على ما تُحب، وسُكونًا إلى مدح ما تهوى، وقبولًا لخطاب من يحترم ما تؤمن به، شريطة ألا يدخل ذلك الثناء في محظورات الكذب والتصنع والمداهنة.

أثر الثناء على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن عبارة ثناء واحدة، وكلمة تحفيز مفعمة بالعطف والحنان والتشجيع ربما فتحت قلبًا محصَّنًا ضد التأثر والاقتناع، وربما غيرت شخصية إنسان لم تصل إلى شغاف قلبه سوى تلك العبارات، وربما قَلَبتْ حياة إنسان عادي إلى إنسان ذي رقم معتدٍّ به، فأغلب الناس أقرب للعاطفة منهم إلى العقل.

وأفضل موطن يستعمل فيه الفرد هذا المفتاح السحري هو موطن الدعوة إلى الله عز وجل، فيفتح به قلوبًا أُغلقت عن سماع الحق، ويَقرعُ به أسماعًا اعتادت على الكلمة الجارحة، والنَّقد اللاذع، فبكلمة ناعمة يمكنه تغيير حياة من يدعوهم من شقاء إلى نعيم، وبحروف تحمل الثناء الصادق يستطيع قلْبَ ظلمات الكفر في القلوب إلى نور الإسلام، والشواهد على ذلك كثيرة في التاريخ، فكم من

---

(١) صحيح البخاري، برقم: (٣٤١٤، ٣٤١٥)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩]: (٤ / ١٥٩)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٣٧٣)، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام: (٤/ ١٨٤٣).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٣٤١٣)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩]: (٤ / ١٥٩)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٣٧٧)، كتاب: الفضائل، باب: في ذكر يونس عليه السلام: (٤/ ١٨٤٦).

عظيم ساقه للنجاح تشجيعٌ عابرٌ، وكم من مُحْبطٍ مهزوم أرْدَتهُ في دركات الخيبة كلمة إحباط غير مقصودة، أو سخرية جاهل أو حاسد متعمّدة؟.

ويتجلى هذا الأثر في مجادلة النبي ﷺ لوفد نصارى نجران، والذين سردت الآيات بعضًا من مجادلتهم، وكيف كان تأثير الأسلوب النبوي عليهم، وكيف أثنى على عيسى عليه السلام بما وصفه به ربه.

الأثر على المجتمع:

إن الإشادة والثناء على ما يحققه أبناء المجتمع – وإن كان يسيرًا – يساعد في شحذ الهمم، وشد السواعد للبناء والرقيِّ، ومعالجة السلبيات واستدراكها. وبشكر أولى الخطوات، والاعتراف بأولى درجات النجاح تثبيت للأقدام في الاستمرار على ذلك الطريق، وتحفيز للعمل والإنجاز، فيصير مجتمعًا مثاليًا، بعكس المجتمع المحبَط الذي لا يسمع سوى التأنيب والتثريب، ولا يُقابل بغير التجريح والعقاب، فلن يزيده ذلك إلا وهنًا.

وإن للثناء قوة غريبة، وسحر عجيب في نفوس البشر، فأكثر من ترى من البشر ليسوا عقلانيين بقدر ما هم عاطفيين، ينقادون لهوى النفس، ويتفاعل عندهم الكبر والغرور عند الحديث مع المخالف الْمُنَاظِر، وأفضل ما يكسر ذلك الغرور، ويخفف حدَّة الكبر عبارة ثناء سَلسَة؛ وكلمة إشادة طيبة؛ لترى بعدها نار الغرور قد خبت، وعمود الكبر قد انحنى.

المطلب الرابع: البدء في المجادلة بنقاط الاتفاق وتحرير محل النزاع.

بين كل مُتجادِلٍ وآخر قضايا مشتركة، ونقاط اتفاق يُسلِّم بها الجميع، وأرضية مشتركة يطأ عليها الطرفان، وإن من دلائل النجاح في الحوار والجدل أن يُبدأ فيه من هذه الأرضية المشتركة التي يتفق عليها الطرفان؛ فتكون مرجعًا لهم كلما شذَّ بهم الحديث، ونقطة يقفون عندها كلما نَدَّ بهم الحوار، فتلك هي لبِنَة البداية، وقاعدة البناء، وعتَبَة الباب.

التطبيق النبوي لهذا المبدأ التربوي: وبهذا الأصل جادَل النبي ﷺ أهل الكتاب، وعلى أساسه أمره ربه بجدالهم فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، فحرَّرَ بهذا النداء موطن النزاع، وأسَّسَ الجدال على نقاط مشتركة، فناداهم أن هلمّوا إلى كلمة اتَّفَقَ عليها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، ولم يخالفها إلا المستكبرون المعاندون، وهي كلمة ليست مختصة بديننا، بل هي مشتركة بيننا وبينكم، ودعوة بُنِيَ عليها ديننا ودينكم، فأي إنصاف بعد هذا الكلام؟ وأي عدل يوازي هذا العدل؟ «إنها لدعوة منصِفَة من غير شك، دعوة لا يُريد بها النبي ﷺ أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين، كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد، لا يعلو بعضهم على بعض، ولا يتعَبَّدُ بعضهم بعضًا، دعوة لا يأباها إلا متعنِّتٌ مفْسِدٌ، لا يُريد أن يفيء إلى الحق القويم»[1].

فإن استجابوا لذلك النداء، وتم الالتقاء حول النقاط المشتركة فقد قامت المجادلة على وجهها المراد، وإن لم يستجيبوا فقد حقت عليهم الضلالة، وقامت عليهم الحجة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]، فإن كان صدَّكم عن الاعتراف بهذه النقاط أي صَادٍّ فاشهدوا بأنا بها مسلمون، ولمخالفتها مُجَافُون. ومن المسَلَّمات في الجدال السليم أن يكون العلم شعاره، والوضوح دثاره، فلا معنى لجدال لا يُعلم موضوعه، ولا لحوار يُجهل كُنْهُهُ لدى الطرفين، فقد عابَ الله على أهل الكتاب مجادلتهم عن إبراهيم عليه السلام بغير علم، فتجاذبوا نسبته إليهم، فقالت اليهود: إن إبراهيم كان يهوديًا، وقالت النصارى: بل كان نصرانيًا، فجاء القول الفصْل ببيان موطن

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٤٠٦).

خطئهم أن نسبوه لديانتين جاءتا من بعده[1]؛ مما يدل على فساد دعواهم، وهو نتيجة لكل من جادل بغير علم فإن مآله إلى مجانبة الصواب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٥]، فلو كانوا يعقلون لما ادعوا ذلك، ولو كانوا يعلمون لما وقعوا في الخطأ المبين.

وأجَلُّ خطأ وقعوا فيه أنهم دخلوا مضمار الجدال غير متسلحين بالعلم، أو متأهبين بالحجة: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٦]. أما الحق الذي لا مرية فيه، فهو ما قرره القرآن الكريم بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [سورة آل عمران: ٦٧، ٦٨].

أهمية تحديد نقاط الاتفاق: وإن الاتفاق على النقاط المشتركة يُساعد على تحرير محل النزاع، والذي يُقرِّب من الوصول إلى المسألة التي يدور حولها الجدل بأقصر طريق، متحاشيًا بُنيَّات الطريق التي تقف عائقًا أمام التوصل السريع لِفَضِّ الجدال، وترجيح كفَّة الحق، وإلزام الخصم بالحجة الواضحة. قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]: «وَعَطْفُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ...﴾ إلى آخر الآية تعليم لمقدمة المجادلة بالتي هي أحسن، وهذا مما يُسمى تحرير محل النزاع، وتقريب شُقَّةِ الخلاف؛ وذلك تأصيل طرق الإلزام في المناظرة، وهو أن يُقال: قد اتفقنا على كذا وكذا فلنحْتَجَّ على ما عدا ذلك، فإنَّ ما أمروا بقوله هنا مما اتفق عليه الفريقان فينبغي أن يكون هو السبيل إلى الوفاق، وليس هو بداخلٍ في حيز المجادلة؛ لأن المجادلة تقع في موضع الاختلاف؛ ولأن ما أمروا بقوله هنا هو إخبار عما يعتقده المسلمون»[2].

(١) انظر: جامع البيان: الطبري: (٦/ ٤٩٠).

(٢) التحرير والتنوير: (٢١/ ٧).

أما التخبط في تناول نقاط الجدال، والتشتت في أودية الحوار، فإنه يُصرِّم حبال التلاقي، ويُوسّع هُوَّةَ الخلاف، ويُبْعِدُ عن التدرج في تناول القضايا حسب أهميتها، فمن الضياع أن يظل المتجادلان يتجاذبان أطراف الجدال لوقت طويل ثم يتبين أنهما لا زالا بعيدين عن المسألة الرئيسة فيه، ومن العبث أن يكون الجدل حول قضايا متفرقة الأودية، متعددة الشعاب، دون ترتيب للأولويات، أو بدء بالمهمات، أو يكون الجدل حول افتراضات لا تنتسب للواقع، ولا تَمُتُّ له بِصِلة، وإن من أدبيات المناظرة: «أن يُناظر في واقعة مهمة، أو في مسألة قريبة من الوقوع»[1].

وقد قال الإمام الشاطبي[2] رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ما يجب على الخصمين في هذا الشأن: «إما أن يتفقا على أصل يرجعان إليه أم لا، فإن لم يتفقا على شيء لم يقع بمناظرتهما فائدة بحال»[3]. فكان لزامًا على المجادِل بعد ذلك أن يُحدد القضية التي يدور حولها الحديث، فإن أغلب المناظرات والمجادلات تتحول إلى جدل عقيم، ليس لها نقطة إليها تأرز، ولا غاية إليها تنتهي.

التطبيق القرآني في تحديد نقاط الاتفاق: وإن من النقاط المشتركة في مجادلة أهل الكتاب: الإيمان بالرسل جميعًا دون التفريق بين أحد منهم، والتصديق بما في رسالاتهم الصحيحة قبل أن تطالها أيدي العابثين هو من أعظم النقاط المشتركة التي يمكن الارتكاز عليها في المجادلة، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٨٤]. فالبناء على هذا الأصل في المجادلة عين الحكمة، وضبط لكل محاور المجادلة، وتشخيص لنقاط الخلاف في الجدال، وطريق لمعالجتها بالتدرج والتوالي.

---

(١) العقد التليد في اختصار الدر النضيد: عبد الباسط العلموي: (ص: ٢٢٥).

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي. حافظ ثقة، محدث، مفسر، أصولي. من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية. له العديد من المؤلفات، ومن أشهرها: الموافقات في أصول الفقه. أثنى عليه علماء المغرب. توفي سنة: (٧٩٠ هـ). انظر: الأعلام: الزركلي: (١/ ٧٥)، ومعجم المفسرين: عادل نويهض: (١/ ٢٣).

(٣) الموافقات: (٥/ ٤١٥).

ومن أهم ما يمكن أن يُسهِّل على المجادِل الوصول إلى نتائج وثمار طيبة: أن يجتهد في جعل الخصم يوافق على بعض نقاط الفروع؛ لتكون طريقًا يعبر بها إلى الأصول التي يتم حولها الحديث، وفي المقابل لا يناقش عن فرعٍ خصْمُهُ مؤمن بأصله؛ فإن ذلك من نفل الجدل. وهذا كله من الإعداد النفسي، فكلما استحوذ المجادِل المسلم على عدد كبير من كلمة: (نعم) من الخصم، وحال بينه وبين الوصول إلى كلمة (لا) فقد تخلص من عقبة كؤود في طريق الوصول إلى هدفه، فإن كلمة (لا) يصحبها غرور نفس، وكبر يمنع صاحبها من الرجوع عنها إلا بشِقِّ النَّفْسِ، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «واعلم أن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء تجده من هذا الضرب، وهو: أن يكون كل واحد من المختلفين مصيبًا فيما يثبته أو في بعضه، مخطئًا في نفي ما عليه الآخر، ... فإن أكثر الجهل إنما يقع في النفي الذي هو الجحود والتكذيب، لا في الإثبات؛ لأن إحاطة الإنسان بما يثبته أيسر من إحاطته بما ينفيه»(١).

أثر البدء في المجادلة بنقاط الاتفاق وتحرير محل النزاع على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن معرفة الفرد المجادل بالنقاط المشتركة بينه وبين من يجادلهم دليل رجاحة عقله، وطول يده في المناظرة والمجادلة، وفيها فائدة عائدة عليه، فقد اختصر الطريق في الوصول لمبتغاه، ووفر على نفسه الوقت والجهد في إلزام الخصم الحجة، وقلب طاولة المجادلة إليه.

وإن تحرير محل النزاع ليس مختصًا بمسائل المجادلة والمناظرة فقط، ولا مرتبطًا بمسائل العلم الشرعي فحسب؛ بل يمكن الاستفادة منه في كل الشؤون الدنيوية والدينية، فهو مفيد في حل نزاعات المنزل والأسرة والمجتمع، وهو دواء لاستئصال كل خلاف بين الأصدقاء والأقرباء، ويمكن استعماله في كل نزاع يطرأ في الحياة.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: (١/ ١٤٥).

الأثر على المجتمع:

المجتمع ليس في غنى عن تحديد نقاط التوافق والاشتراك بينه وبين غيره من المجتمعات التي يتفق معها أو يختلف، وهو بحاجة لتحرير محل كل النزاعات التي تعصف به، فلا سبيل إلى الخلاص من المشاكل التي تعجّ بدنيا أبنائه إلا بذلك؛ لتقلَّ فيه الخصومات، وتُحلُّ في أفيائه النزاعات، فيبقى المجتمع إلى المثالية أقرب، وإلى الصفاء والنقاء أدنى.

كما أن هذا المبدأ ينتفع به أبناء المجتمع فيما بينهم، فالفصائل الإسلامية متعددة، والاختلافات بينها حاصلة، وفي البدء بالنقاط المشتركة وتحرير محل النزاع العلاج لهذا الخلاف، فإن أغلب الخلافات بين الجماعات الإسلامية إنما هو من قبيل خلاف التنوع لا خلاف التضاد، فبين كل جماعة وأخرى العديد من النقاط المشتركة التي يمكن الوصول من خلالها لحل كل نزاع يطرأ، أو مشكلة تحدث.

المطلب الخامس: التنويع في أساليب المجادلة والالتزام بآدابها.

أولًا: التنويع في أساليب المجادلة:

إن من يتتبع آي القرآن الكريم يجد أن الجدل فيها يسلك مع الخصوم مسالك مختلفة، ويجادلهم بأساليب متنوعة؛ حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية، فتارة يكون اللين فيه جليًّا، وتارة يكون الحزم في ألفاظه واضحًا، وتارة يكون الإلزام والإفحام في سياقه سائدًا، «وقد يسلك مع الخصم مسلك المجاراة والإمهال والتدرُّج؛ ليستدرجه إلى التسليم أو الإلزام بطريق المنطق الصحيح، وبذلك تسكن النفس في الخصم، وتلين عريكته، ويستقبل الحجة والبرهان في جو من الهدوء والارتياح، وهذا المنهج يتضح من تعليم الله لرسوله ﷺ بأن يقول للكفار المجادلين: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سورة سبأ: ٢٤]، مع اعتقاد الرسول ﷺ أنه على الحق والهدى، وأن الكفار على الضلال المبين، وإنما كان التعميم والتنويع في الحكم لاستمالتهم لسماع الحق وقبوله، ومن ذلك مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه في الكواكب»[1].

وقد تنوع أسلوب المجادلة في سورة آل عمران مع أهل الكتاب، ابتداءً باللين والبيان؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [سورة آل عمران:٢٠]، ثم الانتقال إلى أسلوب مختلف عن الأول، فمن لم ينفع معه اللين والبيان، فليكن الأسلوب الناجع معه الشدة والحجة؛ وتتمثل هذه الشدة بالدعوة إلى التباهل والتلاعن، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران:٦١]، وحين كان هذا الأسلوب هو المناسب مع أهل الكتاب، وخضعوا للحق، جاء أسلوب بيان الحقيقة بعتاب يحمل أسلوبًا هو أخف من سابقه، وذلك عبر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم: د/ زاهر الألمعي: (ص: ٦).

لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [سورة آل عمران:٦٥-٦٦].

وهكذا يبدو أسلوب الجدل القرآني متناسقًا، يخاطب الخصوم «بما يتناسب مع أحوالهم العلمية والاعتقادية، فكثيرًا ما يكون جدل القرآن مع المشركين جدل هداية ودلالة، وقد يشتمل على تخطئة بعض مزاعمهم، بينما يكون جدل القرآن مع أهل الكتاب جدل تخطئة وإلزام؛ لأنهم على علم، أما جدل القرآن مع المنافقين فتبدو عليه سمات الشدة والقسوة، مصحوبًا بالتهديد والوعيد»(١).

ولما كان الإنسان مجادِلًا بطبعه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [سورة الكهف: ٥٤]، وكان الخلاف بين العالمين سنة إلهية: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾ هود: ١١٨، ١١٩]، فقد أرشد الله عباده المؤمنين لسلاح يُثبتون به الحق الذي يتمتعون به، وهذّب الله هذه الطبيعة البشرية عند عباده المؤمنين، وأخذ بيدهم إلى ما يكون به جدالهم صالحًا، وأرشدهم إلى ركن المحاجة الصادقة مع أهل الكتاب وغيرهم، فقال جل ثناؤه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]، وقال أيضًا: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]. فإذا ما عَرَضَ لأحدهم جدَلٌ استعان على تفنيده بالحكمة، واستند في إنهائه إلى الأدلة والبراهين، وما كان من أسلوب ليس بينه وبين الحكمة نسب ابتعد عنه وجفاه، وكل قول ليس حسنًا هجره وقلاه.

قال الطاهر بن عاشور ﷺ: «ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به فهم متأهلون لقبول الحجة، غير مظنون بهم المكابرة؛ ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ؛ حذرًا من تنفيرهم، بخلاف المشركين فقد ظهر من تصلبهم وصلفهم وجلافتهم ما أيأس من إقناعهم

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم: د/ زاهر الألمعي: (ص: ٦).

بالحجة النظرية، وعُيِّن أن يُعاملوا بالغلظة، وأن يبالغ في تهجين دينهم وتفظيع طريقتهم؛ لأن ذلك أقرب نجوعًا لهم»[1]، وقال الإمام الماوردي[2] رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [سورة النحل: ١٢٥]: «فيه أربعة أوجه: أحدها: يعني بالعفو. الثاني: بأن توقظ القلوب ولا تُسَفِّه العقول. الثالث: بأن تُرشد الخَلَف ولا تذم السَّلَف. الرابع: على قدر ما يحتملون»[3].

فالمجادلة بالحسنى هي الدستور الوثيق، والأصل الأصيل، الذي تُبنى عليه كل طريقة لجدال سليم. وبذلك نرى القرآن يسلك مع أهل الكتاب في سورة آل عمران أساليب متنوعة، فيجادلهم بالحجة والبرهان في جو يسوده الهدوء واللين، يُثبت فيه ألوهية الله أولًا، ثم ينفي مزاعم ألوهية عيسى عليه السلام ثانيًا، فيذكر مولده، ويذكر حياته، ويذكر إقراره بعبوديته لله عز وجل، ويختم بذكر رفعه إليه، بما لا يترك مجالًا لقالة قائل بألوهيته، ثم ينتقل لأسلوب خارج عن ذلك الجو الهادئ، لأقوام لم ينفع معهم الأسلوب السابق، فيدعوهم للملاعنة والمباهلة؛ لأن من لم تنفع معه الحجة الواضحة، فلا تفسير لإنكاره سوى التكبر والاغترار، والصد والاستكبار، فمثل هؤلاء الذين يقابلون الحسنى بالضد، واللين بالتعدي والظلم والصدّ، فينتقل الأسلوب معهم إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦] فيعامَلون بالغلظة والتخويف وما يتناسب معهم كالمباهلة والملاعنة. وفي هذا رد على من يزعم أن القرآن يحيد عن الجدل العقلي والنقاش الفكري، ويستدلون بأسلوب المباهلة، وما علموا أنه ما دعاهم إليها إلا حين ظهر منهم العناد، وطغى على قلوبهم الكبر، وحين طلبوها من النبي ﷺ، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦١]، فقد جاء العلم اليقين من الله، وبينه رسول الله ﷺ، وأقام الحجة على بطلان

(١) التحرير والتنوير: (٢١/ ٦).

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، كان عالمًا أديبًا متفننًا شافعيًا، مقدمًا عند السلطان، يرسله في التوسطات بينه وبين من يناوئه. وله تصانيف كثيرة متنوعة، وأشهرها: النكت والعيون، والأحكام السلطانية، والحاوي في الفقه، وأدب الدنيا والدين. اتهم بالاعتزال وقيل: إنه ليس معتزليًا، ولكنه يقول بالقدر. وهي البلية التي غلبت على أهل البصرة. توفي سنة: (٤٥٠هـ). انظر: معجم الأدباء: ياقوت الحموي: (٥/١٩٥٥- ١٩٥٧)، وطبقات المفسرين: السيوطي: (ص: ٨٣، ٨٤).

(٣) النكت والعيون: (٣/ ٢٢٠).

دعواهم بما يشتمل على شبهتهم وزيادة، فأبوا وطلبوا المباهلة، فجاء القرآن بهذا الأسلوب الناجع النافع لمن لم تنفع معه الحجة، و لم يؤثر فيه البرهان؛ لذلك انصاعوا بعدها للحق، ونكصوا عن المباهلة، ورضوا بالجزية.

ثانيًا: الالتزام بآداب المجادلة:

أما ما يتعلق بآداب المجادلة فهي كثيرة، وأثرها عظيم جليل، وليست هذه الآداب مستنبطة من سورة آل عمران، وإنما يستلزمها المقام، فمن رام إيصال الحق، وإظهاره على الباطل فليسلك له كل أسلوب يربط القلوب ببعضها، ويقرِّب وجهات النظر. وهذه الآداب يمكن تقسيمها إلى قسمين، قسم يتعلق بالمجادِلِ، وقسم يتعلق بالمجادَلة نفسها، وسنأتي على ذكر أهم ما في القسمين دون الإتيان عليها كلها لكثرتها، وإن كان قد مر شيء منها في شروط المجادِلِ؛ لكن الحديث هنا سيتناولها من زاوية أخرى.

القسم الأول: ما يتعلق بالمجادِلِ[1]:

١- حسن القصد، وصلاح النية: وهو الإخلاص لله رب العالمين، والتجرد من حظوظ النفس وأهوائها، وهو أمر لا بد أن يضعه المجادِلِ نصب عينيه؛ لأن عدم تحقيقه معناه فساد المجادلة، وخروجها عن نطاق الفائدة. قال الخطيب البغدادي[2] رحمه الله: «ويخلص النية في جداله، بأن يبتغي به وجه الله تعالى، ... وليكن قصده في نظره إيضاح الحق، وتثبيته دون المغالبة للخصم»[3]، وقال الغزالي

(١) بعض هذه الآداب مستفادة من: أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة: د/ حمد العثمان: (ص: ٥١٩ -٥٧٠).

(٢) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. ولد سنة: (٣٩٢هـ). وهو أحد الأئمة المصنفين الحفاظ المكثرين، وكان فقيهًا حنبليًا ثم شافعيًا، ثم غلب عليه الحديث والتاريخ. عارفًا بالأدب، يقول الشعر الحسن. قيل: كان يذهب إلى مذهب الأشعري. وله ستة وخمسون مصنفًا، وقيل: قاربت المائة، أشهرها: تاريخ بغداد، لو لم يكن له سواه لكفاه. توفي سنة: (٤٦٣هـ) ببغداد. انظر: معجم الأدباء: ياقوت الحموي: (١/٣٨٤- ٣٩٦)، ووفيات الأعيان: ابن خلكان: (١/٩٢، ٩٣).

(٣) الفقيه والمتفقه: (٢/٤٨، ٤٩).

رحمه الله: «أن يكون في طلب الحق كَنَاشِدِ ضالَّةٍ؛ لا يفرق بين أن تظهر الضَّالة على يده أو على يد من يُعاونه»(١).

٢- التسلح بالعلم وتحري الحجة والبرهان: ويُقصد به العلم بكل ما يتعلق بموضوع الجدال وشِعَابِهِ وأوديته، فلا يُعقل أن يدخل عاقل حلبة المجادلة بدون سلاح العلم والحجة ثم ينتظر الظفر! فإن «العاقل لا يقاتل من غير عُدَّة، ولا يُخاصم بغير حُجَّة، ولا يُصارعُ بغير قوة»(٢).

وقد ذم المولى الكريم من يجادل بغير علم، وشنَّعَ على أهل الكتاب المحاجة بغير علم فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ [سورة آل عمران: ٦٦]، وقال أيضًا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [سورة الحج: ٣].

ومن العلم الضروري التسلح به: أن يعلم بشبهات الخصم، ويستظهر مذهبه، ويتسلح بمعرفة النقض والدحض؛ لكي لا يتعثر في الرد عليه، فمن: «لم يطَّلع على دلائل خصمه لم يقدر على قطعه وقصْمه»(٣).

ويتجلى هذا الأمر في استيعاب النبي ﷺ لما عليه الناس الذين يوجه دعاته إليهم، ومعرفته لأحوالهم، فإنه حين أراد أن يبعث داعيًا إلى الهدى في أرض اليمن(٤) اختار قائد العلماء وأكبرهم؛ ليكون أقوى حُجَّة، وزوَّده بما عليه القوم من دين؛ ليكون حاضر الجواب لكل ما يصادفه من

(١) إحياء علوم الدين: (١/ ٤٤).

(٢) روضة العقلاء: محمد بن حبان التميمي: (ص: ٢٥).

(٣) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار: يحيى العمراني: (١/ ٩٠).

(٤) سميت اليمن؛ لأنها أيمن الأرض، وقيل: أيمن الكعبة. وحدودها بين عمان إلى نجران، ويحدها بحر العرب إلى عدن إلى الشّحر حتى يجتاز عمان، وقيل: حدّ اليمن من صنعاء وما قاربها، إلى حضرموت والشحر وعمان إلى عدن أبين وما يلي ذلك من التهائم والنجود. وتسمى الخضراء؛ لكثرة أشجارها وزروعها. وأهلها أرق الناس قلوبًا، وأعرفهم للحق، ومنهم الصحابة والتابعون. وتعدُّ منبع حضارات العرب القديمة، ومنه خرجت الهجرات العربية التي عمرت ما يعرف اليوم بالعالم العربي. انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: (٥/ ٤٤٧ - ٤٤٩)، وآثار البلاد وأخبار العباد: زكريا القزويني: (ص: ٦٥- ٧٢)، ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: عاتق الحربي: (ص: ٣٣٩، ٣٤٠).

اعتراضاتهم. فاختار أعلم الناس من أصحابه معاذ بن جبل ﷺ[1]، وقال له مبينًا حال الناس هناك: ((إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ))[2].

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله نبراسًا في هذا المجال، فهو القائل: «أنا أعلم كل بدعة حدثت في الإسلام، وأول من ابتدعها، وما كان سبب ابتداعها»[3]، والقائل أيضًا: «كل من خالفني في شيء مما كتبته فأنا أعلم بمذهبه منه»[4].

٣- التحلي بأخلاق الإسلام النبيلة: بمعنى أن يُتَرْجِمَ قول الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] واقعًا في مجادلته، فينتقي أطايب الكلام، ويتجنب أرذله، ولا يعنف ولا يسخر، ولا يستهزئ ولا يشمت، ولا يسب ولا يلعن؛ إذ سوء الخلق يجلب السوء، والتهكم على الخصم يستدعي الرد بصاع مثله أو أشد: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ...﴾ [سورة الأنعام: ١٠٨]، فالرفق بريد القلوب، واللين سفيرها، خاصة وأن الهدف من المجادلة إظهار الحق والدعوة إليه، لا إظهار الشماتة والعداوة، وزرع البغضاء والكراهية.

٤- التزين بلباس التواضع والحذر من العجب والزهو: فإن التواضع سبب لقبول الخصم للحق، وإذعانه للصواب، والعجب والزهو سبب للازدراء، فإن «استطعت أن تضع نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام، ومقال، ورأي، وفعل فافعل، فإنَّ رفْعَ الناس إياك فوق المنزلة التي تحطُّ إليها نفسك، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذي تباعَدْتَ منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعظِّم، وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزيِّن، هو الجمال»[5]. وإن الكتابي إذا رأى المسلم متواضعًا

---

(١) أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي. شهد العقبة وبدرًا والمشاهد كلها. وكان شابًا سمحًا لا يُسأل شيئًا إلا أعطاه. وهو أعلم الناس بالحلال والحرام، ويبعث يوم القيامة أمام العلماء. بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن معلمًا، فمكث بها حتى وفاة رسول الله ﷺ. ثم سكن الشام ووليها بأمر من عمر ﷺ. وتوفي في ناحية الأردن في طاعون عمواس سنة: (١٨هـ). انظر: معجم الصحابة: البغوي: (٥/ ٢٦٥- ٢٧٨)، والاستيعاب: ابن عبد البر: (٣/ ١٤٠٢، ١٤٠٧).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (١٤٩٦)، كتاب: الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء: (٢/ ١٢٩)، وصحيح مسلم، برقم: (١٩)، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله ورسوله: (١/ ٥٠)، كلاهما من حديث ابن عباس ﷺ.

(٣) مجموع الفتاوى: (٣/ ١٨٤).

(٤) المصدر السابق: (٣/ ١٦٣).

(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير: ابن المقفع: (ص:١١٨، ١١٩).

في نفسه، مؤدبًا في كلامه، طيبًا في خطابه، فأقل ما يمكن أن يبديه هو الاحترام، وفتح القلب لسماع الكلمات، والحظوة عنده أو عند مَنْ وراءَه، وهذا مكسب عظيم يجر للمكسب الأعظم، وهو هدايتهم إلى الدين القويم.

قلتُ للمُعْجَبِ لَمَّا قالَ مثْلي لا يُرَاجَعْ
يا قَرِيبَ العَهْدِ بالْمَخْرَجِ لِمَ لا تتواضَعْ[1]

٥- حسن الاستماع وعدم الاستئثار بالكلام: فقد قيل: «تعلَّم حُسن الاستماع كما تتعلَّم حُسن الكلام، ومِنْ حُسن الاستماع إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم، والوعي لما يقول»[2]. وفي حسن الاستماع للمتحدث حتى ينتهي دون مقاطعة سريان عجيب يصل إلى الأفئدة، ويؤلف بينها، ويجعل صاحبه أكثر هدوءًا، وأبعد عن التوتر والقلق. وإن كلمة صائبة أفضل من مائة خاطئة، والتأني في الرد خير من العجلة؛ لأن العجلة موكل بها الخطأ في الغالب، فلا تردنَّ على الخصم حتى يتم الفهم، وتستجمع العقل.

ومثله عدم الاستئثار بالكلام، واستراق الوقت من الخصم، دون إعطائه فرصة لإكمال تقرير مسألته؛ بحجة معرفته بما يريد قوله، فذلك ليس من الأدب في شيء، بل هو أوغر للصدور، ولذلك قيل: «إن غلبت على الكلام وقتًا، فلا تُغلبن على السكوت؛ فإنه لعله يكون أشدهما لك زينة، وأجلبهما إليك للمودة، وأبقاهما للمهابة، وأنفاهما للحسد»[3].

٦- الحلم والتبسم وعدم الغضب: فالمجادِل المسلم حليم على الطرف الآخر؛ لأنه يحمل همًا أكبر من مجرد الانتصار عليه، فهو يسعى لهدايته ومن وراءه من أهل ديانته، فيحتمل ما يغضبه، ويحلم على من أساء إليه، ويتخذ كل وسيلة نبيلة لتحقق غرضه.

---

(١) البيتان لمنصور بن إسماعيل الفقيه المصري. انظر: الفقيه والمتفقه: الخطيب البغدادي: (٢/ ٥٩)، والأمالي المطلقة: ابن حجر العسقلاني: (ص: ٩٧).

(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير: ابن المقفع: (ص:١٢٩، ١٣٠).

(٣) المصدر السابق: (ص: ١١٩).

ولا يُهمل المجادِل بشاشة وجهه، وابتسامة شفتيه، وقد روي عن ابن قدامة[1] رحمه الله أنه كان لا يُناظر أحدًا إلا وهو يتبسم، حتى قال بعض الناس: «هذا الشيخ يقتل بتبسمه خصمه»[2]. ولكن يجب أن يكون التبسم في مواطن يتناسب معها، وألا يخرج عن طور الابتسام إلى القهقهة التي تشير إلى السخرية. فقد ناظر أبو زيد الدبوسي[3] رحمه الله مرة أحد الفقهاء، فجعل الرجل كلما ألزمه أبو زيد بحجة ضحك وقهقه، فأنشد أبو زيد:

مَا لِي إِذَا أَلْزَمْتُهُ حُجَّةً ... قَابَلَنِي بِالضَّحِكِ والقَهْقَهَةْ؟!
إِنْ كَانَ ضَحِكُ الْمَرءِ مِنْ فِقْهِهِ ... فَالضَّبُّ فِي الصَّحْرَاءِ مَا أَفْقَهَهْ[4]

وليحترس من الغضب ودواعيه، وليقاومه بالحلم والتجاهل، وذكْرِ العاقبة، وطلب الهداية، قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الغضب غول العقل؛ يغتاله كما تغتاله الخمر؛ ولهذا ((نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقْضِيَ القَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانٌ))[5]، والغضب نوع من الغلق والإغلاق الذي يغلق على صاحبه باب حسن التصور والقصد»[6].

---

(١) أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي. ولد سنة: (٥٤١هـ). وكان إمامًا، حجة، مفتيًا، مصنفًا، متفننًا، متبحرًا من العلوم، كبير القدر، مفسرًا ومحدثًا وفقيهًا وأصوليًا ومفتيًا ولغويًا، وكان مناظرًا بارعًا. له العديد من المصنفات: أشهرها: المغني، والكافي في فقه الإمام أحمد، والمقنع. توفي يوم عيد الفطر بدمشق سنة: (٦٢٠ هـ). انظر: تاريخ الإسلام: الذهبي: (١٣/ ٦٠١)، وفوات الوفيات: محمد بن شاكر صلاح الدين: (٢/ ١٥٩).

(٢) الرد الجميل على المشككين في الإسلام: عبد المجيد حامد صبح: (ص: ٢٩).

(٣) أبو زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدّبوسيّ. ودبوسية بلدة صغيرة بين بخارى وسمرقند. كان من كبار أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، وهو ممن يُضرب به المثل في المناظرة واستخراج الحجج، وهو أول من وضع علم الخلاف وأبرزه إلى الوجود، وله كتاب الأسرار، وتقويم الأدلة وغيرهما من التصانيف والتعاليق. توفي ببخارى سنة: (٤٣٠ هـ). انظر: وفيات الأعيان: ابن خلكان: (٣/ ٤٨)، وتاريخ الإسلام: الذهبي: (٩/ ٤٧٦).

(٤) انظر: أبجد العلوم: محمد صديق خان: (ص: ٣٩٤).

(٥) صحيح البخاري، برقم: (٧١٥٨) بلفظ: «لاَ يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ». كتاب: الأحكام، باب: هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان؟ (٩/ ٦٥)، وصحيح مسلم، برقم: (١٧١٧)، بلفظ: «لَا يَحْكُمْ أَحَدٌ ...»، كتاب: الحدود، باب: كراهة قضاء القاضي وهو غضبان: (٣/ ١٣٤٢)، كلاهما من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٦) إعلام الموقعين: (٢/١١٩، ١٢٠).

٧- **التوازن في نبرات الصوت بين الرفع والخفض**: فإن الصخب وارتفاع الصوت ليس معياراً للانتصار، ولا مقياساً لإظهار الحق، وما عُرف أن حقًا ثبت بسبب صوت صاخب، ولا حجة أقيمت بصراخ ثاقب، بل هو مورث للضغينة، مولد للغيظ والحنق. كما أن انخفاض الصوت كثيرًا جالب للنوم، وباعث للملل، والقصد خير منهما، فتغيير نبرات الصوت حسب ما يقتضيه الخطاب هو الصواب، بل قد يكون رفع الصوت حميداً؛ وذلك إن لمس من الطرف الآخر تجاوزاً وتطاولًا، أو وجد ظلمًا بواحًا، ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [سورة النساء: ١٤٨].

٨- **مقابلة السيئة بالحسنة**: وهو خلق قرآني فريد، فمقابلة الحِدَّة بالرفق، والشدة باللين، والغضب بالابتسامة الهادئة، والكلمة النابية بأخرى طيبة، تقلب العدو صديقًا، وتُبدِّل الاحتقار إلى احترام، والجفاء إلى وفاء، والعدو إلى صديق حميم: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: ٣٤].

٩- **الحذر من التعنيف والتحدي والتعسف في الكلام**: إذ ليس القصد من الجدال إحراج الخصم وتعنيفه، وإن كان الحق هو الغالب، فلا يتعمد المسلم المجادل في تعنيف الآخرين والتشفي بهم؛ فإن كسب القلوب أولى من كسب الجدال. وقد أرشد الله نبيه ﷺ إلى كيفية الرد في مجادلة خصومه، فصرفه عن التعنيف لأهل الباطل إلى الرد الجميل فقال: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الحج: ٦٨]، وفي موطن آخر يعمله الرد بأسلوب بديع: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ: ٢٤]، مع أن حجتهم داحضة، وضلالهم بيِّن، لكنه خلق القرآن الكريم.

١٠- **توخي العدل والإنصاف**: فالإسلام شريعة العدل والإنصاف، وداعية حفظ الحقوق والواجبات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: ٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ...﴾ [سورة النحل: ٩٠]، فلا ينحرف المسلم عن طريق العدل إلى متفرعات الظلم وإن كان الآخر كافراً،

فالعدل يشمل الصديق والعدو، والكافر والمسلم على وتيرة متساوية. «والإنصاف أن تكْتَالَ لِمُنَازِعكَ بالصَّاع الذي تكتَال به لنفسك؛ فإن في كل شيء وفاءً وتطفيفًا»(١).

١١- الاعتراف بالخطأ وقبول الحق: فليس المسلم بالمعاند المتكبر على الحق، وإنما هو المطواع له، الساعي لقبوله، فلا يجحد بعد بيِّنة، ولا يستكبر على حجة، ولا يتعالى على دليل، قال البقاعي رحمه الله: «من العادة الجارية السكون إلى الإنصاف، والرجوع إلى الحق والاعتراف»(٢).

القسم الثاني: ما يتعلق بالمجادلة نفسها:

فالمجادلة بحد ذاتها تكتنفها بعض الآداب التي تجعلها مثمرة ناجحة، ومن أهم هذه الآداب:

١- البدء بالأهم والتدرج في طرح المسائل: وهو من أهم ما في المجادلة، فالتسلسل في تناول القضايا بداية الوصول إلى الإقناع، والعشوائية في طرح المسائل سبب ضياع. وتأمل كيف فعل رسول الله ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، حين تدرج في تشريع الشرائع، وبدأ بالأهم فالأهم، فقال له: ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ))(٣).

٢- اختر من تُجادل بعناية: فلا تجادل جاهلًا، ولا تحاجَّ من ليس بكفء، وليس ذلك تكبرًا؛ وإنما إن كان أعلى منك علمًا ومهابة فسيتلجلج جوابك، ويضطرب جنانك، وتضعف حجتك، ويظهر للناس عجزك. وإن كان أدنى منك علمًا وفهمًا فلن تستطيع الوصول معه إلى نتيجة مُرضية.

٣- اجعل الخصم في حلبة الحكم على نفسه: وذلك بوضع أسئلة لا يستطيع الحياد عن الإجابة عليها، فإن أجاب بـ(نعم) فقد أوقع نفسه، وإن أجاب بـ(لا) فقد أدان نفسه أيضًا، وهذا يجيده من تمرس على المجادلة والمناظرة، واستظهر ما عليه الخصم من تناقض، فيرد عليه بضاعته،

---

(١) عون المعبود: العظيم آبادي: (١/ ١٨٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (١٤/ ٢٨).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (١٤٩٦)، كتاب: الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء: (٢/ ١٢٩)، وصحيح مسلم، برقم: (١٩)، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله ورسوله: (١/ ٥٠)، كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ويسقيه من نفس كأسه، ويجعله يناقض بعضه، وقد استخدم هذا الأسلوب النبي ﷺ في محاورته للشاب الذي جاء يستأذنه في الزنا، فعن أبي أمامَة ﷺ قال: ((إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا. قال: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ. قال: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ. قال: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قال: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قال: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ. قال: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قال: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ. قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ. قال: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. قال: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ))[1].

٤- اهتم باللفظ إلقاءً وتلقيًا: فإذا قلت فَزِنْ كلامك، وعدَّ عليك حروفك، وإذا سمعت مقالة الخصم فتأملها، وتفحصها من كل نواحيها، فالألفاظ حمَّالة أوجه، والباطل قد يختبئ تحت عباءة لفظ منمق، أو يتستر بلباس كلام رقيق، وقد أشار ابن القيّم رحمه الله إلى هذا الأمر بقوله: «وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرُونَ عليه من الألفاظ، ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرُون عليه من الألفاظ، ومن رزقه الله بصيرةً فهو يكشف به حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل، ولا تغتر باللَّفظ»[2].

وفي الأخير: قد تنتهي المجادلة بثمار طيبة، وينتفع بها أحد الطرفين ومن وراءهم، فإن كانت كفتك راجحة، فإياك والغرور، وحذاري والعجب؛ فإنه مَهْلَكة مَفْسَدة.

وقد تنتهي دون ثمرة ظاهرة؛ وذلك لعدم استطاعة أحد الطرفين الوصول لإقناع الآخر، أو أن طرفًا تبين له الحق فآثر عليه الكبر والعناد، وجحد الحق بعد أن استيقنه، ورد الحق بعد أن اعترف به، كما حكى الله عمن هذا حاله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل: ١٤]، فحينها تكون المجادلة غير مفيدة، ولا داع لتكرارها على نفس

(١) مسند أحمد، برقم: (٢٢٢١١)، حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ: (٣٦/ ٥٤٥)، والمعجم الكبير للطبراني، برقم: (٧٦٧٩)، حديث حريز بن عثمان: (٨/ ١٦٢). وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد: (١/ ١٢٩)، وقال الأرنؤوط وآخرون في تحقيق مسند أحمد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح»: (٣٦/ ٥٤٥).

(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٤١).

الصورة، فإن «المحاجة والمجادلة بعد وضوح الشيء وظهوره نوع من العبث، بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس»[1].

أثر التأدب بآداب المجادلة وتنويع أساليبها على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن في التزام آداب المجادلة أثر على الملقي والمتلقِّي، فالملقي يمكِّنه ذلك من الوصول لإقناع الطرف الآخر، وإيصال فكرته كاملة، والمتلقي يستقبل كل ما يُقال بإذعان، ويُبادل الطرف الآخر بالاحترام وإن لم يقبل الفكرة حينها، لكنه بلا شك سيترك ذلك الأدب أثرًا في قلبه. كما أن الالتزام بآداب المجادلة تمثيل لأدب القرآن الكريم والسنة النبوية، فالمسلم داعية بقوله وتصرفاته، فقد يضعف قوله في إيصال الحق ووصله أدبه وخلقه.

وإننا لنلمس هذا في حياتنا كثيرًا، فعند كل مناظرة نجد النفس تميل لصاحب الأدب والسمت، وإن كان التعثر قد يطرأ عليه، أو أن لدى خصمه القدرة على استعمال الألفاظ، والتنويع في استخداماتها، فكيف إذا كان صاحب الأدب في المجادلة يتميز بتنويع الأسلوب، وإفحام الخصم بالحجة والعلم، فإن ذلك أدعى لقبوله ورفض الآخر.

الأثر على المجتمع:

لما كانت المناظرة والمجادلة تحدث تغييرًا كبيرًا في أفكار الناس ومعتقداتهم، كان لزامًا على أهل الحق أن يتسلحوا بالأدب والعلم والأسلوب؛ فإن هذه الركائز هي المؤثرة في المجتمعات، فكم من شخص عليم اللسان استطاع تغيير واقع أمة بكاملها، أو قلْب حقائق ومعتقدات كانت عليها لسنوات طوال؟ وكم من زعيم استطاع أن يذهب ما في صدور شعبه بكلمات؟ مما يبين مدى تأثير المجادلة بالحسنى على المجتمعات وإن تعاظمت كثرة وقوة.

وإن المقصود من المجادلات والمناظرات هي هداية المجتمعات، وإبداء الحقيقة لأهلها، وبالأدب الراقي والأسلوب الحسن يستطيع المجادِل إيصال نور هذه الهداية إلى جمٍّ غفير من المجتمعات، فما انتشر مذهب الإمام ابن حزم رحمه الله إلا نتيجة مناظراته، وقوة أسلوبه وأدبه في الحوار، حتى ظهر مذهبه في ربوع الأندلس، وتجاوزها إلى غيرها من بقاع الأرض.

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة: ابن القيم: (٢/ ٤٨٦).

الفصل الثالث:

المضامين التربوية المتعلقة بالجهاد في سبيل اللّه.

الفصل الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالجهاد في سبيل الله. وأثرها على الفرد والمجتمع.

وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بأحكام الجهاد في سبيل الله.**
- **المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بما حصل في غزوة أحد.**
- **المبحث الثالث: عوامل النصر وأسباب الهزيمة.**

مدخل:

على مرأى الأعين، ومسمع الآذان تتكالب الأمم على أمة القرآن، وتتداعى الأكلة إلى قصعة الإسلام، يأخذ كلٌّ منها بِطَرَفٍ، وينْخَرُ منها في زاوية، يساعدهم في ذلك أبناء – منتسبون للإسلام – تَعْرِفُ في وجوههم المنكر، وفي تصرفاتهم العقوق والإساءة، يرون ما عليه أمتهم من ضعف فيُسارعون في إضعافها، فيزيدون الطين بِلَّة، والمرض عِلَّة.

وظُلمِ ذَوِيْ القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً على المرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ الْمُهَنَّدِ[1]

وفي تعمُّد سافر يسعى الغرب الكافر إلى تشويه شعائر هذا الدين، والتنفير من ثوابت الإسلام، وفي مقدمتها رأس سنامه، وقمَّة هَرَمِه: الجهاد في سبيل الله، يودُّون طمس معالمه، وتغييب آثاره من أذهان الأجيال المسلمة الناشئة، فيُلبسونه عباءة الإفساد والإجرام، ويصبغونه بألوان التُّهم والادعاءات، حتى غدا أمرًا غريبًا كما بدأ الدين غريبًا، فتراه «غريبًا بين أهله أنفسهم، يتصورونه على غير حقيقته – فضلًا عن سلوكهم المنحرف عنه –، ويستغربونه حين يُعرض لهم في صورته الحقيقية كما جاءت في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأخذَتْ تطبيقها الكامل في حياة السلف الصالح رضوان الله عليهم»[2].

وإن من مقاصد سورة آل عمران الكريمة تثبيت دعائم هذا التشريع المهجور في زماننا، وصقل تصرفات أهله من كل شائبة، ووضع الأسس الواضحة في درب القيام به، ومعالجة كل اعوجاج يطرأ على صراط تحقيقه. فجاء الحديث فيها متنوعًا بين الحث والثناء، والتقويم والبناء، والعتاب والمواساة، فكانت آياتها مدرسة تربوية متكاملة بحق.

(١) البيت لأبي عمرو طرفة بن العبد الجاهلي، وهي إحدى أبيات معلقته المشهورة. انظر: ديوان طرفة بن العبد: طرفة بن العبد البكري: (ص: ٢٧).

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح: محمد قطب: (ص: ١٣).

المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بأحكام الجهاد في سبيل الله.

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** الجهاد في سبيل الله.. تعريفه ومشروعيته.
- **المطلب الثاني:** فضل الجهاد في سبيل الله وذكر مراتبه.
- **المطلب الثالث:** أهمية الشورى والاستماع للآراء قبل البدء في القتال.

المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بأحكام الجهاد في سبيل الله.

المطلب الأول: الجهاد في سبيل الله .. تعريفه .. ومشروعيته.

بدأ الدين الإسلامي أُولى أيامه في شعاب مكة المكرمة، وكانت الدعوة إليه عبر الحُجة والموعظة الحسنة، فآمن بهذا الدين ثلة من أهل مكة ومن فيها، واستجاب لتلك الدعوة نفر من قريش، فآزروا رسول الله ﷺ ونصروه، لكنهم دفعوا ثمن هذا الإيمان غاليًا، فنالهم الأذى، ومسهم الضر، وكُتب على بعضهم فراق هذه الدار، كل ذلك وهم صابرون محتسبون، يتحملون ألوان العذاب، ويكابدون أصناف الأذى، لم يدافعوا عن أنفسهم ولم يُؤذن لهم، بل كان الله هو من يُدافع عنهم، حتى قويت شوكتهم، وكثرت جماعتهم، فأَذِنَ لهم – بعد هجرتهم بعامين – بالقتال بعد مراحل من التَّدرُّج في هذا التشريع فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٩]، وقال أيضًا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣][(١)]. وقبل الشروع في الحديث عن مشروعية الجهاد في سبيل الله وفضله نبدأ بتعريف مختصر له.

أولًا: تعريف الجهاد في سبيل الله:

الجهاد لغة: مصدر جاهد يجاهد جهادًا ومجاهدةً، وهو بذل الجُهْدِ، والمبالغة في قتال العدو[(٢)]، ومادة: الجيم والهاء والدال أصلها المشَقَّة، والمبالغة[(٣)].

الجهاد شرعًا: «بَذْلُ الجُهْدِ في قتال الكفار، ويطلق أيضًا على مُجاهَدة النَّفس والشَّيطان والفُسَّاق، فأما مجاهَدةُ النَّفس فعلى تعلُّم أمور الدِّين، ثم على العمل بها، ثم على تعليمها، وأما مُجاهَدةُ

(١) لمعرفة مراحل تشريع الجهاد انظر: إرشاد الساري: القسطلاني: (٥/ ٣١)، وموسوعة الفقه الإسلامي: محمد بن إبراهيم التويجري: (٥/ ٤٣٦- ٤٣٨).

(٢) انظر: طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية: نجم الدين النسفي: (ص: ٧٩)، كتاب: السِّيَر، مادة: (ج هـ د)، والمطلع على ألفاظ المقنع: أبو الفضل البعلي: (ص: ٢٤٧)، كتاب: الجهاد.

(٣) انظر: مقاييس اللغة: ابن الفارس: (١/ ٤٨٦)، كتاب: الجيم، باب: الجيم والهاء وما يثلثهما، مادة: (جهد)، والمطلع على ألفاظ المقنع: أبو الفضل البعلي: (ص: ٢٤٧)، كتاب: الجهاد.

الشيطان فعَلى دفعِ ما يأتي به من الشُّبهات، وما يُزيِّنه مِن الشَّهوات، وأما مجاهدة الكفار فتقع باليد والمال واللسان والقلب، وأما مُجَاهَدَة الفساق فباليد ثم اللسان ثم القلب»[1].

ثانيًا: مشروعية الجهاد في سبيل الله: فالجهاد في سبيل الله تعالى مشروع في الكتاب والسنة والإجماع.

ففي الكتاب: قال الله جل ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١٦]، وقال أيضًا: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠]، ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٢٩]، ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة: ٤١]، وآيات الأمر بالجهاد في سبيل الله كثيرة[2].

وفي السنة: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ))[3]، وقال ﷺ: ((اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ...)) الحديث[4].

---

(١) فتح الباري: ابن حجر: (٦/ ٣).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح: الملا علي القاري: (٦/ ٢٤٥٣).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٢٩٤٦)، كتاب: الجهاد، باب: دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام: (٤ / ٤٨)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٠)، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله: (١ / ٥١).

(٤) صحيح مسلم، برقم: (١٧٣١)، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث: (٣ / ١٣٥٧)، من حديث بريدة ﷺ.

أما الإجماع: فقد أجمع المسلمون على فريضة الجهاد في سبيل الله تعالى وأهميته، قال الملا علي القاري رحمه الله: «ولا شك أن إجماع الأمة أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة لم يُنسخ»(١).

ثالثًا: مراحل تشريع الجهاد: وقد مر تشريع الجهاد في سبيل الله بمراحل متنوعة، ففي العهد المكي كان الجهاد غير مأذون به، بل هو الصبر والجهاد بالحجة والبرهان، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [سورة الفرقان: ٥١، ٥٢]، وهذه الآية مكية، وكان جهاد النَّفس هو المطلوب، وهو المقدم على جهاد العدو في الخارج(٢).

أما في العهد المدني، وبعد استقرار النبي ﷺ وصحابته في المدينة، وتأييد الله له بالأنصار والمهاجرين، فإن العرب واليهود رمتهم عن قوس واحدة، ولا زال الأمر لهم من الله بالصبر والصفح، حتى اشتد عودهم، وقويت شوكتهم، فأذن الله لهم بالقتال دون أن يفرضه عليهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحج: ٣٩]، ثم فَرَضَ عليهم القتال لمن قاتلهم فقط دون من لم يقاتلهم: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠]، ثم جاء الأمر بقتال المشركين كافة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٣٦]، ثم جاء فرض الجهاد عامًا في المشركين وغيرهم: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة: ٤١].

وهكذا كانت مراحل تشريع الجهاد ابتداء بالتحريم، ثم الإذن فيه دون إلزام، ثم الأمر به لمن بدأ المسلمين بالقتال فقط، ثم الأمر به عامًا في المشركين وغيرهم(٣).

---

(١) مرقاة المفاتيح: (٦/ ٢٤٥٣).

(٢) انظر: زاد المعاد: ابن القيم: (٣/ ٥، ٦).

(٣) انظر: المصدر السابق: (٣/ ٦٢ - ٦٤).

أما حكم الجهاد فهو متردد بين الفرض الكفائي والعيني على خلاف فيه، فهو فرض على المسلمين، فإن قام به طائفة منهم يدفعون العدو، ويغزونهم في عُقْرِ دارهم سقط فرضه عن الباقين، وإلا فلا[1]، ويتعين في ثلاثة مواضع:

الأول: إذا التقى الجيشان، وتقابل الصفان، فلا يحق الانصراف، بل يجب الثبات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [سورة الأنفال: ١٥، ١٦].

الثاني: إذا دهم العدو ديار المسلمين، وهجم على بلد من بلدانهم، فإنه يتعين على أهل ذلك البلد الدفاع والقتال، فإن عجزوا تعين على من يليهم من البلدان.

الثالث: إذا استنفر الإمام أهل بلد أو قومًا بعينهم، فيجب النفير معه؛ لقول المولى جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة التوبة: ٣٨]، وقول النبي ﷺ: ((وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا))[2]. فهذا هو حكم الجهاد كما بينه أهل العلم عليهم من الله الرحمة والرضوان[3].

---

(١) انظر: مختصر الخرقي: عمر بن الحسين الخرقي: (ص: ١٣٨)، واللباب في الفقه الشافعي: أبو الحسن الضبي: (ص: ٣٧٢)، والجامع لمسائل المدونة: محمد بن عبد الله الصقلي: (٦/ ٣٤، ٣٥)، والهداية في شرح بداية المبتدي: أبو الحسن الفرغاني: (٢/ ٣٧٨)، وبداية المجتهد: ابن رشد: (٢/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٢٧٨٣)، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير: (٤/ ١٥)، وصحيح مسلم، برقم: (١٣٥٣)، كتاب: الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الجهاد: (٣/ ١٤٨٧)، كلاهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر: المحلى: ابن حزم: (٥/ ٣٤٠)، والمغني: ابن قدامة: (٩/ ١٩٦، ١٩٧)، ومجموع الفتاوى: ابن تيمية: (٢٨/ ٣٥٨، ٣٥٩)، وإرشاد الساري: القسطلاني: (٥/ ٣١، ٣٢).

المطلب الثاني: فضل الجهاد في سبيل الله وذكر مراتبه.

إن فضل الجهاد في سبيل الله عظيم، وأجره كبير، «كيف وحاصلهُ بذل أعزِّ المحبوبات، وإدخال أعظم المشقَّات عليه؟ وهو نَفْسُ الإنسان؛ ابتغاء مرضاة الله، وتقربًا بذلك إليه تعالى، وأشقُّ منه قصْرُ النفس على الطاعات في النشاط، ودفع الكسل على الدوام، ومجانبة أهويتها»(١).

وقد وردت بفضله آيات الكتاب الزاخرة، وأحاديث السنة المتواترة.

ففي الكتاب: قال أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١١١]، ففي الآية عقد بين البائع -المجاهد-، والمشتري -الله جل علاه-، على السلعة - الجنة -، وبالثمن - بذل النفس والمال -، وتوثيق لعقد البيع في أفضل كتُب نزلت من السماء -التوراة والإنجيل والقرآن-.

وإن سلعة غالية كالجنة جديرة بألا يكون ثمنها زهيدًا، فليست هزيلة فيتناولها المفلسون، ولا كاسدة فيبيعها نسيئة المعسرون، بل لا بد أن يكون الثمن هو الأغلى والأعلى، ولا أغلى من النفس، ولا أحب من المال، وهذا ما ارتضاه صاحب السلعة سبحانه. فتأخر عن هذا البيع البطالون، وشمَّر المجاهدون المحبون، وحين علموا أن السلعة ليست كالسلع، وأن من الخسران المبين، والغبن الفاحش أن تُباع بثمن بخس دراهم معدودة، أو أن يكونوا فيها من الزاهدين، أتموا العقد، ودفعوا الثمن، وبقي استلام السلعة، فقيل لهم: إنكم بذلتم أرواحكم وأموالكم، وها نحن نردها عليكم، فالأرواح التي أُزهقت عادت لها الحياة، والأموال المزجاة التي أُنفقت قد تم تعويضها بخير مما طلعت عليه الشمس: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩، ١٧١]، فما قبضنا منكم الثمن لحاجتنا إليه، ولا لغرض زيادة ربحنا منه؛ بل ليكون الجزاء بقدر البذل،

(١) مرقاة المفاتيح: الملا على القاري: (٦/ ٢٤٥٢).

وها قد جمعنا لكم بين الثمن الذي بذلتموه فرددناه عليكم، وبين المثمَّن الذي أمَّلتموه وقد حصلتم عليه[1].

وعن أفضل تجارة، وأعظم مكسب يمكن أن يحصل عليه المؤمن دلَّهم عز شأنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [سورة الصف: ١٠- ١٢].

وإن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال وأزكاها، فلا تساويه كثير من الأعمال، وإن كانت عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج فيه، فعُمَّارُ المسجد الحرام - على شرف مكانته - بالاعتكاف والطواف والعبادة لا يصِلُونَ إلى مقام المجاهدين في سبيل الله، فهم أعظم عند الله درجة، وأحق بشارة بالرحمة والرضوان في الجنات من غيرهم: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [سورة التوبة: ١٩، ٢٠]، فنفى التسوية بين أولئك وهؤلاء، مع أنه قد أثنى على عُمَّار المساجد بقوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٨]، إلا أن أهل الجهاد أعظم درجة منهم عنده تبارك اسمه[2].

وإذا كان القائمون بعمارة المسجد الحرام بالطاعات، الملازمون لأركانه وعتباته بالعبادات لا يساوون المجاهدين في سبيل الله فكيف بالقاعدين المتقاعسين؟ وكيف بمن هو دونهم؟ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾ [سورة النساء: ٩٥، ٩٦].

(١) انظر: زاد المعاد: ابن القيم: (٣/ ٦٥، ٦٦).

(٢) انظر: طريق الهجرتين: ابن القيم: (ص: ٣٥٦).

وإن منزلة الشهادة في سبيل الله هي التالية لمرتبة النبوَّة والصِّدِّيقية، كما أخبر بذلك المولى جل قدره: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [سورة النساء: ٦٩]، وهل بعد هذا الفضل فضل؟!

وقد دعا الله عباده إلى الجهاد في سبيله، فقال مبينًا لكيفيته، وشارحًا لفضله: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [سورة النساء: ٧٤].

أما المتقاعسون عن الجهاد، والمستنكفون عنه، فسوف يستبدلهم الله بمن هم خير وأفضل، يحبهم فيختار منهم شهداء، ويحبونه فيستجيبون لأمره دون خوف ملامة، ولا رجاء لغير ثوابه ورضاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

والآيات في فضل الجهاد في سبيل الله كثيرة، ولكن حسبي من السِّوَار ما أحَاطَ بالْمِعْصَمِ، ومن القلادة ما أحاط بالعنق.

وفي السنة: أحاديث جمة في بيان فضل الجهاد، وتكريم الله لأهله الصابرين الصادقين، فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ((دُلَّني عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ؟ قَالَ: لاَ أَجِدُهُ، قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ؟، قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ فَرَسَ المُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ))[1].

(١) صحيح البخاري، برقم: (٢٧٨٥) واللفظ له، كتاب: الجهاد والسِّير، باب: فضل الجهاد والسِّير: (٤/ ١٥)، وصحيح مسلم، برقم: (١٨٧٨)، كتاب: الإمارة، باب: فضل الشهادة في سبيل الله: (٣/ ١٤٩٨).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قيل: ((يا رسول الله أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ. وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ)).

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ[2]، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))[3]، وعن عبد الله بن أبي أوفى[4] ﷺ، أن النبي ﷺ قال: ((وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ))[5].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَدًا))[6].

---

(١) صحيح البخاري، برقم: (٢٧٨٦)، كتاب: الجهاد والسِّير، باب: أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله: (٤/ ١٥)، وصحيح مسلم، برقم: (١٨٨٨)، كتاب: الإمارة، باب: فضل الجهاد والرباط: (٣/ ١٥٠٣).

(٢) قال ابن الأثير: «الغَدْوَة: المرَّةُ من الغُدُوِّ، وهو سَيْر أول النهار، نقيض الرَّواح». النهاية في غريب الحديث والأثر: (٣/ ٣٤٦)، حرف الغين المعجمة، باب: الغين مع الدال، مادة: (غدا).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٢٧٩٢)، كتاب: الجهاد والسِّير، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله: (٤/ ١٧)، وصحيح مسلم، برقم: (١٨٨٠)، كتاب: الإمارة، باب: فضل الغدوة والروحة في سبيل الله: (٣ / ١٤٩٩).

(٤) أبو معاوية عبد الله بن أبي أوفى علقمة بن خالد الأسلمي. من أصحاب الشجرة، غزا مع النبي ﷺ ست غزوات، وأصابته يوم حنين ضربة في ذراعه. ولم يزل بالمدينة حتى قبض رسول الله ﷺ، ثم تحول إلى الكوفة، واستوطنها حتى توفي بها سنة: (٨٦هـ)، وقيل: (٨٧هـ)، وهو آخر من مات بها من الصحابة. انظر: معرفة الصحابة: أبو نعيم: (٣/ ١٥٩٢- ١٥٩٤)، والاستيعاب: ابن عبد البر: (٣/ ٨٧٠، ٨٧١).

(٥) صحيح البخاري، برقم: (٢٨١٨)، كتاب: الجهاد والسِّير، باب: الجنة تحت ظلال السيوف: (٤/ ٢٢)، وصحيح مسلم، برقم: (١٧٤٢)، كتاب: الجهاد والسِّير، باب: كراهة تمني لقاء العدو: (٣ / ١٣٦٢).

(٦) سنن الترمذي، برقم: (١٦٣٣)، باب: ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله: (٤/ ١٧١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وسنن النسائي، برقم: (٣١٠٧) واللفظ له، كتاب: الجهاد، باب: من عمل في سبيل الله على قدميه: (٦/ ١٢)، وصححه الحاكم في المستدرك، برقم: (٧٦٦٧) ووافقه الذهبي، كتاب: التوبة والإنابة: (٤/ ٢٨٨)، والألباني في صحيح الجامع، برقم: (٧٦١٧)، حرف اللام ألف: (٢/ ١٢٦٢).

ويكفي الجهاد في سبيل الله فضلًا أن رسول الله ﷺ قائده وعنوانه، فقد بلغت غزواته تسع عشرة غزوة[1]، وبعث أكثر من سبعٍ وأربعين سرية[2]. وما تمنى رسول الله ﷺ بعد أن أكرمه الله بالنبوة والاصفاء من المكارم سوى الشهادة في سبيل الله، وألا يتخلف عن غزوة ولا سرية أبدًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَده، لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلمينَ مَا قَعَدْتُ خلَافَ سَرِيَّة تَغْزُو في سَبيلِ الله أَبَدًا، وَلَكنْ لَا أَجدُ سَعَةً فَأَحْملَهُمْ، وَلَا يَجدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَده، لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو في سَبيلِ الله فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ))[3]. وكفى بهذا فضلًا عظيمًا. والأحاديث في فضل الجهاد في سبيل الله أيضًا كالآيات كثيرة.

ولقد عرف المحبون هذا الفضل فسارعوا إليه، فاتخذ الله منهم شهداء، وأسكن في أعالي جنته منهم من شاء، قال الضحاك[4] رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ...﴾ [سورة البقرة: ٢١٦]: «نزلت آية القتال فكرهوها، فلما بين الله عز وجل ثواب أهل القتال، وفضيلة أهل القتال، وما أعدَّ الله لأهل القتال من الحياة والرزق لهم، لم يُؤْثِر أهل اليقين بذلك على الجهاد شيئًا، فأحبوه

(١) هذا العدد هو الثابت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، انظر صحيح البخاري، برقم: (٣٩٤٩)، كتاب: المغازي، باب: غزوة العشيرة: (٥/ ٧١)، وصحيح مسلم، برقم: (١٢٥٤)، كتاب: الجهاد والسير، باب: عدد غزوات النبي ﷺ: (٣/ ١٤٤٧). وقد نقل ابن حجر رحمه الله أقوالًا بلغ بها بعضهم إلى تسع وعشرين غزوة، ونقل أوجه الجمع بين الروايات. انظر: فتح الباري: (٧/ ٢٨١).

(٢) انظر: المغازي: الواقدي: (١/ ٧). وقد زاد بعضهم في عدد السرايا، فوصل بها إلى الستين، وآخرون إلى السبعين، وآخرون إلى المائة. انظر: فتح الباري: ابن حجر: (٧/ ٢٨١).

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٧٢٢٧)، كتاب: التمني، باب: ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة: (٩/ ٨٢)، وصحيح مسلم، برقم: (١٨٧٦) واللفظ له، كتاب: الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله: (٣/ ١٤٩٥).

(٤) أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني البلخي. تابعي جليل، ومفسر مشهور، وهو محدّث نحوي. كان يؤدب الأطفال، وكان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي، وكان يطوف عليهم على حمار. لقي ابن عباس وأبا هريرة وأخذ عن سعيد بن جبير التفسير، وقيل: لم يصح له سماع من الصحابة ولا من ابن عباس رضي الله عنهما. توفي سنة: (١٠٥هـ) وقيل: (١٠٦هـ). انظر: معجم الأدباء: ياقوت الحموي: (٤/١٤٥٢، ١٤٥٣)، ومعجم المفسرين: عادل نويهض: (١/ ٢٣٧).

ورغبوا فيه، حتى أنهم يَسْتَحْمِلُونَ النبي ﷺ، فإذا لم يجد ما يَحْمِلُهُم ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [سورة التوبة: ٩٢]»[١].

وفي ساعة تفكر، ولحظة حديث مع النفس، يقف سيف الله خالد بن الوليد[٢] رضي الله عنه على مشارف عمر طويل انقضت أغلب أيامه على سرج الخيل، وتصرمت سنيُّه على أبواب المدائن وعتبات الحصون، يُقلِّب صفحات عمره فلا يجد فيها غير صليل السيوف، وصهيل الخيول، خالية من مُتَع الحياة وشهواتها، فيُطْلق أمنيته، ويُعلن ما فيه متعته، فيقول رضي الله عنه: "ما من ليلةٍ يُهْدَى إليَّ فيها عرُوسٌ أنا لها مُحِبٌّ، أو أُبشَّرُ فيها بغلامٍ أحبَّ إليَّ من ليلةٍ شديدةِ البرْدِ كثيرةِ الجليدِ في سَرِيَّةٍ أُصَبِّحُ فيها العدُوَّ"[٣]، وقال أيضًا وهو يجود بنفسه على فراش موته: "لقد طلَبتُ القتل مَظَانَّهُ، فلم يُقَدَّرْ لي إلا أن أموت على فِراشي، وما مِن عَمَلٍ شيء أرْجَى عندي بعدَ لا إله إلا الله من ليلة بِتُّهَا وأنا مُتَتَرِّسٌ بفرسي، والسَّماءُ تَهُلُّني، مُنتظِرٌ الصُّبح حتى نُغِيرَ على الكُفَّارِ. ثم قال: إذا أنا متُّ فانظروا سلاحِي وفَرسِي فاجعلوه عُدَّةً في سَبيل الله"[٤]. فلا مجال للملذات الزائلة أمام موعود الله، ولا مكان للأماني الضئيلة أمام سلعة الله الغالية، فقد باع، والله اشترى، ولا يحق له العود عن البيع، ولا التراجع واسترداد الثمن.

(١) الجهاد لابن المبارك، برقم: (٧٣)، (ص: ٦٦).

(٢) أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة القرشيّ المخزوميّ، سيف اللَّه المسلول. أحد أشراف قريش، وإليه أعنّة خيلها في الجاهلية. شهد مع قريش الحروب إلى عمرة الحديبيّة، ثم أسلم بعد خيبر، وقيل: قبلها. شهد غزوة مؤتة وأخذ الراية بعد موت قادتها، وشهد فتح مكّة وأبلى فيها، ثم حنينًا والطائف. قاتل المرتدين فهزمهم، ثم تولى حرب فارس والرّوم فهزمهم وفتح دمشق في عهد الصدِّيق واستخلفه على الشّام، إلى أن عزله عمر رضي الله عنه. توفي سنة: (٢١هـ). انظر: أسد الغابة: ابن الأثير: (٢/ ١٤٠)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٢/ ٢١٥- ٢١٩).

(٣) الجهاد لابن المبارك، برقم: (١٠٧)، (ص: ٩١).

(٤) المصدر السابق، برقم: (٥٣)، (ص: ٥٥).

مراتب الجهاد في سبيل الله:

والجهاد في سبيل الله تعالى على مراتب، لخَّصَها ابن القيم رحمه الله في أربع وهي: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين[1]. فقد جعل جهاد النفس في المرتبة الأولى؛ لأنها الأشق والأصعب على الإنسان، فإن استقامت له نفسه استطاع أن يأطرها على بقية مراتب الجهاد.

أثر الجهاد والاستشهاد في سبيل الله على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إذا أكرم الله العبد بشرف الجهاد في سبيله، وإذا ختم له الحياة بالشهادة في سبيله، فقد تبوأ أعلى الجنان، وحاز على الرضا والحور العين، والنعيم المقيم في الجنة: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٧]، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦٩-١٧١].

والجهاد في سبيل الله تكتنفه الفوائد من كل جانب، وتحفُّه الآثار الإيجابية من كل صوب، فالفرد المجاهد في سبيل الله يسير في طريق العناية والهداية الإلهية، وهو أقرب إلى الصواب في تصرفاته: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩]، قال السعدي[2] رحمه الله: «دلَّ هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن مَنْ أحْسَنَ فيما أُمر به أعانه الله، ويسَّر له أسباب الهداية»[3]، ولذلك كان يقال: إذا اختلف الناس في شيء

(١) انظر: زاد المعاد: (٣/ ٩).

(٢) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السَّعْدي، التميمي. مفسِّر للقرآن، وهو من علماء الحنابلة، من أهل نجد. ولد في عنيزة بالقصيم سنة: (١٣٠٧هـ)، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها. صنف العديد من الكتب التي بلغت نحو (٣٠) كتاباً، أشهرها كتاب التفسير: (تيسير الكريم المنان). توفي بعنيزة سنة: (١٣٧٦ هـ). انظر: الأعلام: الزركلي: (٣/ ٣٤٠)، ومعجم المفسرين: عادل نويهض: (١/ ٢٧٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن: (ص: ٦٣٦).

فانظروا ماذا عليه أهل الثغور، فإن الحق معهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩][1].

وفيه منافع دنيوية عاجلة، إضافة لإحدى الحسنيين، فالمجاهد المنتصر يعود بالغنيمة والسبي، وهو أثر اقتصادي مادي، حتى إن من العرب من كان لا يقتات إلا من الغزو.

الأثر على المجتمع:

تعود آثار الجهاد في سبيل الله جل شأنه على المجتمعين الكافر والمسلم بالفائدة والخير، فالمجتمع الكافر يدعوهم الجهاد إلى عبادة الله وحده، وهو الطريق الذي به نجاتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وأما المجتمع المسلم فإن الجهاد يعتبر أداة تمحيص يَمِيْزُ الله به الخبيث من الطيِّب، ويُغربل المجتمع من المنافقين والمرجفين، ويُستخلص به الصادقون الطالبون لجنة المولى الكريم: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٢]، ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [سورة محمد: ٣١]، وقال جلت حكمته: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٩].

ويعتبر الجهاد بالنسبة للمجتمع المسلم هو العين الحارسة لأمنه، وهو الحصن الرادع لأعدائه المتربصين به، والترس الحافظ لبيضته. وفي الجهاد إنصاف للمظلومين من الظالمين، واسترداد لحقوق المغلوبين، ونشر للعدالة، وصَدٌّ للظلم، وتعميم للأمن، وإسعاد للمجتمع بعدالة تشريعاته[2].

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه قول الإمامين عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل رحمهما الله. انظر: مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٤٤٢)، وذكر تلميذه ابن القيم رحمه الله أنه قول الأوزاعي وابن المبارك رحمهما الله، انظر: مدارج السالكين: (١/ ٥٠٦).

(٢) انظر: المفاهيم الصحيحة للجهاد في سبيل الله: سعيد بن وهف القحطاني: (ص: ١٤).

المطلب الثالث: أهمية الشورى والاستماع للآراء قبل البدء في القتال.

لأن البيئات الحياتية تتباين، والأمم المتعاقبة تتغير، والخلق يتبدلون، ولأن الخبرات التي يتحصل عليها البشر متغايرة، والآراء مختلفة، والمواهب متعددة؛ لذلك كله كان الإنسان بنفسه غير قادر عن الاستغناء عن الآخرين، فهو محتاج للاستفادة من العقول والخبرات، والتجوُّل بين الأفكار والآراء؛ ليستخلص الرأي السديد فيما يُقدم عليه، بعد الاستعانة بكل من حوله، والاستفادة من تجاربهم، وسؤالهم عن خبراتهم وآرائهم، وتلك هي الشورى[1]، وقد قيل:

إذا بَلَغَ الرأْيُ المشُورة فاسْتعِنْ ... برأْي نصيحٍ أو نصيحة حازِمِ
ولا تْجعَلِ الشورى عليك غَضَاضَةً ... مكانُ الخَوَافِي قوَّةٌ للقَوَادِمِ
وما خيرُ كفٍّ أمسَكَ الغلُّ أختَها ... وما خَيْرُ سيْفٍ لم يُؤيَّد بقَائِمِ
وأَدْنِ على القُربى الْمُقرَّبَ نفْسَهُ ... ولا تُشْهِدِ الشورى امْرءًا غيرَ كاتِمِ[2]

وطبيعة الشورى إنما تكون في الأمور التي تتفاوت فيها مدارك العقول، وما تتمخض عنها من نتائج وأفكار، غير أن هناك أموراً لا ينبغي أن تطالها الشورى، ولا علاقة لها بها، فقواعد الدين ومسلَّماته ليست مجالًا للأخذ والرد، وفرائض الله وأحكامه ليست ميدانًا للمناقشة والتشاور، بل يجب فيها التسليم والانقياد والطاعة[3].

ولقد كانت الشورى بمفهومها الحقيقي ديدن النبي ﷺ في كل شؤونه: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية – السلمية والحربية –، فيستمع لأقوال أصحابه، ويأخذ برأي الأغلبية منهم، وإن كانت مخالفة لما يراه أحيانًا – كما سيأتي –، وبذلك أمره ربه جل جلاله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، وقد جلَّى ذلك أبو هريرة رضي الله عنه بقوله: ((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ))[4]. وقال الحسن البصري رحمه الله: "ما شاور قوم إلا هُدوا لأرْشَدِ أمرهم"[5]. وقد

(١) انظر: الشورى في الشريعة الإسلامية: القاضي حسين المهدي: (ص: ١٧).

(٢) هذه الأبيات للشاعر بشار بن برد، انظر: ديوان بشار بن برد: شرح الطاهر بن عاشور: (١٧٢/٤، ١٧٣).

(٣) انظر: الإسلام والاستبداد السياسي: محمد الغزالي: (ص: ٥٨).

(٤) صحيح ابن حبان، برقم: (٤٨٧٢)، كتاب: السير، باب: الموادعة والمهادنة: (١١/ ٢١٧)، والسنن الكبرى للبيهقي، برقم: (٢٠٣٠١)، كتاب: آداب القاضي، باب: مشاورة الوالي والقاضي في الأمر: (١٠/ ١٨٦).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة، برقم: (٢٦٢٧٥)، كتاب: الأدب، باب: المشورة من أمر بها: (٥/ ٢٩٨).

«كان سادات العرب إذا لم يُشاوروا في الأمر شقَّ عليهم، فأمر الله رسوله بمشاورة أصحابه؛ لئلا يثقل عليهم استبداده بالرأي دونهم»[1].

وفي مغازيه وسراياه ﷺ كانت الشورى حاضرة في كل المواقف، وسنكتفي بذكر مشاورته لأصحابه في غزوتين جاءت الإشارة إليهما في سورة آل عمران، وهما بدر، وأُحُد.

الشورى في غزوة بدر[2]:

رغم سمو مكانة النبي ﷺ عند ربه، وعلو كعبه في الحكمة والنبوة، إلا أنه كان لا غنى له عن مشاورة أصحابه، على اختلاف المرامي والمقاصد، وذلك حاله ﷺ.

ففي السِّيَرِ أن مكة ألقت بفلذات أكبادها إلى قليب بدر[3]، وألقَتْ المدينة بقُرَّةِ أعينها كذلك، فاجتمع الطرفان على غير ميعاد قتال، فخرجت قريش يحدوها نحو بدر خيلاؤها، ويسوقها نحو الوادي تفاخرُها بسمعتها، وفي المقابل نظر رسول الله ﷺ إلى جيشه، فرأى مهاجرًا باع في سبيل الله نفسه وماله، وآخر أنصاريًا ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذي افتداه، وبايع على حمايته. رأى نفرًا خرجوا لغنيمة ومال، فإذا الغنيمة غير الغنيمة، والمكسب غير المتوقع، وشتان ما بين المقامين! فأحبّ رسول الله ﷺ أن يُشعر القوم بحقيقة الموقف؛ حتى ينظروا على ضوئه ما يفعلون، فالمرء قد تفجؤه الحياة بأحداث عابرة لم يسلك دربها، فيحتاج حينها لأنْ يستجمع قواه، ويستحضر خبراته وتجاربه؛ إذ امتحانات مباغتة كهذه تَبِيْنُ فيها دقائق الحكم على الناس، بخلاف الميادين التي يُمتحنون فيها غالبًا، فلا بد من النظر في هذا الأمر الذي فاجأهم على عجل، والنظر في تكاليفه ونتائجه، ولا سبيل لذلك إلا بالشورى.

---

(١) الكشاف: الزمخشري: (١/ ٤٣٢).

(٢) هذه الفقرة والتي تليها مقتبستان من كتاب: فقه السيرة: محمد الغزالي: (ص: ٢٢٩- ٢٣١، و: ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) ورد ذكرها في السيرة كثيرًا، وشهرتها تغني عن تعريفها، فيها حدثت المعركة الفاصلة بين الإيمان والإلحاد، تقع ما بين مكة والمدينة، وبها عين فوارة، وموضع القليب هو الذي كانت بإزائه المعركة. سميت بدرًا لأنه ماء لرجل من جهينة اسمه بدر، وقيل: بل نسبة إلى قريش بن بدر. وهي اليوم بلدة بأسفل وادي الصفراء، تبعد عن المدينة (١٥٥) كم، وعن مكة (٣١٠) كم. انظر: الروض المعطار: محمد عبد المنعم الحميري: (ص:٨٤، ٨٥)، ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: عاتق الحربي: (ص: ٤١).

استشار النبي ﷺ الناس، فقام متكلم المهاجرين فتكلم وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو[1] رضي الله عنه فقال: ((يا رسول الله! امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحقّ؛ لو سرت بنا إلى بِرْكِ الغِمَادِ[2] لجالَدْنَا معك من دونه حتّى تبلغه!))[3].

ولما كان المتكلمون من المهاجرين أعاد النبي ﷺ طلب المشاورة بقوله: أشيروا عليّ أيها الناس، وكان يود سماع صوت الأنصار؛ وذلك لأنهم كانوا الأكثر عددًا، ولأن بيعة العقبة نصت على قولهم: يا رسول الله! إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا، فكان التخوف ألا تكون الأنصار ترتئي النَّصرة له خارج ديارها، فنهض الأسد من عرينه، سعد بن معاذ[4] رضي الله عنه سيد الأنصار فقال: والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك مواثيقنا على السّمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فو الذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا؛ إنّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسِرْ على بركة الله.

---

(١) المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك، ويسمى المقداد بن الأسود نسبة إلى الأسود بن عبد يغوث؛ لأنه كان تبنَّاه وحالفه في الجاهلية. أسلم قديمًا وهو من أوائل سبعة أسلموا، هاجر إلى الحبشة ثم عاد لمكة، ولم يقدر على الهجرة إلى المدينة ظاهرًا. شهد بدرًا والمشاهد كلها. وكان من فضلاء الصحابة النجباء. ووردت في فضله الأحاديث، فهو أحد الذين أُمر رسول الله بحبهم لأن الله يحبهم. شهد فتح مصر، ومات في أرضه بالجرف، فحُمل إلى المدينة ودفن بها سنة: (٣٣هـ). انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/ ١٤٨٠- ١٤٨٢)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٤/ ٤٧٨).

(٢) موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن، وهو أقصى حجر باليمن. انظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: (٣٩٩/١، ٤٠٠)، ومراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: عبد المؤمن القطيعي: (١/ ١٨٧).

(٣) انظر: السيرة النبوية: ابن هشام: (١/ ٦١٥)، ودلائل النبوة: البيهقي: (٣/ ٣٤).

(٤) أبو عمرو سعد بن معاذ بن النعمان الأشهلي، من الأوس. أسلم على يد مصعب رضي الله عنه. شهد بدرًا، وأحد، والخندق، ورمي فيها بسهم، فضُرب له فسطاط في المسجد، وكان يعوده رسول الله كل يوم، وحينها قال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة، فاستمسك عِرْقُه حتى نزل بنو قريظة على حُكْمه، ثم انتقض جرحه فمات منه سنة: (٥هـ). وروي أنه اهتز عرش الرحمن لموته، وأن الملائكة شيعته. انظر: معجم الصحابة: البغوي: (٣/ ٩- ١٢)، والاستيعاب: ابن عبد البر: (٢/ ٦٠٤).

فهطلت هذه الكلمات برداً وسلاماً على قلب الحبيب ﷺ، فقال: ((سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاَللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ))[1]، وهكذا تمت المشاورة، وتظافرت الآراء، فكانت الكلمة واحدة، والموقف واحد، فجاءهم النصر من عند الله العزيز الحكيم.

الشورى في غزوة أُحُد:

حصلت قريش في واقعة بدر على الصفعة الأولى والأقوى من الثُّلة المؤمنة المستضعفة منها سابقًا، فكُسرت شوكتها، وبانت سوءَتُها، فعادت تجرُّ أذيال الخيبة، مخلِّفة سادتها صرعى في قليب بدر، وشارفت ديار مكة دون فلذات أكبادها، عادت وقد أُرغمت سمعتُها في التراب. وهكذا ظلت الأيام تحفر في ذاكرتهم وقعة بدر، والأحقاد لا تزيد في الصدور إلا ضراماً، فما استدارت السنة حتى صحت مكة على جيش تكاملت عُدَّته، وضمَّ بين أرجائه الأحلاف والأشراف، فَرَبَا الجيش على ثلاثة آلاف مقاتل.

وفي المدينة يُشاع الخبر عن وصول ذلك الجيش إلى تخومها، حيث نزل في أُحُد، فاجتمع النبي ﷺ بأهلها – كعادته – للمشاورة، وتقليب الآراء، فتلخّصت المشاورة على رأيين:

الرأي الأول: أن يَستدرجوا عدوهم إلى أزقَّة المدينة، حتى إذا دخلوها قاتَلَهم الرجال من وجوههم في الطرق والأزقة، والنساء والصبيان من فوق أسطح بيوتهم، حتى قال عبد الله بن أُبي بن سلول[2]: يا رسول الله! إن مدينتنا عذراء ما فُضَّت علينا قط، وما خرجْنَا إلى عدو قط إلا أصابَ منَّا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه، فدعهم يا رسول الله، فإنهم إن أقاموا أقاموا بشرِّ مَحْبَسٍ، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً، وكان هذا رأي الأكابر من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وهو فوق ذلك رأي رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: السيرة النبوية: ابن هشام: (١/ ٦١٥)، ودلائل النبوة: البيهقي: (٣/ ٣٤).

(٢) أبو الحباب عبد الله بن أُبي بن مالك الخزرجي ابن سلول، وسَلُول جدته لأبيه، وهو من خزاعة. رأس المنافقين في الإسلام. كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم. وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر، تقية. انخذل في غزوة أحد بثلث الجيش. وكان كلما حلت بالمسلمين نازلة شمت بهم، وكلما سمع بسيئة نشرها. ولما مات صلى عليه النبي ﷺ، وألبسه قميصه، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] الآية. وذلك سنة: (٩ هـ). انظر: تاريخ الإسلام: الذهبي: (١/ ٤٤٢)، والأعلام: الزركلي: (٤/ ٦٥).

الرأي الثاني: أن يخرجوا من المدينة لملاقاة عدوهم، وقالوا: إنا نخشى يا رسول الله أن يَظُنَّ عدوُّنا أنا كرهنا الخروج إليهم، وجَبُنَّا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا. وإنا لا نحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمدًا في صياصي يثرب وآطامها[1]! فيكون هذا جرأة لقريش، أنْ وطِئُوا سَعَفَنَا، وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا، ولا يطمعون بهذا منَّا حتى نخرج إليهم بأسيافنا ونذبُّهم عنا، فنحن اليوم أحق؛ إذ أيَّدنا الله بك، وعَرَفْنَا مصيرنا معك، فكيف نَحْصُرُ أنفسنا في بيوتنا؟

وكان هذا رأي طائفة من الصحابة رضوان الله عليهم، وأغلبهم الشباب الذين تثور فيهم ثائرة التحسر على عدم الخروج إلى بدر، وتتفجر طاقاتهم عنفوانًا وقوة.

ويبدو أن الأغلبية كانت ترى هذا الرأي، فدخل رسول الله ﷺ بيته، ولبس لأْمَةَ الحرب[2]، واستعد للخروج للقتال، فلما خرج ﷺ من بيته ندموا جميعًا على ما صنعوا، وقال الذين ألحُّوا على الخروج: ما كان لنا أن نُلِحَّ على رسول الله ﷺ في أمرٍ يهوى خلافه، فقالوا: يا رسول الله! ما كان لنا أن نُخَالفكَ، وما كان لنا أن نستكرهك، فاصنع ما بدا لك، فالأمر إلى الله ثم إليك، فقال النبي ﷺ مؤيدًا السَّيْر على منهج الشورى، والرأي المجمع عليه: ما ينبغي لنبيّ لَبِسَ لَأْمَتَهُ أن يضَعَهَا حتّى يَحْكُمَ الله بيْنَهُ وبَيْنَ عَدُوِّهِ[3].

---

(١) الصِّيصِيةُ: ما كان حِصْنًا لكلِّ شيءٍ، وهي القلعة التي يتحصن بها القوم. انظر: العين: الفراهيدي: (٧/ ١٧٦)، باب: اللفيف من حرف الصاد. والآطام: جمع أُطُم، وهو البِنَاء المرْتَفع، أو الحصن المبني من الحجارة، أو البيت المربع المسطَّح. انظر: لسان العرب: ابن منظور: (١٢/ ١٩)، باب: الميم، فصل: الألف، مادة: (أطم).

(٢) اللأمة: اسم يطلق على أدوات الحرب، فتارة يطلق على الدرع، والسيف، والرمح، وسميت بذلك لملاءمتها وملازمتها للجسد، وقال بعضهم: اللأمة هي الدرع الحصينة، وإنما سميت بذلك لإحكام صنعتها، وجودة حَلَقِهَا، وجمعها: لُوَمٌ. انظر: الصحاح: الجوهري: (٥/ ٢٠٢٦)، باب: الميم، فصل: اللام، مادة: (لأم)، ولسان العرب: ابن منظور: (١٢/ ٥٣٢)، باب: الميم، فصل: اللام، مادة: (اللأمة).

(٣) انظر: السير والمغازي: ابن إسحاق: (ص: ٣٢٤)، والمغازي: الواقدي: (١/ ٢٠٩- ٢١٤).

وهكذا تتجلى الشورى في حياة المصطفى ﷺ في كل غزواته، فيتنازل عن رأيه لرأي غيره إن كان صوابًا، أو هو الأغلب، ويُعلِّم الناس من بعده ضرورة الاستشارة، وإلا فهو المؤيد بوحي السماء.

أثر الشورى على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

إن في الشورى أمان للفرد من الوقوع في الزلل، واعتصام له بكلمة الجماعة، وقد أمر الله بنها نبيه ﷺ لأهميتها، فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]. فمنذ هبط آدم عليه السلام وبنوه على الأرض، شبَّ بهم الزمن، واطَّردَ بهم العُمران، وتَوالتْ عليهم الحضارات، فأدْبَرت أجيال، وأقبلتْ على أنقاضها أجيال، ومنذ ذلك الحين والناس أخلاط متنافرون، لا تستقيم بهم السُّبل يومًا إلا شردتهم أيامًا، ولا يتعرفون على أنوار الحق حينًا إلا وهاجمتهم ظلمات الباطل أحيانًا[1]؛ لذلك كله كان الفرد محتاجًا إلى من يُصوِّبُ طريقه، ويُعدِّل من اعوجاجه، ولا من سبيل لتحقيق ذلك إلا بالمشورة والنظر في الأفكار، وفي المَثَل: أوَّلُ الحَزْمِ المشُورَةُ[2]. فمن استشار غيره، واستمع لتجارب مَنْ قَبْلَهُ، قلَّ خطؤُه، وسُدِّدَ خَطْوُهُ، وأصَابَ الحق في الغالب، فلا غنى له عن إخوانه ألبتة.

الأثر على المجتمع:

لقد كان النبي ﷺ يشاور أصحابه وإن كان الوحي يؤيده، لا لشيء إلا لما تعود به الشورى من أثر على المجتمعات والشعوب، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩] «أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يُشاور أصحابه في

(١) انظر: فقه السيرة: الغزالي: (ص: ١٧).

(٢) انظر: مجمع الأمثال: النيسابوري: (١/ ٥٢).

الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القومِ، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضًا فأرادوا بذلك وجه اللَّه عزم الله لهم على أَرْشدِهِ»[1]. وفي ذلك تأكيد لأهمية الشورى، وتثبيت لقوائمها.

فالمجتمع بحاجة ماسّة للشورى، ففيها حياة الأمم والشعوب، وبها حفظ نظامهم وأمنهم، وإن أي نظام يفتقر إلى النجاح، وينشد العدالة والمساواة، ويتوق إلى الألفة والاستقرار؛ فلا بد أن يُجانب الاستبداد في الرأي، والتسلط في الحكم، ويجعل الشورى منهجًا ووسامًا، فهي كفيلة بتصويب الأخطاء، وكشف الحقائق، وتظافر الجهود، فتتشابك الأيدي في حلِّ المعضلات، وتجتمع السواعد في رفع الملمات، وهكذا يُبنى المجتمع، وتُقام قواعده[2].

وفي الشورى استفادة من القدرات والخبرات، وعصمة للمجتمع من التفرد والكبت، والقرار الخاطئ، وفيها جبر للخواطر، ومراعاة للمشاعر، وتأليف لقلوب الناس.

(١) تأويلات أهل السنة: الماتريدي: (٢/ ٥١٦) بتصرف يسير.

(٢) انظر: الشورى في الشريعة الإسلامية: القاضي حسين المهدي: (ص: ٩).

المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بما حصل في غزوة أُحُد.

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول:** ضرورة التمحيص والابتلاء بالشدائد لتمييز الخبيث من الطيب.
- **المطلب الثاني:** أثر المعصية الفردية والجماعية في حصول العقوبة والهزيمة.
- **المطلب الثالث:** أسلوب التعامل مع المتولين والمخطئين في عزوة أُحُد.

المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بما حصل في غزوة أُحُد.

المطلب الأول: ضرورة التمحيص والابتلاء بالشدائد لتمييز الخبيث من الطيب.

تعتبر غزوة أُحُد محطة مهمة للتأمل في السيرة النبوية؛ ففيها الألم والأمل، والدمع والدم، والتربية والموعظة، والنصرة والخذلان، والابتلاء والتمحيص، والنصر والهزيمة، والحب والحرب، وكل ذلك في ساحة أُحُد وجبلها؛ ولذلك تناولتها سورة آل عمران بشكل أوسع؛ فأخذ الحديث عنها ستين آية من آياتها، ابتداءً بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢١]، وانتهاء بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٠][(١)].

لقد كانت الغزوة درسًا بليغًا في التربية، وأسلوبًا جديدًا في التمحيص والتمييز، فالابتلاءات المتكررة، والآلام المتعددة، والشدائد المتوالية على المؤمنين في تلك الغزوة داعية للتأمل والمراجعة، والنظر في الأسباب والنتائج: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥].

مضت غزوة أُحُد في بدايتها يصحبها النصر، وتُسطَّر فيها بطولات الأُسُودِ من الرجال، فحمزة بن عبد المطلب[(٢)] ﷺ يهُدُّ الناس بسيفه هدًّا كالجمل الأورق[(٣)]، لا يقف أمامه أَحَدٌ إلا اختطف

(١) انظر: زاد المعاد: ابن القيم: (٣/ ١٨٩).

(٢) أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم، عم النبي ﷺ، وأخاه من الرضاعة، وهو أسن من رسول الله بسنتين. أسلم في السنة الثانية، وكان إسلامه عزًّا ومنعة لرسول الله ﷺ. آخى رسول الله بينه وبين زيد بن حارثة، وشهد بدرًا، واستشهد بأحد، وقاتل بين يدي رسول الله بسيفين، وهو سيد الشهداء عند الله. قتل الله بيده من المشركين في أُحُد إحدى وثلاثين نفسًا، وقتله وحشي سنة: (٣ هـ). انظر: معرفة الصحابة: أبو نعيم: (٢/ ٦٧٢- ٦٨٠)، والاستيعاب: ابن عبد البر: (١/ ٣٦٩- ٣٧٥).

(٣) قال الأصمعي: «الأورق: الذي في لونه بياض إلى سواد، ... وهو أطيب الإبل لحمًا». غريب الحديث: القاسم بن سلام: (٥/ ٩٥)، مادة: (ثبج).

رأسه، وأبو دجانة[1] ﷺ يجول بعصابته الحمراء شارة الموت، يضرب الْهَامَ بسيف رسول الله ﷺ، يرى أحدهم قد أشْغَلَ نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين مزوّدًا بالعتاد والسلاح، فتقدم إليه ليس يحمل سوى السيف الذي أخذه بحقِّه، وعصابته التي اعتلت جبينه، فيضربه بالسيف على حبل عاتقه ضربة بلغت وركه حتى تفرّق فرقتين! وفي الميدان ذلك الفتى الذي كان يومًا عنوان الدلال في أروقة مكة وطرقاتها مصعب بن عمير[2] ﷺ، قد أحكم القبضة على راية الإسلام فما انثنت حتى انثنى أمامها، وفي حلبة المبارزة الزبير بن العوام[3] ﷺ يعتلي فرس خصمه ليقتلعه ويلقيه على الأرض، ثم يذبحه بسيفه، وفي أرجاء المعركة المهاجرون والأنصار ينطلقون في المشركين كالفيضان تقطَّعت أمامه السدود، يَحُسُّونَ عدوّهم بالسيوف بشجاعة فريدة، وقوة ليس لها مثال، حتى انكشف عنهم المشركون، وولّوا الأدبار، وفرَّت نساؤهم مشمرات عن سُوْقِهِنَّ بعد رجالهن الذين لم يلووا على أحد، وكان النصر هو عنوان تلك الوقيعة.

لكن قد يجد المرء نفسه في مكان تحيطه الأنوار المشعَّة من كل جانب، ثم يقع خلل مفاجئ فني في التيار فإذا المصابيح المضيئة معتمة، والمكان النيِّر يسوده ظلام موحش، ذلك هو مَثَلُ التحول الذي

(١) أبو دجانة سماك بن أوس بن خرشة الأنصاري، مشهور بكنيته. شهد بدرًا، وأُحد وجميع المشاهد، وأعطاه رسول الله سيفه يوم أُحد فقاتل به، ويُعدُّ من كبار الأنصار، وله مواقف مشهودة في مغازي رسول الله، وهو من الشجعان المشهورين، وله عصابة حمراء يُعلم بها في الحرب، ربطها يوم أُحد واختال بين الصفين. استشهد يوم اليمامة، بعد أن رمى بنفسه في الحديقة فانكسرت رجله، فقاتل حتى فتحها ثم قُتل. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٢/٦٥١، ٦٥٢)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٢/ ٥٥٠).

(٢) أبو عبد الله مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي العبدري. كان أفضل فتى في مكة شبابًا وجمالًا، وكانت أمه تكسوه أحسن الثياب، وكان أعطر أهل مكة، أسلم سرًّا في دار الأرقم. فعلمت به أمه، فحبسوه، إلى أن خرج إلى أرض الحبشة. ثم هاجر إلى أرض الحبشة. ثم عاد إلى مكة، وبعثه رسول الله إلى المدينة قبل الهجرة يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وهو أول من جمع الجمعة بالمدينة قبل الهجرة. ثم شهد بدرًا وأحد، وحمل فيهما اللواء. وقاتل حتى قُتل في غزوة أحد. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/ ١٤٧٣- ١٤٧٥)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٦/ ٩٨).

(٣) أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي. أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ. أسلم صغيرًا، و لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله قط. وكان له من الولد فيما ذكر بعضهم عشرة، أشهرهم عبد الله، وهو أول من سل سيفا في سبيل الله. وهو حواري رسول الله، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. كان تاجرًا مجدودا في التجارة. شهد وقعة الجمل، وقتل فيها سنة: (٣٦هـ)، وجاء قاتله إلى علي برأسه فقال: بشر قاتل ابن صفية بالنار. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٢/ ٥١٠- ٥١٦)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٢/ ٣٠٧).

قَلَبَ أحداث غزوة أُحُد من نور النصر إلى ظلمة الهزيمة، ومن نشوة الظَّفَر إلى أَلَم الخسارة، ففي لحظة من ضعف النفس البشرية، وفي أَثَرَةٍ من حب المال والدنيا، وساعة خطأ غير متوقعة أضاعت كل المكاسب التي حققتها تلك البطولات النادرة، والشجاعة البالغة[1].

إن حصاد الخسائر التي تلت ذلك النصر مؤلمة، فقد قُتِلَ في المعركة سبعون من خيرة أهل الأرض حينها، يتقدمهم حمزة أسد الله ﷺ، وحبيب رسول الله ﷺ وأخوه، وحاميه والمدافع عنه، فحزن عليه أشد الحزن، وأصاب رسول الله ﷺ من الأذى النفسي والجسدي ما لم يُصبْ به من قبل، فقد شُجَّ رأسه، وانكسرت رباعيته، وسالت دماؤه فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: ((كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟))[2]، ودخلت حلقتان من حِلَقِ المِغْفَرِ[3] في وجنتيه، ورماه المشركون بالحجارة حتى وقع، وسقط في حفرة من الحفر التي كانت قد وُضعت للكيد بالمسلمين، وأُشيع في القوم أنه ﷺ قد قُتل، فتفرق الناس عنه في الشعاب والطرق، حتى شارف بعضهم ديار المدينة، وألقى آخرون أيديهم خلفهم انكسارًا، وتشعبت بآخرين السبل حتى تفرقوا في الشِّعب، فنادى رسول الله ﷺ بأصحابه فاجتمع إليه نحوًا من ثلاثين رجلًا، فانحاز بهم إلى الجبل، وهذا ما سطره القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣].

لكن قريشًا حين أبصرتهم قد تجمعوا هاجمتهم؛ بغية الإجهاز عليهم، فمرت ساعة عصيبة من أحرج ساعات الدنيا، فالمشركون يتواردون على الطائفة القليلة المثخنة بالجراح، حتى قُتل بين يدي رسول الله ﷺ خَلْقٌ كثير، ينافحون عنه، ويصدون الأعداء عن وجهه، وقد أثبت في ذلك الموقف

(١) انظر: فقه السيرة: الغزالي: (ص: ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) صحيح مسلم، برقم: (١٧٩١)، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد: (٣/ ١٤١٧)، من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري معلقًا: (٥/ ٩٩).

(٣) المغفر: أصله الغَفْرُ، وهو التغطية والستر، وهو عبارة عن حَلَقٍ يجعلُها الرَّجلُ على الرأس متدلية على عُنقه لتقيه في الحرب. انظر: تهذيب اللغة: الأزهري: (٨/ ١١٢)، أبواب: الغين والراء، ولسان العرب: ابن منظور: (٥/ ٢٦)، باب: الراء، فصل: الغين المعجمة، مادة: (غفر).

طلحة بن عبيد الله[1] ﷺ جَلَدًا وجهادًا لا شبيه له، فدافعهم حتى كشفهم عن رسول الله ﷺ، ثم سقط بين الحي والميت، وجعل صاحب العصابة أبو دجانة ﷺ ظهره ترسًا لرسول الله ﷺ تستقبل النَّبل المصَوَّب إليه دون حراك، والرسول الكريم ﷺ قد أفرد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش فلما رهقوه قال: ((مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ - أو هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ -، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ - أو هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ -، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا))[2].

وكان لهذه الاستماتة في الدفاع عن الحبيب ﷺ أثرها في إنهاك قوة قريش، وتثبيط عزمها على الإجهاز على الثلة المؤمنة، فتراجعت عنه، وعلمت أن المسلمين أصلب عودًا، وأن دون إفنائهم صعاب لا يستطيعون احتمالها، فرَضِيت من الغنيمة بالإياب، وعاد بقية الصحابة إلى رسول الله ﷺ بعد أن علموا مكانه من كل حدب، فاجتمع الشمل، وعادت إليهم الشوكة والقوة، وتمت حماية لرسول الله ﷺ ومن بقي معه من أصحابه، فتجمعوا حول رسول الله ﷺ، وداعب النعاس أجفانهم من شدة العنت، حتى إن أذقانهم لتلامس صدورهم، ويسقط السيف من يد أحدهم إلى الأرض مرارًا؛ وكل ذلك أَمَنَةً من الله لهم بعد ما أصابهم القرح، واستولى عليهم الغم، كما قال عز شأنه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ...﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤][3].

لم تكن غزوة أُحد معركة قتال في ميدان واحد، بل كانت معركة ميادينها متعددة، وآفاقها واسعة، فهي معركة في ميدان القتال، ومعركة في ميدان النفس البشرية؛ وذلك بعلاج أطماعها

---

(١) أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي التيمي. من السابقين الأولين إلى الإسلام مع أبي بكر الصديق، وكانا يسميان القرينين. أحد العشرة المبشرين بالجنة. لم يشهد بدرًا؛ لأنه كان بالشام، فضرب له رسول الله بسهم، وشهد أُحُدًا وما بعدها من المشاهد، وأبلى يوم أحد بلاءً عظيمًا، فوَقَى رسول الله بنفسه، واتقى عنه النبل بيده حتى شُلت إصبعه، وحَمَل رسول الله على ظهره حتى صعد الصخرة. قتل يوم الجمل سنة: (٣٦هـ). انظر: أسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٨٤)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٣/ ٤٣٠- ٤٣٢).

(٢) صحيح مسلم، برقم: (١٧٨٩)، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد: (٣/ ١٤١٥)، من حديث أنس ﷺ.

(٣) انظر: فقه السيرة: الغزالي: (ص: ٢٦١- ٢٦٤).

وشهواتها ونزعاتها بألطف ما يعالج به المحاربون أقرانهم بالنزال والسنان: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤٢-١٤٣]، فتمحصت فيها النفوس، وتميزت الصفوف، وبَانَ الصف المسلم من المنافق، ابتداء بعودة ابن سلول بثلث الجيش قائلًا: يخالفني ويسمع للفتية؛ يريد بذلك من أشاروا عليه بالخروج إلى أحد، وفي فعله ذلك إرباك للصف المسلم، وإضعاف لقوته، وزعزعة لأركانه، فتبعهم عبد اللّه بن عمرو بن حرام[1] ﷺ يوبخهم، ويحضهم على القتال قائلًا: تعالوا قاتلوا في سبيل اللّه أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع! ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٧]، وانتهاءً بالمخالفة التي حصلت من الرماة في الجبل، الذين كانوا الدرع الحامي لظهور المسلمين من عدوهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢][2].

إن تلك الابتلاءات والآلام للجماعة المسلمة إنما هي بمثابة التربية والتقييم: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤]، فبعد النصر البدريّ العظيم عاشت تلك الجماعة سرور الانتصار، ونشوة الفتح، وحلاوة الظَّفَر، فكان من

(١) عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصاريّ الخزرجيّ، والد جابر الصّحابي المشهور. معدود في أهل العقبة وبدر. استشهد بأُحُد، وذلك أنه حين أراد الخروج دعا ابنه، فقال: يا بني، إني لا أراني إلا مقتولًا في أول من يقتل، وإني لا أدع بعدي أحدًا أعز علي منك، غير نفس رسول الله، وإن علي دَينًا فاقض عني، واستوص بأخواتك خيرًا. فكان أول قتيل. وظللته الملائكة بأجنحتها، وكلّمه الله كفاحًا. ودفن هو وعمرو بن الجموح في قبر واحد، بأمر رسول الله؛ لأنهما كانا متصادقين في الدنيا. انظر: أسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٣٤٣)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) انظر: في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٤٥٧).

الحكمة الإلهية أن تذوق مرارة المصائب، وحرقة الخسائر؛ لتعتاد على مثل ذلك إن أصابها يومًا، وليعلم ذلك الواردون إلى الإسلام اعتقادًا منهم بأنه لا يُهزم أهله، ولا يصيبهم ألم ولا هم ولا حزن، والداخلون في الإسلام ظاهرًا ولا يزالون على الكفر عاكفين؛ ولذلك قال المولى جلَّت حكمته: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣].

وفي تلك الأحداث تربية لنفوس الجماعة المؤمنة أيضًا على تقبّل رحيل رجلها الأول رسول الله ﷺ، فيثبتون ولا ينهزمون، ويواصلون مسيرة جهاده ولا يتخاذلون، ويبلغون دينه ولا يَهِنُون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤][(١)].

وهكذا عادت الجماعة المسلمة من المعركة بغنيمة أفضل من الغنيمة التي تسابقوا لاقتسامها، عادت بحصيلة من العبرة والتربية لا تقاس بنصر ولا بغنيمة، ولا تقدر بثمن ولا بقيمة، وقد كانت أحوج لذلك من كل حصيلة مادية وإن عظمت؛ ذلك أن ما عادت به يعتبر رصيدًا باقيًا للأمة المسلمة عبر الأجيال والعصور، ومنهجًا تربويًا يسير عليه الآباء والأبناء، بينما لو كانت الغنيمة مادية لكانت انتهت في أرض المعركة أو بعدها بزمن يسير[(٢)].

أثر التمحيص والابتلاء على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

طَبَعَ الله الحياة الدنيا على كَدَرٍ، وفيها خلق الإنسان في كَبَدٍ، وجعل ما عليها زينة وابتلاء، والمؤمن في خضم هذا الميدان هو الرابح، فالابتلاء خير له بوجهيه، يبتليه ربه بالخير، ويبتليه بالشر، فيجده صابرًا شاكرًا، كما أخبر بذلك الصادق الأمين ﷺ حين قال: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ

(١) انظر: السيرة النبوية: أبو الحسن الندوي: (ص: ٣٣٥).

(٢) انظر: في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٤٥٨).

كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))(١).

والمؤمن إذا صبر على الابتلاء، ونجح في الامتحان كان ذلك تكفيراً لسيئاته، ورفعة لدرجاته، ومحواً لخطيئاته، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))(٢)، قال ابن القيم ﷺ: « فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذَّبه ونقَّاه وصفَّاه، أهَّلَهُ لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة، وهو رؤيته وقُرْبُهُ»(٣).

والمؤمن مع البلاء كالزرع المستوي على سُوقه، يأتيه الريح فيميل معه، ثم يعود لأصله ومكانه، قال ﷺ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَالفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ، صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً، حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ))(٤).

وفي البلاء للعبد مزيد تذكرة واتعاظ، ومحطة توبة واستغفار، وفرصة مراجعة النفس وتأنيبها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥].

وأعظم ما في الابتلاء من أثر: أنه يهذب النفس ويربيها، ويقوِّم اعوجاجها، فإذا أتاها البلاء من حيث أساءت فلا يُعقل أن تعود لذات السبب، بل يدعوها ذلك إلى تأمل حالها، ومراجعة حساباتها:

---

(١) صحيح مسلم، برقم: (٢٩٩٩)، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير: (٤ / ٢٢٩٥)، من حديث صهيب ﷺ.

(٢) سنن الترمذي، برقم: (٢٣٩٩)، باب: ما جاء في الصبر على البلاء: (٤/ ٦٠٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الحاكم في المستدرك، برقم: (٧٨٧٩)، كتاب: الرقاق: (٤/ ٣٥٠)، والألباني في صحيح الجامع، برقم: (٥٨١٥)، حرف الميم: (٢/ ١٠١٢).

(٣) زاد المعاد: (٤/ ١٧٩).

(٤) صحيح البخاري، برقم: (٥٦٤٤)، كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض: (٧/ ١١٥) واللفظ له، وصحيح مسلم، برقم: (٢٨٠٩)، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: مثل المؤمن كالزرع: (٤/ ٢١٦٣)، كلاهما من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤].

وإذا رام العبد المعالي يومًا فلا بد له من الصبر على البلاء المتوقع: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤٢-١٤٣].

الأثر على المجتمع:

في المجتمع أخلاط متغايرون، وشركاء متشاكسون، وأصناف مختلفون، وأفضل طريق لتمييز هذه المتضادات هو الامتحان والتمحيص، وهو أمر ضروري الوقوع، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة آل عمران:١٦٦-١٦٧]؛ إذ كيف يمكن تمييز المجتمع المسلم من فئة آمنت بقلبها، وصدَّقت ذلك بقولها وفعلها، وأخرى آمنت بلسانها، وأنكرت بقلبها وفعلها، ولا يعلم ما في تلك القلوب إلا مالك مفاتيحها، فجاءت الابتلاءات ممحِّصة لما في الصدور، وكاشفة لما في القلوب، ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران:١٥٤]. قال الحسن البصري رحمه الله: "والذي نفس الحسن بيده؛ ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا وقد أصبح مهمومًا حزينًا، وليس لمؤمن راحة دون الله، الناس ما داموا في عافية مسرورين، فإذا نزل البلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، والمنافق إلى نفاقه"(١).

(١) المجالسة وجواهر العلم برقم: (١٩١٧)، (٥/ ١٠٩).

ولولا الابتلاء لظن المنافق أن سيدخل الجنة قبل المؤمن، أو أن درجتهما فيها سواء، ودون ذلك خرط القتاد [1]:﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤٢-١٤٣].

وفي الابتلاء تنقية للصف المسلم، وتمييز خبيثه من طيِّبِه، وصادقه من كاذبه، ومؤمنه من منافقه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ...﴾ [سورة آل عمران: ١٧٩]، وبواسطته تُختبر معادن الرجال، ويُعرف العدو من الصديق، والحبيب من الغريب.

(١) هو مثل يضرب للأمر الممتنع، ومعناه: «الخَرْطُ: قَشْرُكَ الورقَ عن الشجرة اجتذابًا بكَفِّك، والقَتَاد: شجر له شوك أمثال الإبر». مجمع الأمثال: النيسابوري: (١/ ٢٦٥)، الباب الثامن فيما أوله دال.

المطلب الثاني: أثر المعصية الفردية والجماعية في حصول العقوبة والهزيمة.

على صعيد أُحُد[1] وقف النبي ﷺ يُبوِّئُ المؤمنين مقاعد للقتال، فجعل كتيبة منهم على الميمنة، وأخرى على الميسرة، وفي مقدمة الصفوف نخبة من شجعان الإسلام وأهل البسالة والنجدة، وانتخب منهم مجموعة من أحسن الناس رميًا، قُوامها خمسون راميًا، وأعطى قيادتهم لعبد الله بن جبير[2] رضي الله عنه، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على بعد مائة وخمسين مترًا من معسكر الجيش الإسلامي، وقد «كانت خطة حكيمة ودقيقة جدًا، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبيّ ﷺ العسكرية، وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا؛ فقد احتلَّ أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره – حين يحتدم القتال – بسدِّ الثلمة الوحيدة التي كانت توجد في جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمي به – إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين – ولا يلتجئ إلى الفرار؛ حتى يتعرض للوقوع في قبضة الأعداء المطارِدين وأسرهم، ويُلحق مع ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدًا أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوَّض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين»[3]؛ وذلك بجعلهم في مقدمة الصفوف. وهكذا بدت الحكمة النبوية والحنكة السياسية عند رسول الله ﷺ في أسمى صورها.

---

(١) جبل بظاهر مدينة النبي ﷺ في شمالها، على مقدار ستة أميال، وهو أقرب الجبال إليها، مطل على أرض فيها مزارع وضياع كثيرة لأهل المدينة، وفي فضله وردت الآثار، فأعلن النبي أنه يحبه وهو يحبه، وأنه على باب من أبواب الجنة. قيل: سمي بهذا الاسم لتوحُّده وانقطاعه عن جبال أُخر هنالك. وعنده كانت الوقعة بين النبي ﷺ وقريش. انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد عبد المنعم الحميري: (ص: ١٣)، ومعجم البلدان: ياقوت الحموي: (١/ ١٠٩).

(٢) عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي، شهد العقبة، وبدرًا، وقتل يوم أحد، وهو أخو خوات بن جبير رضي الله عنه. جعله رسول الله ﷺ أميرًا على الرماة يوم أحد، فخالفوا الأوامر ومضوا وتركوه، فأتاه المشركون فقاتلهم حتى قتلوه، ولم يعقب. انظر: أسد الغابة: (٣/ ١٩٤)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٤/ ٣١).

(٣) الرحيق المختوم: المباركفوري: (ص: ٢٣١، ٢٣٢).

وفي وصيته ﷺ للرماة الحكمة البالغة، وفي تشديده عليهم النظر الثاقب في تصور خطورة المهمة الملقاة على عاتقهم، فقال لأميرهم: ((انْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَنَا مِنْ خَلْفِنَا إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ مَكَانَكَ لَا تؤتينّ مِنْ قِبَلِكَ))[1]، وقال للرُّماة عامة: ((لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا))[2]، ((إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ))[3]، وحذرهم مما قد يُثبط عزيمتهم إذا رأوا الدنيا، وألا ينزلوا من مكانهم وإن تبدى لهم النصر، وظهرت أمامهم الغنائم فقال: ((احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ، فَلا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلا تُشْرِكُونَا))[4]، فتكرار الوصية بألفاظ مختلفة توحي بِعِظَمِ ما تحملته كواهلهم من مسؤولية، وأهمية الموطن الذي تبوؤوه، والثغرة التي قاموا بسَدِّهَا.

وبدأت المعركة حسب التخطيط النبوي الحكيم، فذهبت السيوف المسلمة في المشركين تَحُسُّ[5] الرقاب، وتخطف الأرواح، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، حتى إنه تعاقب على حمل لوائهم عشرة من بني عبد الدار، يردف الآخرُ الأولَ، حتى استقر في يد عبد حبشي، ثم امرأة من بني الحارث من كنانة[6]، حتى قال شاعر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت[7] رضي الله عنه يصف الموقف:

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة: (٣/ ٢٢٧)، جماع أبواب غزوة أحد، باب: كيف كان الخروج إلى أُحُد؟.

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٤٠٤٣)، كتاب: المغازي، باب: غزوة أحد: (٥/ ٩٤)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٣٠٣٩)، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب: (٤/ ٦٥)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) مسند أحمد، برقم: (٢٦٠٩)، مسند عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: (٤/ ٣٦٨، ٣٦٩)، وصححه الحاكم في المستدرك، برقم: (٣١٦٣)، كتاب: التفسير، ومن سورة آل عمران: (٢/ ٣٢٤)، ووافقه الذهبي.

(٥) الْحَسُّ: هو القتل والاستئصال. انظر: الغريبين في القرآن والحديث: أبو عبيد الهروي: (٢/ ٤٣٩)، كتاب: الحاء، باب: الحاء مع السين، مادة: (حسس).

(٦) انظر: المغازي: الواقدي: (١/ ٢٢٥- ٢٢٨)، وإمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي: (١/ ١٤٢، ١٤٣).

(٧) حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، كان قديم الإسلام. شاعر الرسول ﷺ الذي كان يضع له منبرًا في المسجد يذب عنه كل من يهجوه، وقد دعا له النبي ﷺ بتأييد روح القدس. توفي سنة: (٥٠هـ). وقيل: غير ذلك، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقد عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين سنة في الإسلام، وكذلك أبوه، وجده، وأبو جده، عاش كل واحد منهم مائة وعشرين سنة، ولا يُعرف في العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد، وعاش كل منهم مائة وعشرين سنة غيرهم. انظر: معجم الصحابة: البغوي: (٢/ ١٥٠- ١٥٢)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٢/ ٦).

أقمْنَا لكُم ضَرْبًا مُبِيْـرًا مُنَكِّلًـا وحُزْنَاكُمُ بالضَّرْبِ من كلِّ جَانـبِ
ولَوْلَا لـواءُ الحارِثيَّـةِ أصـبحُوا يُبَاعُونَ في الأَسْواقِ بيْعِ الجَلائِبِ[1]

وكانت مجموعة الرماة على الجبل تعمل رماحهم وقِسِيُّهم في المشركين، وتصدُّ حملات خـيلهم على المسلمين، حتى قال أحدهم: "لقد رَمَقْتُ نَبْلَنَا، ما رأيتُ سهمًا واحدًا مما نرمي به خيلهم يقـع بالأرض، إلا في فَرَسٍ أو رَجُلٍ"[2]، فانكشف المشركون، وولوا الأدبار، ودَعَت نسـاؤهم بالويـل والثبور بعد أن ضربت الدف، ورفعت الأصوات بالغناء، ومالَتِ الكفة لصالح الجيش الإسلامي الأقل عددًا وعُدَّة[3].

انتهى الفصل الأول من المعركة بانتصار المسلمين، فدخلوا معسكر المشركين يجمعون الغنائم، ويأخذون ما فيه من المتاع، فرأى مَنْ في الجبل من الرماة إخوانهم في المعسكر يجمعون الغنائم، فغلبت على بعضهم شهوتهم، ورأوا الدنيا تتزين أمام ناظرهم، فقالوا: لِمَ نجلس هاهنا وقد أهلك الله عدونا؟ وعلام نصُفُّ وقد نصر الله جُندنا؟ فقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم: ((احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ، فَلا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلا تُشْرِكُونَا؟))[4]، فقالوا: لم يُرد رسول الله هذا، وقد أذل الله المشركين وهزمهم، فادخلوا المعسكر فانتهبوا مع إخوانكم. فلما اختلفوا خطبهم أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه فقال: ((أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا تَبْرَحُوا؟))[5]، فلم يستمعوا لنصحه، ولم يأتمروا بأمره[6]، فتركوا منازلهم التي عهِدَ إليهم النبي ﷺ ألا يتركوها، وتنازعوا ففشلوا، وعصوا الرسول فندموا، فثبت أميرهم ومعه طائفة دون العشرة، واستبسلوا حتى استشهدوا عن

(١) ديوان حسان بن ثابت: (ص: ٢٩).

(٢) المغازي: الواقدي: (١/ ٢٢٥).

(٣) خرج النبي ﷺ بالجيش الإسلامي وعدده ألف مقاتل، فلما وصل إلى الجَبَّانَة، رجع عبد الله بن أُبيّ بثلث الجيش، ولم يبق مع النبي ﷺ سوى سبعمائة مقاتل، أما قريش فقد خرجت الرجال والنساء والعبيد والجواري ومن انضم إليهم من بعـض قبائـل العرب، حتى وصل تعداد جيشهم إلى ثلاثة آلاف مقاتل. انظر: دلائل النبوة: البيهقي: (٣/ ٢٢٠).

(٤) مسند أحمد، برقم: (٢٦٠٩)، مسند عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: (٤/ ٣٦٨، ٣٦٩)، وصححه الحاكم في المستدرك، بـرقم: (٣١٦٣)، كتاب: التفسير، ومن سورة آل عمران: (٢/ ٣٢٤)، ووافقه الذهبي.

(٥) مسند أحمد، برقم: (١٨٥٩٩)، حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: (٣٠/ ٥٦٢)، وقال الأرنؤوط وآخرون: «إسناده صـحيح على شرطهما».

(٦) انظر: المغازي: الواقدي: (١/ ٢٢٩ ، ٢٣٠).

آخرهم، وهم الذين يريدون الآخرة، وهبط الباقون يريدون الدنيا: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]، فدخلوا معسكر المشركين متأبطي الرماح والقسي يجمعون المال والذهب، ويأخذون ما نفر عنه المشركون من العتاد والسلب، كل واحد منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه، فلم يفجأهم سوى خالد بن الوليد ومن معه قد اعتلوا مكانهم، فرشقوهم بالسهام، وأوجفت عليهم الخيل قتلًا ذريعًا، وتداعت عليهم المصائب تترى، فاسترد المشركون ما فقدوه من المغنم إلا يسيرًا، وأُطلق من كان منهم واقع في الأسر، وترك أولئك النفر من المسلمين الدنيا التي انحدروا لأجلها، فلا هم الذين استجابوا لأمر رسول الله ﷺ، ولا هم الذين بقيت الدنيا في أيديهم(١)، فأصاب المسلمين جراء تلك الخطيئة ما أصابهم، فقُتِل منهم سبعون هم من أفضل أهل الأرض يومئذ، وهو العدد الذي قَتَلَ المسلمون مثله من المشركين يوم بدر، فقد قُتِلَ منهم يومئذ سبعون، ووقع في الأَسْرِ سبعون أيضًا؛ وهو ما أشار إليه الحق سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥](٢).

ولقد صدق الله رسولَهُ والمؤمنين وعْدَهُ، ولكن التنازع كان سبب الفشل، والمعصية كانت نتيجتها الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]، وهكذا تفعل المعصية الفردية أو الجماعية بأهلها، فتأتي بالعاقبة الوخيمة، وهكذا المخالفة لأوامر القائد تكون نتيجتها أليمة، فهي لا تصيب أهلها خاصة، بل تأتي على الجمع عامة: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال: ٢٥]، فمخالفة ثلة من الرماة لم يعد أثرها عليهم فقط، بل وصل للقائد الأعلى ﷺ وصحابته الأخيار رضوان الله عليهم؛ وفي هذا إشارة إلى خطورة المخالفة للأوامر في مثل هكذا موقف، وغيره من المواقف.

---

(١) انظر: المغازي: الواقدي: (١/ ٢٣١).

(٢) انظر: صحيح البخاري: برقم: (٣٩٨٦)، كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا: (٥/ ٧٨) من حديث البراء رضي الله عنه، بلفظ: «جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرُّمَاةِ يَوْمَ أُحُدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً؛ سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ».

المطلب الثالث: أسلوب التعامل مع المتولين والمخطئين في عزوة أحد.

بعد انتهاء معركة أُحد بقيت النفوس منكسرة، تعاني آثار الخطيئة، وتأسف على ما أصابها من القَرْحِ[1] والهزيمة، فجاء التقرير النهائي لأحداث تلك الغزوة، عبر آيات تحمل علاجًا للخطأ، وأسلوبًا بديعًا في التعامل مع المخطئ، وتلخص أسلوب القرآن الكريم في التعامل مع الخطأ الذي أردف الهزيمة بالمسلمين في ثلاثة محاور:

أولًا: العتاب واللوم الرقيق: فقد ترفق القرآن في عتاب المسلمين على ما وقع منهم في أُحُدَ، بخلاف ما عليه آيات العتاب في غزوة بدر، ولا غرو؛ فإن عتاب المنتصر على خلاف عتاب المنكسر، ففي بدر حين وقع الخطأ في التصرف مع الأسرى جاءت الآيات بعتاب يحمل الشدة، وعبارات تشي بالتهديد الواضح: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨﴾ [سورة الأنفال: ٦٧، ٦٨]، أما في أُحُدَ فإن المسلمين قد وجدوا عاقبة خطئهم في قصاص عاجل يعلمهم سوء ما وقعوا فيه، فلذلك جاء العتاب رقيقًا؛ لئلا يجمع لهم ألم الهزيمة وقسوة العتاب والكلمة، فتيأس نفوسهم، ويتحول الانكسار المهيمن عليهم إلى قنوط يفل من عزيمتهم، ويشل حركتهم، فقال الله تعالى: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَابَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣][2].

فتأمل النظم القرآني وهو يعاتب الثُّلّة المؤمنة المثخنة بالألم بعبارات رقيقة، تصف الدواء دون عناء، وتعالج الجرح دون ألم: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [سورة آل عمران: ١٤٣، ١٤٤]، فلقد عاتب الله «بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمدًا قد قُتل، فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال، فقال لهم: أفإن مات أو قتل أيها

(١) القرح: بالفتح والضم تعني الجراح وآلامها. انظر: تهذيب اللغة: الأزهري: (٤/ ٢٥)، باب: الحاء والميم.

(٢) انظر: فقه السيرة: الغزالي: (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

المؤمنون ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟!»[1]. فليس الغرض من هذا الابتلاء أن تيأسوا، ولا أن تندبوا حظكم وتتقاعسوا، ولكن فيه حكمًا بالغة، ودروسًا ساطعة، فإنما هي أيام يداولها الله بين الناس كيف شاء، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠].

ولكي تُجبر تلك الخواطر المنكسرة، وتنهض النفوس المتأثرة بالهزيمة، فقد أبان المولى لهم أن هذا الأمر ليس بِدْعًا منهم، بل هو حاصل في أمم الأنبياء من قبلهم، وهو سُنّة من سننه في أرضه، وما انتصار المشركين عليهم إلا حدث عابر، وراءه حكمة بالغة فقال تجلت قدرته: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٧-١٣٩]، فعلام الحزن والانكسار؟ ولماذا التحسر والهوان؟ إن كان لما حصل منكم من مخالفة؛ فإن ذلك حاصل فيمن كان قبلكم من أتباع الأنبياء: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦]، فلا تجعلوا هذا الحدث نقطة تنتهون عندها؛ بل اتخذوها محطة تزود وإصلاح لعجلة السير، ومواصلة المسير.

وإن من أعظم المواساة الفعلية من الله الكريم سبحانه لأهل أحد ما أنزل عليهم من النعاس أمنة بعد خوف، وتطمينًا بعد جزع: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ...﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤].

كما أن القرآن المجيد لم يهمل دور الرسول الكريم ﷺ وموقفه في معالجة تلك الخطيئة، فهو الذي لم يعنِّف أحدًا منهم على خطئه، ولم يغلظ على أحد بسبب مخالفته؛ بل وصفه القرآن بأنه كان نبراسًا في التعامل مع أصحابه المخطئين، يلين لهم في الخطاب، ويترفق بهم في العتاب: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: (٢/ ١١٣).

وهكذا «استطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة، وبالاستنكار تارة، وبالتقرير تارة، وبالمثل تارة؛ تربية لنفوسهم، وتصحيحًا لتصوّرهم، وإعدادًا لهم. فالطريق أمامهم طويل، والتجارب أمامهم شاقة، والتكاليف عليهم باهظة، والأمر الذي يُندبون له عظيم»(١).

ثانيًا: المواساة ورفع الروح المعنوية: فالمسلمون المتفرِّقون في الجبل لا يلوون على أحد، المنكسرون بسبب ما أصابهم يخاطبهم القرآن بخطاب يرفع معنوياتهم، فيذكرهم فضله عليهم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٢]، ويذكرهم بأن النصر إنما هو من عنده: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٣]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٠]، ثم يرفع من وتيرة الخطاب لهم، فينهاهم عن الهوان والذل، ويزجرهم عن الحزن والانكسار، ويرفع مقامهم بأنهم هم الأعلون وإن أصابهم القرح، وحلت بهم الهزيمة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩]. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٠]، ثم يرفع من وتيرة الخطاب لهم، فينهاهم عن الهوان والذل، ويزجرهم عن الحزن والانكسار، ويرفع مقامهم بأنهم هم الأعلون وإن أصابهم القرح، وحلت بهم الهزيمة: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩].

ثم تتوالى الآيات التي تواسي معنوياتهم المنخفضة، وترفع رؤوسهم المطأطئة: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [سورة النساء: ١٠٤]، لكن الفارق بينكم وبينهم: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٤٨٨).

لَا يَرْجُونَ﴾ [سورة النساء: ١٠٤]، وتأمرهم بالصبر والتقوى؛ إذ فيهما العصمة من الزلل، والوقاية من الضرر: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠]، وهكذا نرى القرآن المجيد «يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان؛ فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها في المعركة ذاتها، وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها: حكمة تمييز الصفوف، وتمحيص القلوب، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم، ووقْف المسلمين أمام الموت وجهًا لوجهٍ وقد كانوا يتمنونه؛ ليَزِنُوْا وعُودهم وأمانيهم بميزان واقعي! ثم في النهاية محق الكافرين؛ بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين. وإذن فهي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها، سواء كانت هي النصر أو هي الهزيمة»[(١)].

وهكذا تمسح الآيات عنهم غبار الانكسار، وتزيل منهم همَّ الانهزام، فتعالجهم بِرُقِيّ، وتربِّتُ على أكتافهم بحنان، وتواسيهم برفق، فترفع سقف معنوياتهم، وتشحذ هممهم، وتزيل عنهم أوضار الهزيمة والاستسلام.

ثالثًا: العفو والصفح عنهم وإرشادهم إلى الاستغفار والتوبة: فبعد بيان خطأ المخطئ؛ لا بد من إرشاده إلى الطريق الذي كان يجب عليه اتباعه، والأخذ بيده إلى السبيل الذي يحقق له عدم الوقوع في الخطأ، فقد أعلن الله عز شأنه عن عفوه عنهم، وأن ما حصل كان ابتلاء منه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]، قال ابن القيم رحمه الله: «ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لولا عفوه عنهم لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم»[(٢)].

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٤٧٨).

(٢) زاد المعاد: (٣/ ٢٠٣).

وعفا سبحانه عن المتولين منهم، والمخالفين لأوامر رسول الله ﷺ من الرماة، فنسب ذلك الفرار والتولي إلى الشيطان، وأنها بعض زلاته التي يستزل بها المؤمنين، وأخبر أنه قد تاب عليهم وعفا عنهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٥]. «أمّا الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أماكنهم مهما كانت أطوار القتال فقد مرّت بهم فترة ضعف وذهول، تيقظت خلالها بقية في أنفسهم من حبّ الدنيا، والإقبال على عرضها الزائل، فكان إثر ذلك ما كان!، ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور، بيّن الله لهم أنهم هم مصدرها، فما أخلفهم موعدًا، ولا ظلمهم حقًّا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥]»[1].

ثم جاء دور الإرشاد لما كان يجب أن يكونوا عليه سابقًا ولاحقًا، فقال عز شأنه: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٥]، فأعلمهم بأن علاج الخطأ إنما يكون بإلحاقه بعمل صالح يمحيه، ويكون أيضًا بالاعتراف به والاستغفار منه، لا بالاستمرار فيه والإصرار عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥]. وهكذا يستطرد النّظم الكريم في تعليم المسلمين كيف يتقون مثل هذه المآزق في قادم أمرهم، ويتجنبون ما يمكن أن يجلب لهم الهزيمة والغم.

(١) فقه السيرة: الغزالي: (ص: ٢٧٢)

أثر التعامل الحسن مع المخطئ على الفرد والمجتمع:

الأثر على الفرد:

الإنسان خَطَّاءٌ بطبعه، مقارف للزلل بسجيته، فقد قال ﷺ: ((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))(1)، ولما كان الأمر كذلك كان لا بد على من يعالج الخطأ أن يكون حكيمًا في التعامل مع المخطئين، فيسلك الطرق الناجعة في العلاج، ولا أنجع من حسن التعامل، الذي يتمثل بالكلمة الطيبة، والعفو عند مقدرة، ومحاولة جبر القلوب المكسورة، والأنفس المقهورة، ولا أحسن من الأسلوب القرآني الذي خاطب النفوس المكلومة بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]،

فإن الفرد المخطئ حين يلامس هذا الخطاب بعد وقوعه في الخطأ، وتأمله مما هو فيه، لا شك أنه سيجد الأثر بارزًا في معرفة موطن الخطأ، والسعي لمعالجته والعزم على عدم العودة لمثله.

وفي حسن التعامل مع المخطئ فائدة يجني ثمرتها عاجلًا؛ بإصلاح ما كان منه من خطأ، واستدراك ما كان منه من زلل، فلا يتكرر منه الخطأ، ولا يفكر بالعود إلى ما وقع فيه أبدًا.

الأثر على المجتمع:

المجتمع الذي يسوده تعامل حسن تتعزز فيه أواصر العلاقة الصحيحة بين أفراده، وتقل الإساءات والشرور بين أبنائه، فتتآلف القلوب، وتتوحد الصفوف، ويدنوا القاصي، ويعود الشارد، وتسود الروح الواحدة؛ فإذا أخطأ أحد منهم وجد من يقوّمه، وإذا ابتعد لقي من يحتويه، فانظر كيف عالج القرآن ما وقعوا فيه من الخطأ بأسلوب رائع حسن، حيث قال الله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩]، وقال أيضًا: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ

(١) سنن الترمذي، برقم: (٢٤٩٩) أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع: (٤/ ٦٥٩)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة»، وسنن ابن ماجه، برقم: (٤٢٥١)، كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة: (٢/ ١٤٢٠)، كلاهما من حديث أنس ﷺ. وقال ابن حجر: «سنده قوي»: بلوغ المرام، برقم: (١٤٧٧)، كتاب: الجامع، باب: الزهد والورع: (٢/ ٢١١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم: (٤٥١٥)، حرف الكاف: (٢/ ٨٣١).

ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، وقال أيضًا: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣]. وقال أيضًا: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣].

وهكذا عاش المجتمع المسلم الأول، يُميِّز أهله التناصح، ويسود فيهم التسامح، ويتعاملون بالحسنى. فالمجتمع بحاجة لخلق حسن، يرفع عنه إصر التقاطع والتدابر، ويحلُّ عنه عُقَد التحاسد والتباغض، فيبقى متناغمًا، إن ضعفت بعض جهاته استقوت بأختها، وإن كلَّتْ يدٌ من أياديه استمسكت بساعد غيرها، لا يترك أهله نفسًا أذنبت لليأس ينخر فيها، ولا يُسْلِمُونَ جماعة أخطأت للقنوط يسيطر عليها، بل يسعون لاحتواء الجميع، ويسارعون في سد الخلل، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف الواحد، وهذا الأثر الذي يُنتجه التعامل الحسن مع من أخطأ، أو وقع في الإساءة.

المبحث الثالث: عوامل النصر وأسباب الهزيمة.

وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: عوامل النصر.
- المطلب الثاني: أسباب الهزيمة.

المبحث الثالث: عوامل النصر وأسباب الهزيمة.

المطلب الأول: عوامل النصر.

تتعدد العوامل المؤدية إلى النصر والتمكين، وتتشعِّب الأسباب المفضية إلى الخسارة والهزيمة، ويشقُّ تعداد كل منهما على سبيل الاستقصاء والحصر، لكن سيتم تَنَاوُل ما جادت به سورة آل عمران – خاصة – من عوامل نصر، وأسباب هزيمة، وما له تعلق بغزوة أُحُد من جهة أخرى؛ إذ ذاك محل بحثنا. فمن رام النصر في حروبه فليتشبث بعوامل توصله إلى النصر، وليعلم أسباب الهزيمة فيفر منها، وأهم هذه العوامل هي:

أولًا: الإيمان بالله والطاعة له ولرسوله: فبقدر إيمان الجماعة بالله، وقوة صلتهم بحبله يأتيهم النصر، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٢]، ففي الإيمان بالله ورسوله وطاعتهما النصر والرحمة، والعزة والتمكين. «وطاعة الله هي لبُّ الاستقامة، وطهارة القلوب، وهي التي تكون بها قوة الإيمان، وقوة الإيمان دعامة الانتصار، وهي قوة الجهاد، ودعامة الصبر، وتلك عناصر الجهاد الحق في سبيل الله تعالى»(١). والمراد بطاعة الله ورسوله في القتال: «اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم، وكذلك ما يأمرهم به الرسول ﷺ من آراء الحرب، كقوله للرماة يوم أُحُد: ((لَا تَبْرَحُوْا مِنْ مَكَانِكُمْ وَلَوْ تَخَطَّفَنَا الطَّيْرُ))(٢). وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته؛ لقوله: ((وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي))(٣)، وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول ﷺ؛ لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حُكْمِ الغيبة عن شخصه»(٤).

---

(١) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة: (٦/ ٣١٤٩).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٣٠٣٩) بلفظ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ ...» الحديث، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب: (٤/ ٦٥)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري، برقم: (٧١٣٧)، كتاب: الأحكام، باب: قول الله تعالى: و﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩]: (٩/ ٦٢)، وصحيح مسلم، برقم: (١٨٣٥)، كتاب: الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء: (٣/ ١٤٦٦)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (١٠/ ٣٠).

وهكذا نجد الأمر بالطاعة يأخذ حلقات متسلسلة، فالأمر بطاعة الله تستلزم طاعة رسوله، وطاعة الرسول ﷺ تستلزم طاعة الأمراء من بعده، فإن طاعتهم من أسباب الانتصار.

وإن الكثرة ليست مؤثِّرة في حصول الانتصار، والقلة ليست جالبة للهزيمة والانكسار، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأنفال: ١٩]، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٦].

وطاعة الله ورسوله تستلزم عدم طاعة الكفار؛ إذ في طاعتهم الخسران والبوار بعكس طاعة الله ورسوله، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٤٩، ١٥٠]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦].

ثانيًا: الثبات والمرابطة مع تقوى الله: إذ لا نصر بدون مرابطة وثبات، ولا ظفر إلا بذلك، وقد أمر به سبحانه وتعالى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠]، وقال أيضًا: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤٥- ٤٧]، ونهى عن التولي والفرار الناتج عن عدم الثبات والمرابطة في سبيل الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الأنفال: ١٥، ١٦]، وجعله رسول الله ﷺ من كبائر الذنوب، وعظائم الموبقات فقال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ))[1].

ثالثًا: الصبر والإكثار من ذكر الله: وقد جاء الأمر بالصبر والتقوى مقترنين في طريق الجهاد في سبيل الله عز وجل كعامل مهم من عوامل النصر، فالمجاهد يُلاقي من المعركة صنوفًا من العذاب، ويرى بعينه ألوانًا من الفتنة، ولا يُنجيه من ذلك إلا الصبر؛ خاصة إذا كان مقرونًا بالتقوى، فمعهما لا يضر المجاهد كيد كائد، ولا يقف في طريقه تدبير حاقد، قال الله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠]، ومع الصبر والتقوى يأتي النصر، وتتنزل الملائكة للمساندة كما فعلت في غزوة بدر، ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٥]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦- ١٤٨]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤٥، ٤٦]، ففي هذه الآيات أمَرَ الله المؤمنين بالصبر، وهو أمر «يعم نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفًا في قوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، وفي قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ ...﴾ الآية. ألا وهو الصبر، فقال: واصبروا؛ لأن الصبر هو تحمل المكروه، وما هو شديد على النفس، وتلك المأمورات كلها تحتاج إلى تحمل المكاره، فالصبر يجمع تحمل الشدائد والمصاعب، ولذلك كان

(١) صحيح البخاري، برقم: (٢٧٦٦)، كتاب: الوصايا، باب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠]: (٤/ ١٠)، وصحيح مسلم، برقم: (٨٩)، كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها: (١/ ٩٢).

قوله: ﴿وَٱصۡبِرُواْۖ﴾ بمنزلة التذييل. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ إيماء إلى منفعة للصبر إلهية، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالًا لأمره، وهذا مُشَاهَد في تصرفات الحياة كلها»[1].

وقد جاء في الحديث ما يؤكد ذلك، حيث قال ﷺ: ((أَيُّهَا النَّاسُ! لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ))[2].

وأشد مُعين على الثبات هو ذكر الله عز وجل، فقد قرنهما الله معًا، وربط حصول الفلاح بتحقيقهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٥]. وإنما أمر الله علا شأنه بالذكر في هذا الموطن بالذات؛ ليكون زادًا للمجاهد يواجه به الشدائد، ويتقوى به على الصبر أمام بارقة السيوف، ويقف به في وجه الموت الذي يراه أمامه رأي العين، خاصة وأنه في موطن تصرخ فيه نوازع النفس حرصًا على البقاء في الدنيا؛ فيكون ذكر الله حينها داعيًا للنفس للإقدام، ومحذرًا لها من الإحجام، وحاديًا لها في رحلة الجهاد في سبيل الله جل في علاه.

وإذا كان فرسان العرب وأبطالها يصطحبون معهم من يحبون من زوجات وخليلات؛ ليكونوا محل إعجابهنّ، فيبلون أحسن البلاء؛ رجاء رضاهن، ويستبسلون في الميدان؛ لأجل مدحهن، ومن لم يصطحب معه زوجه أو خليلته رسم صورتها في مخيلته، وبذل لأجل ذلك جهده وطاقته، كما فعل عنترة العبسي[3] إذ يقول:

---

(١) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (١٠/ ٣٢).

(٢) صحيح البخاري، برقم: (٢٩٦٦)، كتاب: الجهاد والسِّيَر، باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس: (٤/ ٥١)، وصحيح مسلم، برقم: (١٧٤٢)، كتاب: الجهاد والسِّيَر، باب: كراهية تمني لقاء العدو: كلاهما من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٣) عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي. أشهر فرسان العرب في الجاهلية، وأحد شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد. أمه حبشية تسمى زبيبة، سرى إليه السواد منها. نفاه أبوه ثم ادَّعاه بعد الكبر وألحقه بنسبه. يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة. أحد أغربة العرب الثلاثة في الجاهلية. أحب ابنة عمه عبلة، فلا تخلو له قصيدة من ذكرها. صاحب إحدى المعلقات. اجتمع في شبابه بامرئ القيس. وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلًا، حتى قتله الأسد الرهيص سنة: (٢٢ ق هـ). انظر: رجال المعلقات العشر: مصطفى الغلاييني: (ص: ٢١١- ٢٣٢)، والأعلام: الزركلي: (٥/ ٩١).

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ مِنِّي وَبِيْضُ الْهِنْدُ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدَدْتُ تَقْبِيلَ السُّيوفِ لأَنَّها لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ[1]

فإذا كان هذا حال من يذكر مخلوقًا فكيف بمن يذكر الخالق؟ وكيف بمن يستحضر جلالته وعظمته في الموقف الذي ينتصر فيه له؟! لا شك أنه بذكره لمولاه في ذلك الموطن يستخفّ بالموت، ويلذّ له طعمه، ويستصغر حياته التي يجود بها لأجله، فيرى أنها لا تفي بحق من يلهج بذكره، وذلك هو ما جعل المجاهدين في سبيل الله يرِدُونَ حياض الموت راضية نفوسهم، مبتسمة شفاههم، فرسموا بدمائهم أروع لوحات التضحية والفداء الخالدة بخلود الزمن[2].

رابعًا: التوكل على الله: فإن النصر ليس بكثرة العَدَدِ ولا العُدَدِ، حتى الملائكة التي نزلت في أُحُد تساند المسلمين لم يكن بيده النصر، وإنما كانت تحمل البشارة من الله لعباده، وتطمئن قلوبهم، أما النصر فمن عند الله جل في علاه، قال أصدق القائلين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٦].

وفي التوكل على الله امتثال لأمره؛ إذ قال سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، وقال أيضًا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٢]، وفي معرض الحديث عن بني إسرائيل وقتالهم مع نبيهم يقول جل شأنه: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة: ٢٣]؛ وهنا تكمن فائدة التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه؛ فلربما يتفق الجيش على أمر يحسبونه خيراً لهم وهو شر لهم، فلا يعلم ما تُخفيه قادمة الأيام والوقائع غير مُصَرِّفها سبحانه وتعالى، فنحن مطالبون بقيام الأسباب في حياتنا، وتوكيل التدبير إلى ربنا، فلا نصر إلا من عنده، ولا توفيق إلا من عطاءات يده، فالقوة الفاعلة في النَّصر والهزيمة هي القوة الإلهية، فيجب التوجه إليها، والتماس النصر ببابها، بعد إعداد العُدَّة، ونفض الأيدي من الحول والقوة البشرية، وتعليقها بإرادة اللّه تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ

(١) انظر: ديوان عنترة العبسي: شرح الخطيب التبريزي: (ص: ١٩١).
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (٥/ ٦٢٦، ٦٢٧).

فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٠](١).

ولقد استقر هذا الدرس العظيم في النفوس المسلمة العظيمة، فحين عادت من أُحُد منكسرة قد أصابها القرح، وهيمن عليها الحزن، تسمع في نواحي المدينة بواكي القتلى، وفي فجاجها ترى سحائب الحزن والندم، في ذلك الظرف دُعيت تلك النفوس في اليوم التالي إلى الخروج لمواجهة قريش في حمراء الأسد، يواجهون العدو الذي لا زالت مخيلاتهم تتراءى موقفه من يومها الأول، لكن هذا التعليم الرباني كان حاضرًا في تلك النفوس المؤمنة، فتوكَّلوا على الله، فجازاهم الله جراء ذلك زيادة في إيمانهم، وردَّهم سالمين قد أفاض عليهم نعمة منه وفضلًا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧٣-١٧٤]، ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٢](٢).

ولقد كان المؤمنون يوم بدر أقل عددًا، وأضعف عُدَّة، لكن التوكل على الله كان فوق كل عُدَّة، توكُّل يفوق بقوته قوة الأبدان والعتاد، فبذلوا بعده كل قواهم، وامتثلوا أمر ربهم، ولم يكن في نفوسهم أي استشراف إلى غير نصر الله لهم، ولم يكن لهم همٌّ سوى إقامة دينه والذود عن نبيه، فصفت بذلك أرواحهم، وسمت قلوبهم حتى استعدت لقبول الإلهام من أرواح الملائكة، بخلاف يوم أُحُد؛ فقد كاد بعضهم في بادئ الأمر أن يُفتن بقلة العدد، خاصة حين انسلخ ابن أُبيّ بثلث الجيش، فهمَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا، ولكن الله تداركهما برحمته: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٢]، ثم إنهم لما تثبتوا وباشروا القتال انتصروا وهزموا المشركين الذين هم أكثر منهم، وشابهت غزوة أُحد شقيقتها في الانتصار، ثم حصل بعد ذلك أن خرج بعضهم عن إطار الطاعة، وخالفوا أمر الرسول ﷺ، وطمعوا

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (١/ ٥٠٣).

(٢) انظر: في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٥٠٣).

في الغنيمة، فضعفت حينها أرواحهم، وغشى صفاء سمائها دخن الدنيا ولعاعتها، فأصابهم ما أصابهم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢١][1].

خامسًا: الحكمة القيادية: وقد وصف الله القيادة النبوية التي اهتمت بتفاصيل المعركة، فقال جل شأنه: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢١]. وهذه الحكمة القيادية النبوية جلّاها ربنا جل جلاله بقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

فالقائد الحكيم يسلك بمن معه أوضح الطرق وأقربها إلى النصر، «فاتقاء الفشل والخذلان في القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها، وإتقان آلاتها وأسلحتها التي ارتقت في هذا العصر ارتقاء عجيبًا، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ...﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]، كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية؛ من اجتماع الكلمة، واتحاد الأمة، والصبر، والثبات، والتوكل على الله، واحتساب الأجر عنده»[2]. وتتمثل هذه الحكمة في أمور منها:

أ- **التخطيط المسبق وتحديد الهدف قبل المعركة:** وذلك واضح في القيادة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فقد خطط للمعركة بمنتهى الحكمة، وأدار المعركة بتخطيط تتجلى فيه عبقرية قيادته ﷺ العسكرية، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢١]؛ فقد احتلَّ أفضل موضع من ميدان المعركة، واحتمى بالجبل من خلفه، واختار أفضل الرماة فجعلهم على الجبل يحمونهم من عدوهم - كما سبق بيانه -. وتجلى التخطيط النبوي الحكيم أيضًا حين انعطف المشركون على المسلمين من خلف الجبل ورشقوهم بالسهام، فقد استطاع بحكمته ﷺ تجميع الجيش المتفرق في الشعاب، وردع المشركين الذين راموا القضاء على هذا الدين ورموزه، فكان ما أراده، ورد الله الذين

(١) انظر: تفسير المنار: محمد رشيد رضا: (٤/٩٤، ٩٥).

(٢) المصدر السابق: (١/ ١٠٦).

كفروا بغيضهم، لم ينالوا ما أملوه من القضاء عليه وعلى أصحابه. وهكذا بدت الحكمة القيادية النبوية في أجل صورها، وأبهى معانيها.

وكذا في غزوة بدر الكبرى، فقد بدا تخطيط النبي ﷺ فيها بأسمى معانيه؛ حيث استخدم تكتيكات عرفها العرب، وأخرى كانت بِدعًا منه لم يعلموا عنها شيئًا؛ ومن ذلك: قيامه بعملية الاستطلاع عبر دوريات تَعَرَّف من خلالها على تعداد جيش العدو، والمسافة التي تفصله عنهم. وقيامه بتعبئة الجيش الإسلامي بدقة متناهية، فاستخدم لأول مرة أسلوب الصفّ في قتاله لقريش التي لم تعرف هذا الأسلوب إلا منه، فجعل جيشه صفًا ذا ميمنة وميسرة وقلب؛ ليسيطر بذلك على قوته ويحفظها، بينما لم تعرف قريش سوى أسلوب الكر والفر، وهو أسلوب بالٍ بمقابلة أسلوب الصف الحديث؛ بل لقد كان من أبرز ما في حكمته القيادية استعمال كلمة سرٍّ بين أفراد الجيش الإسلامي؛ كرمز للتعارف في أرض المعركة[1].

أما تحديد الهدف فإن غيابه في أي عمل ضَرْبٌ من العبث، فكيف إذا كان هذا العمل هو ذروة سنام الإسلام؟! فإذا عُمِّيَ على الجُند الهدف من قتالهم فلا بد أن يقع منهم الخطأ، فيَقْتُلُ الفردُ منهم لا يعلمُ لماذا؟! ويُقْتَلُ لا يَعلم عَلامَ؟! وهو ما أخبر به النبي ﷺ بقوله: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ))[2]؛ وعليه فإن «توخِّي الهدف مبدأ من مبادئ الحرب المهمة، وهو أن نعرف هدفنا تمامًا، ونفكر بأحسن طريقة للوصول إليه، ثم نقرر خطة مناسبة للحصول عليه، وننفذ تلك الخطة جاعلين هدفنا الرئيسي وحده نصب أعيننا، دون أن تُعيقَنَا أو تُغيِّر من خطتنا الأهداف الثانوية الأخرى»[3].

(١) انظر: الرسول القائد: محمود خطاب: (ص: ٨٤- ٨٦).

(٢) صحيح مسلم، برقم: (٢٩٠٨)، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء: (٤/ ٢٢٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الرسول القائد: محمود خطاب: (ص: ١٨٥).

فهدف المسلمين الدائم في معاركهم هو: إعلاء كلمة الله، والانتصار لدينه، ونشره بين خلقه، والدفاع عن حياضه، وهو الهدف الرئيس في غزوة أُحُد، بينما أهداف العدو تختلف من موقف لآخر، ففي أُحُد كان هدف المشركين الأول هو الأخذ بثأر قتلاهم في بدر، فما منهم إلا وله قريب أو حبيب مدفون في قليب بدر، فأخرجهم ذلك الهدف، وساقهم إلى أن وصلوا إلى أُحُد، فكان هدفهم الرئيس لا يتعدى أنفسهم، ولا يزيد على الانتصار لأحقادها.

ب- **التشاور وجمع الكلمة**: وقد مرَّ الحديث عنه باستفاضة، ولكن يأتي التأكيد عليه هنا، بأنه عامل كبير من عوامل النصر والظفر، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بها قائلًا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]. فمع ما حصل للمسلمين في أُحُد من النتائج المريرة إلا أنه لم يلغها ﷺ؛ احتجاجًا بأن الرأي المقابل لرأي الخروج كان صائبًا؛ لينفرد فيما بعد برأيه، وهو المؤيد بنور الله ووحيه، أو أن نتائج التشاور لم تأت بغير الخسارة والهزيمة، «ولقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أحرج الظروف، وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشئ أمَّة، ويربيها ويعدّها لقيادة البشرية، وكان اللّه يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة أن تُربى بالشورى، وأن تُدرَّب على حمل التَّبعة، وأن تخطئ - مهما يكن الخطأ جسيمًا وذا نتائج مريرة -؛ لتعرف كيف تصحح خطأها، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها، فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ. والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدرَّبة المدْرِكة المقدِّرة للتَّبِعَة»[1].

والأعجب من ذلك أنه ﷺ خرج من المدينة إلى أُحد نزولًا عند رغبة أصحاب هذا الرأي، مع أنه كان قد رأى رؤيا تجعله يحجم عن الخروج، فقد رأى ما يشير إلى أن بقاءه في المدينة خير، فرأى كأن سيفه به ثلمة في ذبابته، وأن بقرًا تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة، فأوَّلَ الثُّلمة التي في سيفه برجل يُقتل من أهل بيته، والبقر التي تُذبح بالقتلى من أصحابه، والدرع

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٥٠١).

الحصينة بالمدينة[1]، ومع ذلك قام بتطبيق ما نتج عن التشاور بين أفراد جنده، فأمضاه وهو يدرك عواقبه؛ في إشارة إلى أن «إقرار المبدأ، وتعليم الجماعة، وتربية الأمة، أكبر من الخسائر الوقتية»[2].

بيد أنَّا نجده ﷺ عمل بالعكس من ذلك في غزوة الأحزاب تالية أُحُد، فمكث في المدينة ولم يغادرها حتى وصلت إليها فلول الأحزاب وجحافلها، لكنه لم يتخل عن الشورى، وقد أثمرت له خطة يحمي بها المدينة ومن فيها، حيث أَشَار عليه فرد من الجند بحفر خندق على مدخلها، فكان هذا الخندق سببًا للانتصار والغلبة، مما يوحي بأن المصاب في أُحُد لم يكن من أثر الشورى والأخذ بها، بل هو ناتج عن أمر آخر حصل؛ وهو مخالفة الأمر وعصيان الرسول ﷺ.

ج- **التحفيز والتشجيع**: فالنفس مجبولة على حب التحفيز والتشجيع، فقد تتقاعس عن الإقدام فتشحذ همتها كلمة تحفيز فتُقْدم، وشواهد ذلك كثيرة في القرآن المجيد، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣]، ومنها قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩، ١٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦-١٤٨]، وقوله سبحانه: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا

(١) انظر: السير والمغازي: ابن إسحاق: (ص: ٣٢٤)، والمغازي: الواقدي: (١/ ٢٠٩).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٥٠١).

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩- ١٧١] وغيرها من الآيات.

وقد بدا هذا العامل جليًّا في حياة النبي القائد ﷺ، فكان يحفز أصحابه في أرض المعركة بأساليب متنوعة، فتارة يقول لأصحابه: ((قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَيَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ[1]: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ))[2]. ومرة أخرى يقول: ((مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ - أو هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ -))[3]، وقال عن أهل بدر: ((لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ))[4]، وقام بأخذ سيفه يوم أحد وعرضه على الجند قائلًا: ((مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟ فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا، أَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟ فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ. فَقَالَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ. فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ))[5]. كل هذه وغيرها كانت عبارة عن جرعات تلامس النفوس فتعمل على تحفيزها، وتخامر العقول فتسرع في إيقاد شعلتها، فيهبُّون لنصرة دين الله، لا يلوون على شيء من الدنيا، ولا يلتفتون إلى شيء من زينتها.

---

(١) عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري السلمي. شهد بدرًا، وقُتل فيها، وهو أول قتيل من الأنصار في الإسلام في حرب، وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين عبيدة بن الحارث المطلبي، فقتلا يوم بدر جميعًا. انظر: أسد الغابة: ابن الأثير: (٤/ ٢٧٨)، والإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر: (٤/ ٥٩٣- ٥٩٥).

(٢) صحيح مسلم، برقم: (١٩٠١)، كتاب: الإمارة، باب: ثبوت الجنة للشهيد: (٣/ ١٥١٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) صحيح مسلم، برقم: (١٧٨٩)، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة أحد: (٣/ ١٤١٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري، برقم: (٤٢٧٤)، كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح: (٥/ ١٤٥)، وصحيح مسلم، برقم: (٢٤٩٤)، كتاب: الفضائل، باب: فضائل أهل بدر: (٤/ ١٩٤١)، كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) صحيح مسلم، برقم: (٢٤٧٠)، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي دجانة رضي الله عنه: (٤/ ١٩١٧)، من حديث أنس رضي الله عنه.

سادسًا: السكينة والطمأنينة: وهي المتمثلة بالنعاس الذي أنزله الله على أهل أحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ...﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤]. والنعاس في المعركة أمان ونصر، وقد أنزله الله على الجيش الإسلامي كنوع من السكينة والطمأنينة؛ ليتمكنوا بعدها من مواصلة المسير في نصرة دين الله وإعلاء كلمته.

تلك أبرز عوامل النصر وليست كلها، والمستقصي لها على سبيل الحصر سيجد عوامل أخرى، لكننا قطفنا أينعها، وأوردنا أهمها، وهي عوامل كفيلة بالنصر بإذن الله تعالى، وقد لخصها الله عز وجل في ثلاث آيات من كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤٥- ٤٧]، فذكر الثبات والذكر والطاعة لله ورسوله والاتفاق وعدم التنازع والصبر والحذر من البطر والرياء والكبر المصحوب بالصد عن سبيل الله.

المطلب الثاني: أسباب الهزيمة.

يمكن اعتبار نقيض كل عامل من عوامل النصر سببًا للهزيمة، ويمكن الإضافة عليها بذكر بعض الأسباب التي من شأنها جلب الهزيمة، وتتلخص في الآتي:

أولًا: الكفر بالله ورسوله وعدم طاعتهما: وهو مقابل للإيمان بالله ورسوله وطاعتهما، فإذا كانت الطاعة داعية للنصر، فإن الكفر وعدم الطاعة جالبان للهزيمة، قال سبحانه وتعالى مبينًا أن ترك طاعة الله والذهاب لطاعة أعدائه هو الخسران المبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [سورة آل عمران: ١٤٩، ١٥٠]، فمن رام النصر فليتولَّ الله عز وجل، فهو خير الناصرين، ومن تنكب هذا الصراط، وأبى إلا طاعة الكافرين فإن منقلبه هو الخسارة والهزيمة.

ثانيًا: المعصية ومخالفة الأوامر: وهي سبب واضح في جلب الهزيمة كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢].

وعند ذكر المعصية يتبادر إلى الذهن دون جدال تلك الخطيئة التي قلَبت النصر في أُحُد إلى هزيمة، والفرحة إلى حزن، فحين خالف الرُّماة الخطة المرسومة لهم من القائد ﷺ، ولم ينصاعوا لأمر أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، وأخلوا مواقعهم، حلّت بهم الهزيمة، وتغيرت مجريات المعركة، فانكسر المنتصرون، وعاد بالهجوم الفارُّون المنهزمون. وهذا يفيدنا بأن «تنفيذ الأوامر هو الضبط العسكري الذي يُعتَبَر روح الجندية، والسبب المباشر لكل انتصار في كل معركة، ومخالفة الرماة في ترك مواقعهم والإسراع لجمع الغنائم خطأ كبير وقع فيه المسلمون حينذاك؛ إذ كَشَفَ للعدو ظهورهم، فاستفاد خَالدٌ من هذه الفرصة السانحة لتطويقهم من الخلف، مما أدى إلى الإطباق عليهم من كافة الجهات»[1].

(١) الرسول القائد: محمود خطاب: (ص: ١٢١).

وقد أشار القرآن الكريم لهذا بأوجز عبارة فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٥]، و«إن مخالفة الأوامر في أُحُد درس في نتائج كل مخالفة عسكرية للأوامر في الحرب، وإن نتائجها المعروفة كافية لغرس هذا الدرس في النفوس؛ لكي لا يعود أحد لمثلها أبدًا»(١). بل إن القرآن المجيد تعرَّض لأمر من شأنه أن يوصل أصحابه إلى المعصية، وهو التخوف لدى البعض من ألا يقسم النبي ﷺ لهم من الغنيمة شيئًا، ويستأثر بها دونهم، أو أن يحيف عليهم في القسمة فيفضل البعض عليهم، خاصة وأن المنافقين قد نفثوا هذه القالة في روع أتباعهم ليصل إلى بعض المسلمين شيء من دخانها، فزعموا أن بعض غنائم بدر قد اختفت ولم تُقسم بين المسلمين، ولم يستحوا أن يهمسوا باسمه ﷺ تعريضًا بالحيف والغلول، قاتلهم الله أنى يؤفكون، فقال الله سبحانه تطمينًا لمن تسوِّلُ له نفسه بشيء من ذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦١](٢).

ثالثًا: التنازع والاختلاف: وهو ما جاء النهي عنه في الكتاب العزيز، وبيان أنه سبب الفشل والهزيمة بقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦]، قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «والمعنى: وتزول قوتكم ونفوذ أمركم؛ وذلك لأن التنازع يفضي إلى التفرق، وهو يوهن أمر الأمة، كما تقدم في معنى الفشل»(٣) وهو ما حصل فعلًا حين تنازع الرماة مع أميرهم، واختلفوا فيما بينهم في النزول إلى أرض المعركة لجمع الغنيمة، فكان هو سبب الانهزام الرئيس في المعركة.

(١) الرسول القائد: محمود خطاب: (ص: ١٢٣).

(٢) انظر: في ظلال القرآن: سيد قطب: (١/ ٥٠٤).

(٣) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (١٠/ ٣٢).

«وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضًا؛ حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [سورة النساء: ٨٣]، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [سورة النساء: ٥٩]. والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي.

ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة، بَسَطَ القرآن القول فيه ببيان سيئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦] فحذرهم أمرين معلومًا سوء مغبَّتهما: وهما الفشل وذهاب الريح»[1].

وفي درب النصر لا بد من اتحاد الصف والكلمة، والبعد عن الاختلاف والتنازع، فإن الفرد المسلم ليس وحده في أرض المعركة، «وإنما هو واحد في جماعة المجاهدين الذين يُقاتل معهم، ويستند إليهم، ويستندون إليه. ومن هنا كان من تمام البناء لتلك القوة التي يَلْقَى بها المسلمون عدوّهم أن يكونوا صفًّا واحدًا، تُمسك به مشاعر واحدة، فلا يتوزعهم الخلاف، ولا يمزق وحدة مشاعرهم النزاع، فذلك أمر إن وقع في جماعة أذهب ريحها، وحلّ عزيمتها، وأفسد تدبيرها، ومكَّنَ للعدو منها، مهما كانت القوة التي عليها أفرادها، والبلاء الذي يعطيه كل فرد منها في ميدان المعركة؛ ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦]، جاء ليشدَّ تلك الجماعة بعضها إلى بعض، بعد أن شدّ كلّ فرد فيها إلى موطن العزم والصبر، من نفسه.

ثم إنه لكي يقوم للمسلمين شاهد حسّي يشهد لهم بمفعول هذه الوصاة الكريمة التي وصاهم الله بها، أفرادًا وجماعة، فقد أراهم الله ما حلّ بالمشركين من بلاء، وما أُصيبوا به من خذلان، وأن ذلك كان لما وقع بينهم من تنازع في الرأي، واختلاف في الحساب والتقدير»[2].

---

(١) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور: (١٠/ ٣١).

(٢) التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم الخطيب: (٥/ ٦٢٨)،

رابعًا: تدني المعنويات وهبوط العزائم: وهي الحالة التي صورها القرآن الكريم لصحابة رسول الله ﷺ؛ حيث تفرقوا في الشعاب، وتاهت بهم الأودية، وسلك بعضهم فجاجًا مختلفة لا يلوي على شيء، قال جل جلاله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣].

ولما كان المرء مركبًا من جسم وروح، وكانت الروح تتفاعل بما حولها سلبًا وإيجابًا، فيرفع معنويتها كل جميل، ويخفضها القبيح والمؤذي، قال الله تعالى مخاطبًا أصحاب رسول الله ﷺ الذين دب الحزن إلى قلوبهم، وتسلل اليأس إلى نفوسهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

فالقائد المحنك هو من يعتني بمعنويات جنده، فلا يخوض معركة إلا بمعنويات عالية إذا رام النصر، وإلا فلا ينتظر من جنده البلاء والتقدم، و«لقد أثبتت كافة الحروب في كافة أدوار التاريخ أن التسليح والتنظيم الجيدين، والقوة العددية غير كافية لنيل النصر ما لم يتحلَّ المقاتلون بالمعنويات العالية بالإضافة إلى كل ذلك. لقد كان تنظيم وتسليح الإيطاليين في الحرب العالمية الثانية ممتازًا، كما كان عددهم ضخمًا، فلم يغن عنهم كل ذلك؛ لأن معنوياتهم كانت منحطة، لذلك كانوا عبئًا ثقيلًا على حلفائهم الألمان في كل معركة اشتركوا فيها معهم، بل كان الحلفاء يعتبرون المناطق التي تشغلها القوات الإيطالية فراغًا عسكريًا لا يُكترث به.

إن المعنويات العالية التي كان يتحلى بها المسلمون في بدر من أهم أسباب نصرهم في تلك المعركة الحاسمة»[(١)].

خامسًا: الحرب النفسية والإعلامية: ونعني بها تلك الحرب التي تتلاعب بالمعنويات والقوى، فتخفض معنويات العدو وترفع معنويات الجند، ولقد أخذَتْ الحرب النفسية في معركة أُحُد نصيبها، تبناها المنافقون والمشركون في آن واحد، فالمنافقون هم الذين قال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟

(١) الرسول القائد: محمود خطاب: (ص: ٨٤).

لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦]، وقال أيضًا: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٧]، وقال أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٨]. والمشركون هم الذين أشاعوا خبر مقتل رسول الله ﷺ، وحاولوا خلخلة الصف الإسلامي، وبث الإشاعات الكاذبة فيه، فقال تعالى مثبتًا للصف المسلم بعد إشاعة موت رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤].

فكانت الحرب الإعلامية حاضرة في غزوة أُحُد، فمنها ما يشترك فيه طرف الصف المسلم والصف المشرك، ومنها ما يتميز به أحدهما عن الآخر.

الحرب النفسية التي يشترك فيها الطرفان: وهي أمور مشتركة يعدُّها كل منهما حربًا نفسية على الآخر، وتتمثل في الآتي:

المبارزة قبل ابتداء المعركة: وهي عبارة عن إشعال فتيل البداية، وبث الرعب في الفريق الآخر، والتلاعب بالحالة النفسية لدى الخصم؛ ولذلك فقد انبرى في غزوة أُحُد حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري[(١)] متحديًا يطلب المبارزة، فوثب إليه حواري رسول الله ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه، فما راع طلحة إلا والزبير قد اعتلى إليه وصار معه على جمله، ثم اقتلعه عنه واقتحم به الأرض وذبحه بسيفه كالنعجة[(٢)].

(١) طلحة بن عبد الله بن عبد العزّى بن عثمان ابن عَبْد الدار بْن قصي بْن كلاب بْن مرة الْقُرَشِيّ العبدري. والد الصحابي الجليل: عثمان بن أبي طلحة صاحب مفاتيح الكعبة. قُتل طلحة في غزوة أُحُد كافرًا سنة: (٣هـ). انظر نسبه في ترجمة ولده في: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٣/ ١٠٣٤)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٥٧٢).

(٢) انظر: فقه السيرة: الغزالي: (ص: ٢٥٩)، والسيرة النبوية: ابن كثير: (٣/ ٤٠). وذكر بعضهم أن من قتله هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: دلائل النبوة: البيهقي: (٣/ ٢٣٨).

ومما له صلة بالمبارزة وما يحصل قبيل المعركة: ما فعله صاحب العصابة الحمراء، حامل سيف رسول الله ﷺ أبو دجانة رضي الله عنه، فقد خرج بين الصفين متبخترًا في مشيته، فرآه القائد الأعلى ﷺ فقال: ((إِنَّهَا مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ))[1]. فأي شيء تفعله مثل هذه التصرفات في نفوس الأعداء قبل ابتداء المعركة؟! لا شك أنها تضعف عزائمهم، وتوهي قواهم؛ ولذلك قيل لعنترة بن شداد: «أنت أشجع الناس وأشدها؟ قال: لا، قيل: فبمَ إذن شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أُقدِم إذا رأيت الإقدام عزمًا، وأُحْجِمُ إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أَدْخل موضعًا لا أرى لي منه مخرجًا، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع، فأُثني عليه فأقتله»[2]، وهو بهذا يقوم بحرب نفسية مؤثرة في الخصم، فحين يرى القوي شدة بطشه بمن أمامه فلا شك أن قلبه سيرتعب وإن كان شجاعًا.

التركيز على حَمَلة اللواء؛ إذ اللواء عند العرب قديمًا هو العنوان والهوية، فمادام مرفوعًا فإن الجند يستبسلون ويثبتون ويدومون بدوامه، وإذا انحنى انحنت معه عزائمهم، وخارت قواهم، واستسلموا للهزيمة، فترى كلًّا من الفريقين يحاول الوصول إلى حملة لواء عدوهم والقضاء عليهم؛ «لأن الإطاحة باللواء – وخاصة في ذلك العصر – يُعجِّل بهزيمة من يسقط لواؤهم؛ ولهذا كان لا يتحمل مسؤولية حمل اللواء في تلك المعارك إلا الأبطال المغاوير»[3].

من أجل ذلك وقف أبو سفيان[4] على بني عبد الدار حملة لواء المشركين مستفزًا لهم قائلًا: «يا بني عبد الدار، قد وُلِّيتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناس من قِبَلِ راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه. فغضب بنوا عبد الدار لقول أبي

(١) المعجم الكبير للطبراني، برقم: (٦٥٠٨)، باب: السين: (٧ / ١٠٤)، من حديث سماك بن خرشة رضي الله عنه، وقال الهيثمي: «فيه من لم أعرفهم». مجمع الزوائد، برقم: (١٠٠٧٠)، كتاب: المغازي والسير، باب: منه في وقعة أحد: (٦/ ١٠٩).

(٢) شرح المعلقات السبع: حسين بن أحمد الزَّوْزَني: (ص: ٢٤١).

(٣) موسوعة الغزوات الكبرى: محمد باشميل: (٢/ ١٠٠).

(٤) أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموي القرشي. وُلد قبل الفيل بعشر سنين، وكان من أشراف قريش في الجاهلية، وكان تاجرًا يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم. أسلم يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حنينًا، وأعطاه من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية. فقئت عينه يوم الطائف، فلم يزل أعور حتى فقئت الأخرى يوم اليرموك. توفي سنة: (٣٣هـ) وقيل غير ذلك. ودفن بالبقيع. انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٤/ ١٦٨٠)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٦/ ١٤٤).

سفيان هذا أشد الغضب، وهموا به وتواعدوه، وقالوا له: نحن نسلمك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع.

وكان ذلك الذي أراده أبو سفيان، وقد أثَّر استفزاز أبي سفيان في حملة اللواء أشد الأثر، مما حملهم على الثبات ساعة احتدام المعركة، فلم يسقط لواء مكة من بين أيديهم حتى أُبيدوا عن بكرة أبيهم»[1].

أما جيش الإسلام فقد عقد له النبي ﷺ ثلاثة ألوية: لواء الأوس من الأنصار، ولواء الخزرج من الأنصار أيضًا، ولواء المهاجرين[2].

ولقد كرَّ المسلمون على حَمَلةِ لواء المشركين فأبادوهم عن بكرة أبيهم، وهم عشرة من فرسانهم الشجعان، حتى استقر في يد عبد حبشي، ثم في يد امرأة من بني الحارث من كنانة[3].

الحرب النفسية والإعلامية من طرف المشركين: ويمكن سرد بعض صور الحرب الإعلامية كنماذج يتضح بها المراد.

الصورة الأولى: أشاع المشركون أن محمدًا قد قُتل، فسُقِطَ في أيدي المؤمنين، وألقى بعضهم نفسه للاستسلام، وانهارت معنويات الجند ووقفوا مشدوهين، لا يعلمون كيف يتصرفون، مما حدا بالكثير من الكُتَّاب وأهل العلم إلى عزو سبب الهزيمة إلى هذه الإشاعة.

ويُعرف أثر هذه الإشاعة على الجيش الإسلامي بالموقف الذي علم فيه الصحابة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ لم يُقتل، حينها نادى المنادي: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، وتجمعوا حوله، واستعادوا بعض قوتهم بعد الشتات والخور[4]. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ

(١) موسوعة الغزوات الكبرى: محمد باشميل: (٢/ ٩٠، ٩١)

(٢) انظر: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: علي بن عبد الله السمهودي: (١/ ٢١٩).

(٣) انظر: المغازي: الواقدي: (١/ ٢٢٥- ٢٢٨)، وإمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي: (١/ ١٤٢، ١٤٣).

(٤) انظر: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى: علي بن عبد الله السمهودي: (١/ ٢٢٢).

أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٤].

الصورة الثانية: أشرف أبو سفيان على مرتفع ونادى منه المسلمين: أفي القوم محمد (ثلاث مرات)؟ فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة (ثلاث مرات)؟ ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب (ثلاث مرات)؟ ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، فما ملك عمر رضي الله عنه نفسه، فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم بدر، والحرب سِجَالٌ، إنكم ستجدون في القوم مُثْلَةً، لم آمر بها و لم تسُؤْنِي، ثم أخذ يرتجز: اُعْلُ هُبَلْ، اُعْلُ هُبَلْ، قال النبي ﷺ: ((أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟، قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟ قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: قُولُوا: اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ))[(١)].

الصورة الثالثة: ما وقع منهم بعد انتهاء المعركة، وذلك بعد أن قفلت قريش عائدة إلى ديارها، مرَّ أبو سفيان بركب يريدون المدينة فقال لهم: «أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟ قال: و لم؟ قالوا: نريد الْمِيْرَةَ، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أُرسلُكُم بها إليه، وأُحَمِّلُ لكم هذه غدًا زَبِيبًا بعكاظ[(٢)] إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيتهم»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، برقم: (٣٠٣٩)، كتاب: الجهاد والسِّيَر، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب: (٤/ ٦٦)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) عُكَاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، كانت قبائل العرب تجتمع فيه كل سنة ويتفاخرون، ويحضر شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرّقون. وسمّي عكاظًا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضًا بالفخار، أي يدعك، وقيل: مأخوذ من عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه. وهو نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال. كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوّال ثم تنتقل إلى سوق مجنّة. انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد: أبو عبيد الأندلسي: (٣/ ٩٥٩)، ومعجم البلدان: ياقوت الحموي: (٤/ ١٤٢).

(٣) السيرة النبوية: ابن هشام: (٢/ ١٠٣).

الصورة الرابعة: أن هذه الحرب الإعلامية قد شارك المشركين فيها اليهودُ؛ حيث نشروا في أوساط الناس قالة يريدون بها التشكيك في رسالة محمد ﷺ، فقالوا: «ما محمد إلا طالب ملك؛ ما أُصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه!»[1].

وبهذا يتبين ما لهذا الأمر من أهمية، وأن الواجب على المجتمع المسلم أن يكون محصّنًا ضد هذه الإشاعات التي تفتك بالعزائم، وتوهن القوى، وخاصة في هذا الزمن الذي تنوعت فيه وسائل الإعلام، حيث تصل الشائعة لمن هو في أقصى الأرض في نفس اللحظة التي تصل فيه إلى من هو في أدناها.

سادسًا: الخيانة المنبعثة من الداخل: وهي الحاصلة من المنافقين في الغالب، فهم داء الأمة في كل زمان، ومصدر هزيمتها في كل مكان، فكانوا أداة التثبيط والتخذيل، ورمز الخيانة من داخل الصف المسلم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [سورة آل عمران: ١٧٦، ١٦٨].

ومثل هؤلاء يقول الله تعالى فيهم: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ٤٧]، ففي غزوة أُحُد كان لهم موقف الخزي والخيانة حين عادوا بثلث الجيش، فأحدث ذلك ضعضعة في صف جيش

(١) المغازي: الواقدي: (١/ ٣١٧).

الإسلام، وكاد أن يفتتن بفعلتهم بعض المسلمين، فهمَّت طائفتان بالانسلاخ من الجيش والعودة إلى المدينة لولا أن تداركهما الله برحمته.

وكذلك فعلوا بعد أن عاد المسلمون من المعركة محمَّلين بالجراح، ففرحوا بما أصاب المسلمين من أذى، وهو مصداق ما قاله المولى الجليل سبحانه: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٠]، ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٠]. وكان من بين العائدين من أُحُد عبد الله بن عبد الله بن أُبَي[1] ﷺ، ابن رأس المنافقين، وكان الابن مؤمنًا صادقًا، فعاد يحمل آلامه، وبات يكوي جراحه بالنار حتى ذهب الليل، وجعل أبوه المنافق يقول له: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي! عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا، فقال ابنه: "الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير"[2].

ومن حربهم الإعلامية أنهم قعدوا للمسلمين بكل مرصد يصدون عن سبيل الله؛ قائلين لمن خرج منهم إلى الجهاد: لو أطاعونا وبقوا في المدينة ولم يخرجوا ما قتلوا وما ماتوا، ففضحهم الله، وبيَّن عوار دعواهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٨].

وهكذا سقطت أقنعة المنافقين في المدينة، فأصبحت أعيانهم معروفة لكل أحد، خاصة الذين انخذلوا في غزوة أُحُد عن المسلمين، فدمَغَهم القرآن بالخيانة، ووسمهم بالتواطؤ مع الكفر وأهله،

(١) عبد الله بن عبد الله بن أُبي ابن سلول الأنصاري. وسَلول: امرأة من خزاعة هي أم أُبي. وكان اسمه الحباب، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله. وهو أحد فضلاء الصحابة وخيارهم، شهد بدرًا والمشاهد كلها. أثنى عليه رسول الله ﷺ. استشهد يوم اليمامة في خلافة أبي بكر ﷺ سنة: (١٢هـ). انظر: الاستيعاب: ابن عبد البر: (٣/ ٩٤٠- ٩٤٢)، وأسد الغابة: ابن الأثير: (٣/ ٢٩٧).
(٢) المغازي: الواقدي: (١/ ٣١٧).

وأظهر أنهم أقرب للكفر منهم للإيمان: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٧].

وهذا الأمر مكسب للمسلمين؛ فإنه وإن كانوا لم يحصل لهم القتل الجسدي إلا أنه قد قتلهم القرآن معنويًا، فأصبحوا في عراء مكشوف، يعرفهم الصغير والكبير، ويسِمُونَهُم بالذلة والخيانة، وينسبونهم إلى الخسة والدناءة[1].

سابعًا: الاتكال على النفس، والعُجب بكثرة العدد: يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٢٣- ١٢٦]، فإن الله الذي نصر القلة الذليلة في بدر، لا يرضى منهم الاتكال على النفس وقوتها، ويكره منهم العجب بكثرة العدد، وهو ما حصل من المسلمين في غزوة حنين، حين قال قائلهم: "لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ"[2]؛ وذلك حين رأى تعداد الجيش البالغ اثني عشر ألف مقاتل، فخالط النفوس شيء من العجب، وتراخت معه بعض النفوس عن توكيل أمرها إلى الله، وركنوا إلى قوتهم، ونسوا أن الله ما نصرهم يومًا لكثرة عددهم، ولا لقلة عدد عدوهم، وإنما بتوكلهم على الله، وإيمانهم به، فما هو إلا أن استقبلتهم هوازن بعدد لم يروا مثله قط من السواد والكثرة، وذلك في غبش الصبح، فخرجت تلك الكتائب من مضيق الوادي، فحملوا حملة واحدة على المسلمين حتى انكشفوا عن رسول الله ﷺ وولوا هاربين، وثبت رسول الله ﷺ ومعه

(١) انظر: فقه السيرة النبوية: منير الغضبان: (ص: ٤٧٤، ٤٧٥).

(٢) مستخرج أبي عوانة، برقم: (٦٧٥٤)، كتاب: الحدود، باب: محاربة رسول الله المشركين يوم حنين. (٤/ ٢٧٩). وقد نسب بعضهم هذه المقالة إلى رسول الله ﷺ. انظر: السيرة النبوية: ابن هشام: (٢/ ٤٤٤)، ونسبها آخرون إلى أبي بكر رضي الله عنه. انظر: المغازي: الواقدي: (٣/ ٨٩٠).

نفر يسير من أهل بيته وأصحابه، وجعل يناديهم حتى أقبلوا كأنهم الإبل تحن على أولادها[1]. وقد سطَّر الله هذه الحادثة بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة التوبة: ٢٥، ٢٦]، «اتكل المسلمون على قوتهم في مبدأ الأمر فانهزموا، ثم لما عدلوا عن غرورهم، وتضرعوا إلى ربهم، كان النصر حليفهم»[2].

ثامنًا: إرادة الدنيا: فإن المسلم لا يريد بجهاده إلا الله، ولا يسعى لغير رضاه، وقد فرق الله بين من يجاهد ويريد الآخرة، ومن يجاهد ويريد الدنيا: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٢]. ولما أراد بعض الرماة الدنيا، وتركوا موقعهم قاصدين جمع المغنم، تسببوا في إلحاق الهزيمة بأنفسهم وبالآخرين، ولو أنهم نبذوا الدنيا وراءهم ظهريًّا لكان خيرًا لهم وأقوم؛ فإن «من ترك الدنيا لأجل الدين، فإنه يوصله إلى مطلوبه من الدنيا أيضًا ...، وهو يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله ورجَّح الدين على الدنيا آتاه الله الأمرين معًا على أحسن الوجوه»[3].

هذه أهم أسباب الهزيمة التي من سلك فجاجها أوصلته إلى دارها، ومن تنكب طريقها نجا من عواقبها، والعاقل من عرف طريق الخير فسلكه، وعرف طريق الشر فحاد عنه.

(١) انظر: إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي: (٨/ ٣٨٩).

(٢) التفسير المنير: وهبة الزحيلي: (١٠/ ١٥٨).

(٣) المصدر السابق: (١٠/ ١٥٦، ١٥٧).

الخاتمة.

وبعد هذا التطواف في أرجاء سورة آل عمران، والتنقل بين أفنائها اليانعة، والجني من قطوفها الدانية، يطيب للباحث أن يضع رحله على ضفاف مجموعة من المضامين التربوية التي زخرت بها السورة الكريمة، قام بجمعها وإيراد ما تيسر له منها، مع اعترافه بالعجز والتقصير، واعتذاره عن الخطأ والتجاوز:

فَإنْ أَصَبْتُ فَلا عُجْبٌ وَلا غَـرَرٌ وإنْ نَقَصْتُ فَإنْ النَّاسَ مَـا كَمُلُـوا
والكاملُ اللهُ في ذَات وفي صِـفَة ونَاقصُ الذَّات لَمْ يَكْمُلْ لَهُ عَمَـلُ[1]

فلله الحمد من قَبْلُ ومن بَعْدُ، وله الثناء على كل نعمة وفضل، وبه المستعان في كل جهد وعمل. له الحمد حمدًا لا يُحصى عددًا، ولا يُحدُّ أمَدًا، على ما أنعم به من التمام، وتكرم به من التوفيق والإعانة، فما كان من توفيق فمِنْهُ تَوالَى فَضْلُه، وما كان من سداد فمن تَكرُّمِه تَتابعَتْ آلاؤُهُ، وما كان من زَلَلٍ فمن تقصير الباحث وصُنْعِه، وعجزه وضعفه.

وقد قام الباحث باستنباط جملة من المضامين التربوية المختلفة، والتي تنوعت بين جانب العقيدة والعبادات، وجانب الفضائل والأخلاق، وجانب العبادات والمعاملات، مع التزام المنهج العلمي في البحث والاستنباط، وبيان الأثر المترتب من تلك المضامين على الفرد والمجتمع.

وعليه؛ فقد توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات التي بانت له خلال مسيرة البحث والاستنباط وهي:

(١) لم أقف على قائل هذين البيت، وهناك تضارب في نسبتهما، فنسبهما البعض إلى الشافعي رحمه الله، ونسبه آخرون إلى الأخفش، ولا يُعلم أي أخفش منهم. و لم أجدهما موثَّقيْن في كتاب بعد البحث والاطلاع، وإنما وجدتهما على صفحات الإنترنت.

أولًا: النتائج:

من خلال العيش في رحاب آيات الله البينات في سورة آل عمران اتضحت للباحث أمورًا استنتجها من وحي آيات الله الكريم، وأهم هذه النتائج هي:

١- أن القرآن المجيد زاخر بكل ما يريده الباحث فيه من الفوائد من كل زاوية يأتيه منها، ويتميز بالفرائد التي لا يمكن لباحث أن يصل فيها إلى حَدٍّ، أو يقف لها على منتهى.

٢- تُعتبر سورة آل عمران من أعظم سور القرآن الكريم التي تحمل أثرًا كبيرًا في الجانب التربوي، فيمكن أن يستقي منها المربُّون ما يرْوُون به عطش أمتهم، ويسقون به أجيالًا ربما أصاب الجفاف التربوي بعض ميادينها، فيفيضون عليها مما التمسوه من أساليب التربية والتقييم غيثًا مغيثًا.

٣- تناولت السورة الكريمة أركان التربية بشكل مميز، فخاطبت المربي، والمتربي، ووضحت الوسيلة والأسلوب، وذلك بمنهج متكامل يستفيد منه كل من أراد الطريق التربوي السليم.

٤- في سورة آل عمران منهج تربويّ متكامل، يلامس كل ما تحتاجه الشخصية المسلمة في أغلب مراحلها، وخاصة في باب المعاملات، ففي تعاملها مع الله جاء بيان ما يجب اعتقادها في الخالق والمعبود، وتوضيح ما يجب عليها من الأمور الموصلة إليه أمرًا ونهيًا. وفي باب تعاملها مع أبناء جنسها ودينها جاءت جملة من المضامين التي تُنظِّم طبيعة التعامل فيما بينهم البين، وتهذب حياتهم، وتدعوهم لالتزام صالح الأخلاق، وتنهاهم عن مفسدات الحياة بينهم، مع التنويع في ذلك بين الأمر والإرشاد تارة، وبين النهي والوعيد تارة أخرى. وفي باب تعامل الشخصية المسلمة وعلاقتها مع غيرها ممن ليسوا على ملَّتها، وكل من خالفها في دينها، فقد جاء التوضيح لسبيل التعامل معهم سلمًا بالحوار والمجادلة، وحربًا بالجهاد والقتال في سبيل الله، وفي كل حالة وضعت الحدود، ورسمت الطرق السليمة لنجاح تلك التربية.

٥- التربية بالشمولية والعموم، وعدم التجزئة والاقتصار على بعض الفئات دون بعض، فقد تميزت السورة المباركة بالشمولية في تناول المواضيع التربوية؛ فاهتمت بالفرد والأسرة والمجتمع،

وبالرجل والمرأة، وبالطفل والشيخ، فحددت المعالم الواضحة، ورسَمَت الطُّرق السليمة للتربية الصحيحة، وخاطبت كلًّا على حِدَةٍ بشكل يدعو إلى التأمل والإعجاب.

٦- التربية بتنويع الأساليب التربوية والدعوية، وهذه التربية بادية في سورة آل عمران بشكل لافت، فمع أهل الكتاب وغير المسلمين كان التنوع في معاملتهم واضحًا، سواء في أسلوب دعوتهم وجهادهم بالكلمة، أو في أسلوب دعوتهم وجهادهم بالسيف، وفي كل حالة وضعت الأخلاق والسُّبل التربوية المناسبة؛ في إشارة واضحة إلى ضرورة التنويع في أساليب الدعوة إلى الله مع الناس عامة، ومع من هم على دين الإسلام من باب الأولى والأحرى.

٧- العناية بالتربية بالابتداء بالأهم فالأهم، والتدرج في بناء المسلم بناء متينًا، ويتمثل ذلك بابتداء السورة بتثبيت القاعدة الأساسية المتمثلة بإرساء أعمدة التوحيد والعقيدة، ثم القيام بحشد لوازم التربية واحتياجاتها؛ وذلك ببيان ما يجب من العبادات والمعاملات، ثم تنظيم علاقة الحياة والمعيشة بمن حوله، ليكون شخصًا إيجابيًا مع كل من يدور في فلكه.

٨- التربية بالتمحيص والابتلاء، فقد نالت الجماعة المسلمة حظها من التربية في سورة آل عمران، فرباها الله بالشدائد التي تَطْبَعُ في القلوب درسًا لا ينسى، وهيَّأها بالابتلاءات لتكون على أُهبة الاستعداد لقيادة الأمم، فكانت النتيجة كما أرادها الله عز شأنه.

٩- التركيز على المواطن التي تطيش فيها العقول في الغالب فتتنصل عن مبادئ التربية وأولويات الأخلاق، حيث يُغلِّب الإنسان فيها جانب النفس والهوى، فيظلم نفسه وغيره، ويعصي ربه ومولاه، ومن تلك المواطن: موطن الجدل والاختصام، وموطن الجهاد والاقتتال، ففيهما يحضر داعي النفس وشحّها، ويغيب داعي العقل والتربية، فجاء التركيز عليهما في هذه السورة المباركة كأسلوب تربوي بليغ؛ لكي يستصحب الإنسان التربية والأخلاق في سائر شؤون حياته.

١٠- التربية بالالتفات إلى ما قد يتسلل إليه التغافل والإهمال، أو التناسي والانشغال، وهذا واضح في تناول السورة لما يمكن أن ترقى به الروح وتسمو، خاصة في ظل الانشغال بالدنيا ومتاعها، فيهتم البعض بالجسد على حسابها، وبكماليات الحياة قبل ضرورياتها، فنلاحظ أن الله قد أعطاها

حظها من التربية، وأطلق لها عنان التفكر في الكون الفسيح، تسرح فيه فيغمرها الإيمان والتصديق، وتتأمله فيغشاها برد الرضا واليقين، فيكون في تربيتها صلاح لها وللجسد من ورائها.

تلك عشرة كاملة من النتائج المستوحاة من سورة آل عمران، وربما أن هناك غيرها هي أهم مما ذُكر لم يطف عليها طائف الاستنتاج والاستنباط، وهناك أخرى ربما كان لها صلة بما ذُكر من باب أو من آخر.

ثانيًا: التوصيات والمقترحات:

في نهاية هذا البحث يوصي الباحث – بعد الوصية بتقوى الله – بجملة من الوصايا، وأهمها:

١- أن يكون هناك مشروع تتبناه بعض الجامعات أو الجهات يَدْرُسُ سور القرآن الكريم، ويستنبط منها مضامينها، سواء كانت تربوية أو عقدية أو فقهية أو اجتماعية أو غيرها؛ بحيث يتم اختيار بعض السور المناسبة لكل جانب من الجوانب، والعمل عليها بشكل منظم، ففي القرآن عجائب لا تنقضي، وفوائد لا تنفد أبدًا.

٢- ألَّا يُكتفى في تدريس السيرة النبوية أو تفسير القرآن العظيم أو التاريخ بسرد الأحداث سردًا عابرًا، بل لا بد من الوقوف على الدروس والعبر التي تحملها تلك الأحداث، واستغلالها في معالجة مشاكل الحاضر الواقع، والاستفادة منها في تقويم اعوجاج السلوك لدى الكثير من الناس.

٣- الاستفادة من هذه المضامين التربوية، والسعي لتطبيقها في كل ما يتناسب مع ظروف الحياة وتقلبات الأزمان، وذلك على جميع الأصعدة، الشخصي منها والمجتمعي، والعمل على نشرها، وتربية الناشئة على مائدتها.

٤- الاهتمام بإبراز الجوانب التي تميز بها رسول الله ﷺ وصحابته ﷺ معه في كل شؤون الحياة؛ لتكون محل الاقتداء والتأسي، بدلًا من الاقتداء بمن لا يرقى أن يكون صالحًا للاقتداء به، والتأسي بأخلاقه وأفعاله، ففي رسول الله ﷺ القدوة الحسنة.

الفهارس

الفهارس

١ - فهرس الآيات

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	٢-سورة البقرة		
١	﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ ...﴾	٢٤	٣١
٢	﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ ...﴾	١٠٩	٥٣
٣	﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ ...﴾	١٣٦	٣٠، ١٤٦
٤	﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾	١٦٣	١٦
٥	﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا ...﴾	١٩٠	١٧٢، ١٧٣
٦	﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ ...﴾	١٩٣	١٧١
٧	﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن ...﴾	٢١٦	١٧٢، ١٧٩
٨	﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾	٢٣٧	١٠٥
٩	﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ...﴾	٢٥٨	١٤٠
١٠	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ...﴾	٢٦٧	٨٣
١١	﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾	٢٧٥	٨٥
	٣-سورة آل عمران		
١٢	﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ...﴾	١-٣	٢١
١٣	﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾	٢	١٧، ٤٨
١٤	﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ...﴾	٦	٤٨، ١٢١
١٥	﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾	٧	١٤٢
١٦	﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا ...﴾	٩	٤٩، ٨٢
١٧	﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ ...﴾	١٤	٨٥
١٨	﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ ...﴾	١٧	١٧

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
١٩	﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾	١٨	٤٨، ٤٩
٢٠	﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ ...﴾	١٩	٥١
٢١	﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ ...﴾	٢٠	١٢٦، ١٥٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٢٩
٢٢	﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ ...﴾	٢٥	٤٩
٢٣	﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾	٢٨	٦١، ٦٢
٢٤	﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ...﴾	٢٨، ٢٩	٦١
٢٥	﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ...﴾	٢٩	٦٢
٢٦	﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا ...﴾	٣٠	٤٩
٢٧	﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾	٣١	٥٦، ٥٧، ٥٨
٢٨	﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ...﴾	٣١، ٣٢	٥٦، ٥٩
٢٩	﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	٣٤	١٢١
٣٠	﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ ...﴾	٣٣، ٣٤	١٤٥
٣١	﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى ...﴾	٣٥	٩٦، ٩٨
٣٢	﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا ...﴾	٣٦	٩٦
٣٣	﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾	٣٧	٦٩، ٧٠، ٧٣، ٩٦، ٩٨
٣٤	﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ...﴾	٣٨-٣٩	٧٣
٣٥	﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ...﴾	٣٨	٧٠، ٩٧
٣٦	﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ...﴾	٤٢	٩٦، ١٠٢
٣٧	﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ ...﴾	٤٥، ٤٦	١٢٢
٣٨	﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ ...﴾	٤٥-٤٩	٧٤
٣٩	﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾	٥١	١٢٢

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
٤٠	﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ ...﴾	٥٥-٥٧	٤٩
٤١	﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ ...﴾	٥٥	١٢٢
٤٢	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ...﴾	٥٦	٤٨
٤٣	﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ ...﴾	٥٩	٢٥، ١٢٤
٤٤	﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾	٦٠	١٢٤
٤٥	﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ ...﴾	٥٩، ٦٠	١٢٣، ٢٥، ١٤٢، ١٤٥
٤٦	﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ ...﴾	٦١	١٥٥، ١٢٤، ١٥٧
٤٧	﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ...﴾	٦٢	٤٩
٤٨	﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾	٦٤	٥٠، ١٥٠، ١٢٧، ١٣٨، ١٢٦، ١٥٠
٤٩	﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ...﴾	٦٥	١٥١
٥٠	﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ...﴾	٦٥-٦٦	١٣٧، ١٥٥
٥١	﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ...﴾	٦٦	١٥١، ١٥٩
٥٢	﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٦٨	٧٣
٥٣	﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ ...﴾	٦٧، ٦٨	١٥١
٥٤	﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ ...﴾	٦٩	١٣٠
٥٥	﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ ...﴾	٧٢	١٣٠
٥٦	﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ ...﴾	٧٥	١٣٠
٥٧	﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ ...﴾	٧٨	١٣٠
٥٨	﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ...﴾	٧٩، ٨٠	٥٢، ١٤٣
٥٩	﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ...﴾	٨٣	٥٢
٦٠	﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ ...﴾	٨٤	١٤٦، ١٥٢
٦١	﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ ...﴾	٨٥	٥١

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
٦٢	﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن ...﴾	٩٢	٨٢، ٨٣
٦٣	﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا ...﴾	٩٣	١٤٧
٦٤	﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ ...﴾	٩٥	٥٠
٦٥	﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾	٩٨- ١٠٠	٥٢
٦٦	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ ...﴾	١٠٠	١٣٠
٦٧	﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ...﴾	١٠١	٥٣
٦٨	﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾	١٠٣	١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠
٦٩	﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ ...﴾	١٠٤	٧٥، ٧٧
٧٠	﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ...﴾	١٠٥	٧٩، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠
٧١	﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾	١٠٦	٨٠
٧٢	﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ ...﴾	١٠٦، ١٠٧	٤٩
٧٣	﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ ...﴾	١١٠	٧٥، ٧٧، ٨٠، ١٣٠، ١٣٣
٧٤	﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ...﴾	١١٣، ١١٤	١٣٠، ١٣٣
٧٥	﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ...﴾	١١٣- ١١٥	٧٦
٧٦	﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾	١١٣	١٣٠
٧٧	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ ...﴾	١١٨- ١٢٠	٦٣
٧٨	﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾	١١٨	٦٤
٧٩	﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ ...﴾	١١٩،	٦٥

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
		١٢٠	
٨٠	﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ...﴾	١٢١	١٩١، ٢١٨
٨١	﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ...﴾	١٢٢	٢١٧
٨٢	﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ...﴾	١٣٠	٨٥، ٨٦، ٨٧
٨٣	﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾	١٣١	٥٠
٨٤	﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾	١٣٣	٣١، ٥٠
٨٥	﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾	١٣٤	١٠٥
٨٦	﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ...﴾	١٣٣، ١٣٤	٨١، ٨٣، ١٠٤، ١٠٦
٨٧	﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ...﴾	١٣٥	٩٣، ١٠٥
٨٨	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ...﴾	١٤٢	١٨٢
٨٩	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ...﴾	١٤٢-١٤٣	١٩٥، ١٩٨، ١٩٩
٩٠	﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ...﴾	١٤٤	١٩٦
٩١	﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	١٥٢	٢٠٧، ٢٠٩، ٢٠٣، ٢٣٥، ١٩٥، ٢٢٤، ٢٢٥
٩٢	﴿فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ ...﴾	١٥٣	١٩٦، ٢١٠، ١٩٣، ٢٠٤، ٢١٠
٩٣	﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ ...﴾	١٥٤	١٩٤، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٢٣
٩٤	﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ ...﴾	١٥٧	١٨١
٩٥	﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾	١٥٩	١٠٥، ١٨٨، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١٨٣، ٢٢٠، ٢٠٥، ٢١٨
٩٦	﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ...﴾	١٦٠	٢١٦

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
٩٧	﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ ...﴾	١٦٥	١٩١، ١٩٧، ٢٠٣
٩٨	﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ...﴾	١٦٦-١٦٧	١٦٩، ١٩٨
٩٩	﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ ...﴾	١٦٩-١٧١	١٨١، ١٧٥
١٠٠	﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ ...﴾	١٧٩	١٨٢، ١٩٩
١٠١	﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ...﴾	١٨٠	٨٢، ١٩١
١٠٢	﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾	١٨٢	٦٥
١٠٣	﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾	١٩٠	٨٩
١٠٤	﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾	١٩١	٩٣
١٠٥	﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ ...﴾	١٩٠، ١٩١	٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤
١٠٦	﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ ...﴾	١٩٩	١٣١
١٠٧	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ...﴾	٢٠٠	٢٢، ٣١
	٤-سورة النساء		
١٠٨	﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾	١١	٣٥
١٠٩	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا ...﴾	٤٧	١٢٧
١١٠	﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ...﴾	٨٣	٢٢٦
١١١	﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾	٨٩	٦٦
١١٢	﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ﴾	٩٥، ٩٦	١٧٦
١١٣	﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾	١٠٤	٢٠٦
١١٤	﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾	١٤٨	١٦٣
	٥-سورة المائدة		
١١٥	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ ...﴾	٨	١٦٣
١١٦	﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾	١٣	١٠٥

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
١١٧	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ ...﴾	٢٠	٧٥
١١٨	﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ...﴾	٥٤	٥٩
١١٩	﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ ...﴾	٥٩	١٤٧
١٢٠	﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ...﴾	٧٢	١٢٢
١٢١	﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ ...﴾	٧٨، ٧٩	٧٦
	٦-سورة الأنعام		
١٢٢	﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ...﴾	٨٢	٥٥
١٢٣	﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ ...﴾	١٠٨	١٦٠
١٢٤	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى ...﴾	١٥٩	١٠٧
	٧-سورة الأعراف		
١٢٥	﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾	٥٦	١١٣
١٢٦	﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ ...﴾	٩٦	٧٤
١٢٧	﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ...﴾	١٦٥	٧٦، ٧٨
١٢٨	﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا ...﴾	١٧٩	٩٣
١٢٩	﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾	١٩٩	١٠٥
	٨-سورة الأنفال		
١٣٠	﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ ...﴾	٢٥	٨٠
١٣١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ...﴾	٤٥	٢١٥
١٣٢	﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾	٦٠	٢١٨
	٩-سورة التوبة		
١٣٣	﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...﴾	٢٤	٥٧، ٥٩
١٣٤	﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ...﴾	٢٩	١٧٢
١٣٥	﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ...﴾	٤١	١٧٢، ١٧٣

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
١٣٦	﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...﴾	٧١	٧٦
١٣٧	﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ ...﴾	٩٢	١٨٠
١٣٨	﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ...﴾	١١١	١٧٥
	١١-سورة هود		
١٣٩	﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ...﴾	٣٢	١٣٦
	١٥-سورة الحجر		
١٤٠	﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾	٩٤	١٣٩
	١٦-سورة النحل		
١٤١	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾	٩٠	١٦٣
١٤٢	﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ...﴾	١٢٥	١٣٨، ١٥٦، ١٣٦، ١٥٧، ١٦٠
	١٨-سورة الكهف		
١٤٣	﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾	٥٤	١٥٦
	١٩-سورة مريم		
١٤٤	﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا ...﴾	٤٢-٤٨	١٤٠
١٤٥	﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾	٦	٩٧
١٤٦	﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾	١١	٧٠
١٤٧	﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ ...﴾	٢١	١٢٤
١٤٨	﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾	٣٠	١٢٢
١٤٩	﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾	٣٦	١٢٢
	٢٠-سورة طه		
١٥٠	﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾	٤٤	١١١
١٥١	﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ ...﴾	١٣٢	٧٣
	٢٢-سورة الحج		
١٥٢	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ ...﴾	٣	١٣٦، ١٥٩

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
١٥٣	﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾	١٨	٦٥
١٥٤	﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾	٣٩	١٧١، ١٧٣
١٥٥	﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ...﴾	٤٦	٩١
١٥٦	﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	٦٨	١٦٣
	٢٤-سورة النور		
١٥٧	﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ ...﴾	٢٢	١٠٥
١٥٨	﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ...﴾	٥٥	٥٥
	٢٧-سورة النمل		
١٥٩	﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ...﴾	١٤	١٦٥
١٦٠	﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾	٨٨	٩١
	٢٨-سورة القصص		
١٦١	﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ...﴾	٤٩٥٠	١٣٩
	٢٩-سورة العنكبوت		
١٦٢	﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴾	٤٦	١٣٩، ١٥١، ١٥٧، ١٣٨، ١٥٦
١٦٣	﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ ...﴾	٦٩	١٨١، ١٨٢
	٣٠-سورة الروم		
١٦٤	﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾	٧	١٢٧
١٦٥	﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ ...﴾	٣١، ٣٢	١٠٧
١٦٦	﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٧	٧٣
	٣١-سورة لقمان		
١٦٧	﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ...﴾	١١	٩١
١٦٨	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ...﴾	٢٩	٩٢
	٣٣-سورة الأحزاب		

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
١٦٩	﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ...﴾	٢١	١٤٤
	٣٤-سورة سبأ		
١٧٠	﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾	٢٤	١٥٥، ١٦٣
	٣٥-سورة فاطر		
١٧١	﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾	٢٨	٩٣
١٧٢	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ ...﴾	٤١	٩١
	٣٨-سورة ص		
١٧٣	﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ...﴾	٢٧	٩٣
	٣٩-سورة الزمر		
١٧٤	﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ...﴾	٧	٥٢
١٧٥	﴿وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾	٤٢	١٢٣
	٤٠-سورة غافر		
١٧٦	﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾	٥	١٣٦
١٧٧	﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ ...﴾	٦٠	٧٣
	٤١-سورة فصلت		
١٧٨	﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ ...﴾	٣٤	١١٢، ١٦٣
١٧٩	﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ ...﴾	٤٢	٤٦
	٤٢-سورة الشورى		
١٨٠	﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ...﴾	٤٠-٤٣	٥٨
	٤٣-سورة الزخرف		
١٨١	﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ...﴾	٥٨	١٣٧
١٨٢	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا ...﴾	٥٩	١٢٤
	٤٤-سورة الدخان		
١٨٣	﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾	٣٨، ٣٩	٩٣

م	طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
	٤٥-سورة الجاثية		
١٨٤	﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم ...﴾	١٦	٧٥
	٤٧-سورة محمد		
١٨٥	﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ...﴾	٣١	١٨٢
	٤٨-سورة الفتح		
١٨٦	﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾	٢٩	١١٣
	٥٠-سورة ق		
١٨٧	﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ...﴾	٦	٩٠
	٥١-سورة الذاريات		
١٨٨	﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾	٢٠	٩٢
	٥٨-سورة المجادلة		
١٨٩	﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ...﴾	١	١٤٠
١٩٠	﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ ...﴾	٢٢	٦٦
	٦١-سورة الصف		
١٩١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ...﴾	١٠-١٢	١٧٦
	٧٢-سورة الجن		
١٩٢	﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾	١٦	٧٤
	٧٩-سورة النازعات		
١٩٣	﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾	١٨، ١٩	١١١

٢ - فهرس الأحاديث

م	طرف الحديث	راوي الحديث	الصفحة
١	((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ))	أبو هريرة	٢١٣
٢	((احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ، فَلا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا ..))	عبد الله بن عباس	٢٠١، ٢٠٢
٣	((اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ..))	أسماء بنت يزيد	١٦
٤	((اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا،..))	بريدة بن الحصيب	١٧٢
٥	((اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ -الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ-؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ..))	أبو أمامة الباهلي	١٥، ٢٧
٦	((أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ ، قالوا يا رسول الله، ما نقول قال قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ..))	البراء بن عازب	٢٣١
٧	((أَلَمْ يَقُلْ رَسُولُ اللهِ (لَا تَبْرَحُوا))	عبد الله بن جبير	٢٠٢
٨	((الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ؛ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ ..))	عمرو بن شعيب	١١٠
٩	((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،))	أبو هريرة	١٧٢
١٠	((إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، ..))	أبو هريرة	١٠٧
١١	((إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ، هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، ..))	البراء بن عازب	٢٠١
١٢	((انْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَنَا مِنْ خَلْفِنَا إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا..))	الحصين بن عبد الرحمن وغيره	٢٠١
١٣	((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ..))	معاذ بن جبل	١٦٠، ١٦٤
١٤	((إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ))	أسامة بن زيد	١١٣
١٥	((إِنَّهَا مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ))	سماك بن خرشة	٢٢٩
١٦	((أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ قَالَ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ))	عائشة بنت الصديق	٧٢
١٧	((أَيُّهَا النَّاسُ لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ..))	عبد الله بن أبي أوفى	٢١٥
١٨	((بِتُّ فِي بيتِ ميمونة ليلةً، وَالنَّبِيُّ (عندها؛ لأنظُرَ كيف صلاةُ رسول الله..))	عبد الله بن عباس	٨٩
١٩	((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ..))	محمد بن إسحاق	١٢٦
٢٠	((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ...))	عبد الله بن عمرو	١٢٨
٢١	((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ ..))	أنس بن مالك	٦٦
٢٢	((دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ قَالَ لاَ أَجِدُهُ، قَالَ هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ ..))	أبو هريرة	١٧٧
٢٣	((ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ،..))	أبو هريرة	٨٧
٢٤	((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ،..))	عائشة بنت الصديق	٧٢
٢٥	((سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ،..))	عائشة بنت الصديق	١٨٦
٢٦	((صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ،..))	حذيفة بن اليمان	٢٧

م	طرف الحديث	راوي الحديث	الصفحة
٢٧	((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ..))	صهيب الرومي	١٩٦
٢٨	((فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ..))	حذيفة بن اليمان	٧٨
٢٩	((فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))	سهل بن سعد	١٢٩
٣٠	((قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ))	عبد الله بن مسعود	١٤٦
٣١	((قل لكاتبك يقرأ لنا كتاباً، قال إنه نصراني لا يدخل المسجد،..))	أبو موسى الأشعري	٦٤
٣٢	((قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ،..))	أنس بن مالك	٢٢٢
٣٣	((كَانَ أَحَبُّ العَمَلِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ))	عائشة بنت الصديق	٧٢
٣٤	((كان غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ (فمرض، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ ..))	أنس بن مالك	١٢٧
٣٥	((كَذَبْتُمَا؛ إِنَّهُ يَمْنَعُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ عِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ،..))	جابر بن عبد الله	١٤١
٣٦	((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))	أنس بن مالك	٢٠٩
٣٧	((كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ))	أنس بن مالك	١٩٣
٣٨	((لَا تَبْرَحُوْا مِنْ مَكَانِكُمْ وَلَوْ تَخَطَّفَنَا الطَّيْرُ))	أبو هريرة	٢١٢
٣٩	((لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا..))	البراء بن عازب	٢٠١
٤٠	((لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَدًا))	أبو هريرة	١٧٨
٤١	((لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى))	عبد الله بن عباس	١٤٨
٤٢	((لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ ..))	علي بن أبي طالب	٢٢٢
٤٣	((لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))	أنس بن مالك	١٧٨
٤٤	((لما كان ليلة من اللَّيالي قال يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي،..))	عائشة بنت الصديق	٨٩
٤٥	((لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ،..))	عبد الله بن عمرو	١٤٦
٤٦	((مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى قالوا نُسَوِّدُ وجوهَهُما، ونُحَمِّلهما،..))	عبد الله بن عمر	١٤٠
٤٧	((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مُشَاوَرَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ))	أبو هريرة	١٨٣
٤٨	((مَا شَأْنُكَ تَذْكُرُ صَاحِبَنَا قَالَ مَنْ هُوَ قَالُوا عِيسَى، تَزْعُمُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ...))	عبد الله بن عباس	١٤١ ،٢٥
٤٩	((مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الجَدَلَ،..))	أبو أمامة الباهلي	١٣٦
٥٠	((مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا..))	أبو هريرة	
٥١	((مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا ..))	أبو هريرة	١٩٧
٥٢	((مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ))	النعمان بن بشير	٨٠
٥٣	((مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ – كَمَثَلِ ..))	أبو هريرة	١٧٨
٥٤	((مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا، فَإِذَا ..))	أبو هريرة	١٩٧
٥٥	((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛..))	النعمان بن بشير	٨٤
٥٦	((مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ فَهُوَ حَبْرٌ))	عائشة بنت الصديق	٢٨
٥٧	((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ،..))	أبو هريرة	١٢٨ ،٧٩

م	طرف الحديث	راوي الحديث	الصفحة
٥٨	((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،..))	أبو سعيد الخدري	٧٩
٥٩	((مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ))	أنس بن مالك	١٠١
٦٠	((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ))	عائشة بنت الصديق	٥٦
٦١	((مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ أَنَا، أَنَا،..))	أنس بن مالك	٢٢٢
٦٢	((مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ – أو هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ –))	أنس بن مالك	١٩٤، ٢٢٢
٦٣	((مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ))	عائشة بنت الصديق	١٠١
٦٤	((نَهَى النَّبِيُّ (أَنْ يَقْضِيَ القَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ))	عبد الرحمن بن أبي بكرة	١٦٢
٦٥	((هَلْ لَكَ أَنْ نُلَاعِنَكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ قَالَ وَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ قَالُوا نَعَمْ،..))	جابر بن عبد الله	١٤٢
٦٦	((وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا))	عبد الله بن عباس	١٧٤
٦٧	((وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ))	عبد الله بن أبي أوفى	١٧٨
٦٨	((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ،..))	أبو هريرة	١٢٧
٦٩	((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ ..))	أبو هريرة	١٧٩
٧٠	((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ ..))	أبو هريرة	٢١٩
٧١	((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،..))	أبو هريرة	٥٨
٧٢	((وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي))	أبو هريرة	٢١٢
٧٣	((يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً، وقال فلان لطم وجهي، ..))	أبو هريرة	١٤٧
٧٤	((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تُفْلِحُوا))	طارق المحاربي	٥٥
٧٥	((يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك،..))	المقداد بن عمرو	١٨٥
٧٦	((يا رسول الله أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ.))	أبو سعيد الخدري	١٧٨
٧٧	((يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، ثَلَاثًا، قَالَ قُلْتُ إِنِّي عَلَى ..))	عدي بن حاتم	١٤٤
٧٨	((يا محمد أتريد منا أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم..))	عبد الله بن عباس	١٤٣
٧٩	((يا محمد افتقَرَ ربك؛ يسأل عباده القَرْض،..))	عبد الله بن عباس	٣١
٨٠	((يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ..))	النواس بن سمعان	٢٦

٣ - فهرس الآثار

م	طرف الأثر	القائل	الصفحة
١	((الْبَقَرَةُ، وَآلُ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءُ، وَالْأَعْرَافُ،))	ابن عباس	٢٩
٢	((الْجَمَاعَةَ، الْجَمَاعَةَ، إِنَّمَا هَلَكَتِ الأُمَمُ الْخَالِيَةُ بِتَفَرُّقِهَا،..))	ابن عباس	١٠٧
٣	((الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، جَدَّ فِينَا))	أنس بن مالك	٢٨
٤	((قل لكاتبك يقرأ لنا كتاباً، قال إنه نصراني لا يدخل المسجد))	عمر بن الخطاب	٦٤
٥	((لقد رَمَقْتُ نَبْلَنَا، ما رأيتُ سهمًا واحدًا مما نرمي به خيلهم.))	بعض الرماة	٢٠٢
٦	((لقد طلَبتُ القتل مَظَانَّهُ، فلم يُقَدَّرْ لي))	خالد بن الوليد	١٨٠
٧	((ما شاور قوم إلا هُدوا لأرْشَدِ أمرهم))	الحسن البصري	١٨٣
٨	((ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي عصاني محمد، ..))	أبي بن سلول	٢٣٣
٩	((ما من ليلةٍ يُهْدَى إليَّ فيها عرُوسٌ أنا لها مُحِبٌّ،..))	خالد بن الوليد	١٨٠
١٠	((مَنْ قَرَأَ آلَ عِمْرَانَ فَهُوَ غَنِيٌّ))	ابن مسعود	٢٩
١١	((مَنْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءَ كُتِبَ عِنْدَ اللهِ))	عمر بن الخطاب	٢٨
١٢	((نِعْمَ كَنْزُ الصُّعْلُوكِ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ يَقُومُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ))	ابن مسعود	٢٩
١٣	((والذي نفس الحسن بيده؛ ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا))	الحسن البصري	١٩٨
١٤	((يا أيها الناس من سرَّهُ أن يكون من تلك الأمة فليؤدِّ شرط الله))	عمر بن الخطاب	٧٥

٤ - فهرس الأعلام

م	العلم	الصفحة
١	إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي.	١٧
٢	إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي.	١٥٢
٣	أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي	٢٦
٤	أبو أمامة صديّ بن عجلان الباهلي.	١٥
٥	أبو حامد محمد بن محمد الغزالي	١١٢
٦	أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني	١٦
٧	أبو دجانة سماك بن أوس بن خرشة الأنصاري.	١٩٢
٨	أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري.	٧٩
٩	أبو سفيان صخر بن حرب.	٢٢٩
١٠	أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري.	٦٤
١١	أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر.	٧٩
١٢	أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.	١٢٧
١٣	أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي	١٥٨
١٤	أحمد بن محمد ابن عطاء الله الإسكندراني.	٧١
١٥	أسماء بنت يزيد	١٦
١٦	إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي.	٥٦
١٧	أنس بن مالك بن النضر الأنصاري	٢٨
١٨	بِلال بن رباح	٨٩
١٩	جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام.	٢٤
٢٠	حُذَيفةَ بن اليمان العبسي	٢٧
٢١	حسان بن ثابت الأنصاري	٢٠١
٢٢	الحسن بن علي بن أبي طالب	٢٤
٢٣	الحسن بن يسار البصري	٥٧
٢٤	الحسين بن علي بن أبي طالب	٢٤
٢٥	حمزة بن عبد المطلب بن هاشم	١٩١
٢٦	خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي	١٨٠
٢٧	خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية الأسدية.	١٤٥
٢٨	الخليل بن أحمد الفراهيدي	٤١

م	العلم	الصفحة
٢٩	الزبير بن العوام	١٩٢
٣٠	سعد بن معاذ الأنصاري	١٨٥
٣١	السيد النجراني	٢٥
٣٢	سيد قطب إبراهيم	٥٣
٣٣	الضحاك بن مزاحم الخراساني	١٧٩
٣٤	الطاهر بن عاشور	١٨
٣٥	طلحة بن أبي طلحة العبدري	٢٢٨
٣٦	طلحة بن عبيد الله التيمي.	١٩٤
٣٧	العاقب سيد وفد نجران	٢٥
٣٨	عائشة بنت أبي بكر الصديق	٢٨
٣٩	عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية الغرناطي.	١٧
٤٠	عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون	١٣٧
٤١	عبد الرحمن بن ناصر السعدي	١٨١
٤٢	عبد الله بن أبو أوفى	١٧٨
٤٣	عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول	١٨٦
٤٤	عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة	١٦٢
٤٥	عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي	٧١
٤٦	عبد الله بن جبير	٢٠٠
٤٧	عبد الله بن سَلَام	١٤١
٤٨	عبد الله بن عباس بن عبد المطلب.	٢٩
٤٩	عبد الله بن عبد الله بن أُبَي بن سلول	٢٣٣
٥٠	عبد الله بن عمر الدّبوسيّ.	١٦٢
٥١	عبد الله بن عمر بن الخطاب	١٤١
٥٢	عبد اللّه بن عمرو بن حرام الأنصاري	١٩٥
٥٣	عبد الله بن مَسْعُود بن غافل الهذلي	٢٩
٥٤	عبد الملك بن قريب بن علي الأَصمعي	٤٠
٥٥	عدي بن حاتم الطائي	١٤٣
٥٦	علي بن أبي طالب بن عبد المطلب	١٢٩
٥٧	علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم	١١٩
٥٨	علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري	١٥٧
٥٩	علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني.	٤٢

م	العلم	الصفحة
٦٠	عمر بن الخطاب العدوي	٢٨
٦١	عمران بن ماثان	١٤
٦٢	عُمَيرُ بن الحمام الأنصاري	٢٢٢
٦٣	عنترة بن شداد العبسي	٢١٥
٦٤	فاطمة بنت محمد رسول الله	١٤٥
٦٥	فرعون صاحب موسى.	١١١
٦٦	قتادة بن دعامة السدوسي	٧٥
٦٧	كسرى بن هرمز	١٤٤
٦٨	محمد بن جرير الطبري	٢٤
٦٩	محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.	٧٢
٧٠	محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي	١٦
٧١	محمد بن الحسن الموصلي البغدادي النقاش	١٧
٧٢	محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي	١٨
٧٣	مريم بنت عمران	١٥
٧٤	مصعب بن عمير القرشي العبدري	١٩٢
٧٥	معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى	١٦٠
٧٦	المقداد بن عمرو بن الأسود	١٨٥
٧٧	ميمونة بنت الحارث الهلالية.	٨٩
٧٨	النواس بن سمعان العامري	٢٦
٧٩	هرقل ملك الروم	١٢٦
٨٠	يحيي بن شرف بن مري النووي	١٠٨

٦ - فهرس الأماكن والبلدان

م	المكان	الصفحة
١	أُحُد	٢٠٠
٢	الأندلس	٦٥
٣	بدر	١٨٤
٤	بِرْك الغِمَادِ	١٨٥
٥	الحيرة	١٤٤
٦	ذو المجاز	٥٩
٧	عكاظ	٢٣١
٨	قرطبة	٦٥
٩	المدينة النبوية	١٩
١٠	مكة المكرمة	٣٩
١١	نجران	٢٣
١٢	اليمن	١٥٩

٥ - فهرس المصادر والمراجع

م	معلومات الكتاب
١	**القرآن الكريم**
٢	**أبجد العلوم:** محمد صديق خان، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.
٣	**أبيات مختارة:** عبد الله بن محمد البصيري، الناشر: مطابع الحميضي، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.
٤	**الإتقان في علوم القرآن:** جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
٥	**آثار البلاد وأخبار العباد:** زكريا بن محمد القزويني، الناشر: الناشر: دار صادر – بيروت.
٦	**الأحاديث المختارة:** محمد بن عبد الواحد المقدسي، تحقيق: د/ عبد الملك بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
٧	**إحياء علوم الدين:** أبو حامد الغزالي، الناشر: دار المعرفة - بيروت.
٨	**الأخُوَّة أيها الإِخْوَة:** محمد بن حسين يعقوب، الناشر: المكتبة الإسلامية - القاهرة.
٩	**آداب العِشْرَة وذكر الصحبة والأخوة:** أبو البركات محمد الغزي، تحقيق: د/ عمر موسى باشا، الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق، عام النشر: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
١٠	**الأدب الصغير والأدب الكبير:** عبد الله بن المقفع، الناشر: دار صادر – بيروت.
١١	**إرشاد الساري:** أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية – مصر، الطبعة: السابعة، عام النشر: ١٣٢٣ هـ.
١٢	**أسباب النزول:** علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عصام الحميدان، الناشر: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
١٣	**الاستيعاب:** يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
١٤	**أسد الغابة:** علي بن أبي الكرم بن الأثير، تحقيق: علي معوض - عادل عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٥	**الإسلام والاستبداد السياسي:** محمد الغزالي، تحقيق: محمد خالد القعيد، الناشر: نهضة مصر - القاهرة، الطبعة: السادسة، عام النشر: ٢٠٠٥م.
١٦	**الإصابة في تمييز الصحابة:** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل عبد الموجود - على معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٥هـ.
١٧	**أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة:** د/ حمد بن إبراهيم العثمان، الناشر: دار ابن حزم – بيروت، لبنان، الطبعة:

	الثانية، عام النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
١٨	**أصول النظام الاجتماعي في الإسلام:** محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الشركة التونسية للتوزيع – تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، الطبعة: الثانية.
١٩	**إعلام الموقعين:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
٢٠	**الأعلام:** خير الدين بن محمود الزركلي، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، عام النشر: ٢٠٠٢م.
٢١	**اقتضاء الصراط المستقيم:** أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب - بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٢٢	**الأم:** محمد بن إدريس الشافعي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، عام النشر: ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
٢٣	**الأمالي المطلقة:** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
٢٤	**إمتاع الأسماع:** أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٠ هـ -١٩٩٩م.
٢٥	**الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار:** يحيى بن أبي الخير العمراني، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، الناشر: أضواء السلف - الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩هـ -١٩٩٩م.
٢٦	**البحر المحيط في التفسير:** أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ.
٢٧	**بداية المجتهد:** محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد القرطبي، الناشر: دار الحديث – القاهرة، عام النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٢٨	**البدر الطالع:** محمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار المعرفة – بيروت.
٢٩	**بصائر ذوي التمييز:** محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة، عام النشر: ١٩٧٣م،١٩٩٢م، ١٩٩٦م.
٣٠	**بغية الوعاة:** جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية – لبنان، صيدا.
٣١	**بلوغ المرام:** أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: د/ سمير بن أمين الزهري، دار القبس للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م.
٣٢	**البناية شرح الهداية:** محمود بن أحمد العيني، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
٣٣	**البيان والتحصيل:** محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، تحقيق: د/ محمد حجي وآخرون، الناشر: دار الغرب الإسلامي –

	بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
٣٤	**تاج العروس:** محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
٣٥	**تاريخ ابن خلدون:** عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
٣٦	**تاريخ الإسلام:** محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د/ بشار معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، عام النشر: ٢٠٠٣م.
٣٧	**تاريخ المدينة:** أبو زيد عمر بن شبة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، عام النشر: ١٣٩٩ هـ.
٣٨	**تاريخ دمشق:** علي بن الحسن ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
٣٩	**تأويلات أهل السنة:** محمد بن محمد الماتريدي، تحقيق: د/ مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٤٠	**التبصرة:** علي بن محمد اللخمي، تحقيق: د/ أحمد عبد الكريم نجيب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – قطر، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م.
٤١	**تبيين الحقائق وحاشية الشلبي:** فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية - بولاق، القاهرة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٣١٣ هـ.
٤٢	**التحرير والتنوير:** الطاهر بن عاشور، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، عام النشر: ١٩٨٤ هـ.
٤٣	**تذكرة الحفاظ:** محمد بن أحمد الذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
٤٤	**التعريفات الفقهية:** محمد عميم الإحسان المجددي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
٤٥	**التعريفات:** علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٤٦	**تعظيم الله جل جلاله:** أحمد بن عثمان المزيد، الناشر: مدار الوطن للنشر – الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م.
٤٧	**تفسير السمعاني:** منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم - غنيم بن عباس، الناشر: دار الوطن – الرياض، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٤٨	**تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:** عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤١٩هـ.

٤٩	**تفسير القرآن العظيم**: إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩هـ.
٥٠	**التفسير القرآني للقرآن**: عبد الكريم يونس الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة.
٥١	**التفسير الكبير**: فخر الدين الرازي: الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.
٥٢	**تفسير المراغي**: أحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
٥٣	**تفسير المنار**: محمد رشيد رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام النشر: ١٩٩٠م.
٥٤	**التفسير المنير**: د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤١٨ هـ.
٥٥	**التفسير الوسيط**: د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة : الأولى، عام النشر: ١٤٢٢هـ.
٥٦	**التفسير الوسيط**: علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.
٥٧	**التفسير الوسيط**: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة: الأولى.
٥٨	**تفسير آيات الأحكام**: محمد علي السايس، تحقيق: ناجي سويدان، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، عام النشر: ٢٠٠٢م.
٥٩	**تهذيب الأسماء واللغات**: يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان.
٦٠	**تهذيب اللغة**: محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ٢٠٠١م.
٦١	**التهذيب في فقه الإمام الشافعي**: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
٦٢	**تيسير العلام شرح عمدة الأحكام**: عبد الله بن عبد الرحمن البسام، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: مكتبة الصحابة – الإمارات، مكتبة التابعين – القاهرة، الطبعة: العاشرة، عام النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
٦٣	**تيسير الكريم الرحمن**: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.
٦٤	**جامع البيان**: ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
٦٥	**جامع العلوم والحكم**: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، عام النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦٦	**الجامع لأحكام القرآن:** القرطبي، تحقيق: حمد البردوني - إبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٦٧	**الجامع لمسائل المدونة:** أبو بكر محمد بن عبد الله الصقلي، تحقيق: مجموعة باحثين في رسائل دكتوراه، الناشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.
٦٨	**الجدول في إعراب القرآن:** محمود بن عبد الرحيم صافي، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان - بيروت، الطبعة: الرابعة، عام النشر: ١٤١٨هـ.
٦٩	**جلاء الأفهام:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة – الكويت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.
٧٠	**جمهرة اللغة:** محمد بن الحسين بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٩٨٧م.
٧١	**الجهاد:** عبد الله بن المبارك، تحقيق: د/ نزيه حماد، الناشر: الدار التونسية – تونس، عام النشر: ١٩٧٢م.
٧٢	**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح:** أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن، عبد العزيز بن إبراهيم، حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة – السعودية، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٧٣	**الجواب الكافي:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة – المغرب، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٧٤	**حادي الأرواح:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مطبعة المدني - القاهرة.
٧٥	**الحاوي الكبير:** علي بن محمد الماوردي، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩ هـ -١٩٩٩م.
٧٦	**حلية الأولياء:** أبو نعيم الأصبهاني، الناشر: السعادة - مصر، عام النشر: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
٧٧	**خواطر قرآنية:** عمرو خالد، الناشر: الدار العربية للعلوم، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٧٨	**الدر المختار وحاشية ابن عابدين:** محمد أمين ابن عابدين، الناشر: دار الفكر- بيروت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٧٩	**دلائل النبوة:** أحمد بن الحسين البيهقي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٥هـ.
٨٠	**ديوان أبي فراس الحمداني:** أبو فراس الحمداني، شرح: د/ خليل الدويهي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٨١	**ديوان بشار بن برد:** شرح الطاهر بن عاشور، تحقيق : رفعت فتح الله، محمد شوقي أمين، الناشر: مطبعة لجنة التأليف للطباعة والنشر – القاهرة، الطبعة: الأولى: عام النشر: ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

٨٢	**ديوان حافظ إبراهيم:** حافظ إبراهيم بك، ضبط وتنقيح: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، عام النشر: ١٩٨٧م.
٨٣	**ديوان حسان بن ثابت:** شرح عبدأ مهنَّا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٨٤	**ديوان طرفة بن العبد:** طرفة بن العبد البكري، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.
٨٥	**ديوان عنترة العبسي:** شرح الخطيب التبريزي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
٨٦	**ذيل تذكرة الحفاظ:** محمد بن علي الحسيني، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٨٧	**رجال المعلقات العشر:** مصطفى بن محمد الغلاييني، الناشر: المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٨٨	**الرحيق المختوم:** صفي الرحمن المباركفوري: الناشر: دار الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى.
٨٩	**الرد الجميل على المشككين في الإسلام:** عبد المجيد حامد صبح، الناشر: دار المنارة للنشر والتوزيع والترجمة – المنصورة، مصر، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.
٩٠	**رسائل ابن حزم:** علي بن أحمد ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى والثانية، عام النشر: ١٩٨٠، ١٩٨١، ١٩٨٣، ١٩٨٧م.
٩١	**الرسول القائد:** محمود شيت خطاب، الناشر: دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة- بغداد، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٩٦٠م.
٩٢	**روائع البيان تفسير آيات الأحكام:** محمد علي الصابوني، الناشر: مكتبة الغزالي - دمشق، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.
٩٣	**روائع التفسير:** عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الناشر: دار العاصمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.
٩٤	**روح المعاني:** محمود بن عبد الله الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٥هـ.
٩٥	**الروض المعطار:** محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٩٨٠م.
٩٦	**روضة العقلاء:** محمد بن حبان التميمي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.
٩٧	**زاد المسير في علم التفسير:** أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت،

	الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٢هـ.
٩٨	**زاد المعاد:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية – الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٩٩	**الزكاة في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة:** سعيد بن وهف القحطاني، الناشر: مركز الدعوة والإرشاد – القصب، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.
١٠٠	**زهرة التفاسير:** محمد بن أحمد أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.
١٠١	**سلسلة الأحاديث الصحيحة:** محمد ناصر الدين الألباني: الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٩٩٥، ١٩٩٦، ٢٠٠٢م.
١٠٢	**سنن ابن ماجه:** محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١٠٣	**سنن أبي داود:** سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - مَحَمَّد كامِل بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.
١٠٤	**سنن الترمذي:** محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
١٠٥	**السنن الكبرى:** أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.
١٠٦	**السنن الكبرى:** أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
١٠٧	**سنن النسائي الصغرى:** أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
١٠٨	**سير أعلام النبلاء:** محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٠٩	**السير والمغازي:** محمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
١١٠	**السيرة النبوية:** إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت – لبنان، عام النشر: ١٣٩٥هـ - ١٩٧٦م.
١١١	**السيرة النبوية:** عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

١١٢	**السيرة النبوية:** علي أبو الحسن الندوي، الناشر: دار ابن كثير – دمشق، الطبعة: الثانية عشرة، عام النشر: ١٤٢٥هـ.
١١٣	**شرح الرسالة:** عبد الوهاب بن علي الثعلبي، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م.
١١٤	**الشرح الكبير على متن المقنع:** عبد الرحمن بن محمد ابن قدامة المقدسي، الناشر: دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.
١١٥	**شرح المعلقات السبع:** حسين بن أحمد الزَّوْزَني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١١٦	**شرح النووي على مسلم:** يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٣٩٢هـ.
١١٧	**الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق:** عبد العزيز صالح، الناشر: مكتبة دار الزمان.
١١٨	**الشريعة:** أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: د/ عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن – الرياض، السعودية، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.
١١٩	**شعب الإيمان:** أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: د/ عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع – الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية - بومباي، الهند، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
١٢٠	**الشورى في الشريعة الإسلامية:** القاضي حسين المهدي، تقديم: د. عبدالعزيز المقالح.
١٢١	**الصحاح:** إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار: الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة، عام النشر: ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
١٢٢	**صحيح ابن حبان:** محمد بن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
١٢٣	**صحيح ابن خزيمة:** محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: د/ محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.
١٢٤	**صحيح أبي داود:** محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع – الكويت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.
١٢٥	**صحيح البخاري:** محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٢هـ.
١٢٦	**صحيح الجامع الصغير:** محمد ناصر الدين الألباني: الناشر: المكتب الإسلامي.
١٢٧	**صحيح مسلم:** مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٢٨	**صفوة التفاسير:** محمد علي الصابوني، الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

١٢٩	**الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة – الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٨هـ.
١٣٠	**طبقات المفسرين:** أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان الخزي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – السعودية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
١٣١	**طبقات المفسرين:** جلال الدين السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٣٩٦هـ.
١٣٢	**طبقات المفسرين:** محمد بن علي الداودي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان.
١٣٣	**طبقات النحويين واللغويين:** أبو بكر الإشبيلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الثانية.
١٣٤	**طريق الهجرتين:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار السلفية – القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٣٩٤هـ.
١٣٥	**طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية:** عمر بن محمد نجم الدين النسفي، الناشر: المطبعة العامرة، مكتبة المثنى – بغداد، عام النشر: ١٣١١هـ.
١٣٦	**عالمية الإسلام:** أنور الجندي، الناشر: دار المعارف – القاهرة.
١٣٧	**العرب في العصور القديمة:** لطفي عبد الوهاب، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الطبعة: الثانية.
١٣٨	**العقد التليد في اختصار الدر النضيد:** عبد الباسط بن موسى العلموي، تحقيق: د/ مروان العطية، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.
١٣٩	**عون المعبود وحاشية ابن القيم:** محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤١٥هـ.
١٤٠	**العين:** الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د/ مهدي المخزومي – د/ إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.
١٤١	**غريب الحديث:** أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق: د/ محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، الدكن، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤م.
١٤٢	**غريب القرآن:** عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: د/ عبد الله الجبوري، الناشر: مطبعة العاني – بغداد، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٣٩٧هـ.
١٤٣	**الغريبين في القرآن والحديث:** أبو عبيد أحمد الهروي، تحقيق: حمد فريد المزيدي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م.
١٤٤	**الفائق في غريب الحديث:** محمود بن عمرو الزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة – لبنان، الطبعة: الثانية.
١٤٥	**فتح الباري:** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، عام النشر:

	١٣٧٩هـ.
١٤٦	**الفرج بعد الشدة:** المحسن بن علي بن محمد التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، الناشر: دار صادر – بيروت، عام النشر: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
١٤٧	**الفروع وتصحيح الفروع:** محمد بن مفلح الحنبلي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
١٤٨	**فضائل القرآن:** محمد بن أيوب بن ضريس، تحقيق: غزوة بدير: الناشر: دار الفكر – دمشق، سورية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
١٤٩	**فقه السيرة النبوية:** منير محمد الغضبان، الناشر: جامعة أم القرى، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
١٥٠	**فقه السيرة:** محمد الغزالي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٧هـ.
١٥١	**الفقيه والمتفقه:** أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي – السعودية، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٢١هـ.
١٥٢	**فنون الأفنان:** أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الناشر: دار البشائر – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م.
١٥٣	**فوات الوفيات:** محمد بن شاكر صلاح الدين، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٩٧٣، ١٩٧٤م.
١٥٤	**الفوائد:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.
١٥٥	**في ظلال القرآن:** سيد قطب إبراهيم، الناشر: دار الشروق - القاهرة.
١٥٦	**القاموس المحيط:** محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، لبنان، الطبعة: الثامنة، عام النشر: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.
١٥٧	**قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر:** الطيب بن عبد الله بامخرمة، الناشر: دار المنهاج – جدة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٨م.
١٥٨	**كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم:** محمد بن علي التهانوي، تحقيق: د/ علي دحروج، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٩٩٦م.
١٥٩	**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:** محمود بن عمرو الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.
١٦٠	**كشف المشكل من حديث الصحيحين:** أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن -

	الرياض.
١٦١	**كشف المناهج والتناقيح**: محمد بن إبراهيم المناوي، تحقيق: د/ محمد إسحاق محمد إبراهيم، الناشر: الدار العربية للموسوعات – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.
١٦٢	**الكشف والبيان عن تفسير القرآن**: أحمد بن محمد الثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
١٦٣	**اللباب في الفقه الشافعي**: أحمد بن محمد بن أحمد بن القاسم الضبي، تحقيق: عبد الكريم العمري، الناشر: دار البخاري - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٦هـ.
١٦٤	**لسان العرب**: جمال الدين ابن منظور، تحقيق: رجب عثمان محمد، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.
١٦٥	**لطائف الإشارات**: عبد الكريم بن هوزان القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.
١٦٦	**مجادلة أهل الكتاب في القرآن والسنة**: د/ نور الدين عادل: الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م. وأصل الكتاب رسالة دكتوراة.
١٦٧	**المجالسة وجواهر العلم**: أحمد بن مروان الدينوري، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية - البحرين، دار ابن حزم - بيروت - لبنان، عام النشر: ١٤١٩هـ.
١٦٨	**مجمع الأمثال**: أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة – بيروت – لبنان.
١٦٩	**مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي**: أحمد قبش، الناشر: دار الرشيد، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١٧٠	**مجمع الزوائد**: نور الدين علي الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي – القاهرة، عام النشر: ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.
١٧١	**مجمع بحار الأنوار**: محمد طاهر بن علي الصديقي، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.
١٧٢	**مجموع الفتاوى**: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، عام النشر: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
١٧٣	**محاضرات الأدباء**: الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٠هـ.
١٧٤	**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٢هـ.

١٧٥	**المحلى بالآثار:** علي بن أحمد بن حزم، الناشر: دار الفكر – بيروت.
١٧٦	**مختار الصحاح:** محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية ، الدار النموذجية – بيروت، صيدا، الطبعة: الخامسة، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٧٧	**مختصر الخرقي:** عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقي، الناشر: دار الصحابة للتراث، عام النشر: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
١٧٨	**مدارج السالكين:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٧٩	**مدارك التنزيل وحقائق التأويل:** أبو البركات النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.
١٨٠	**مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية:** د/ عثمان جمعة ضميرية، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة: الثانية: عام النشر: ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
١٨١	**المدونة:** مالك بن أنس، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٨٢	**مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع:** عبد المؤمن القطيعي البغدادي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٢هـ.
١٨٣	**مرقاة المفاتيح:** الملا على القاري، الناشر: دار الفكر- بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
١٨٤	**المسالك والممالك:** عبد الله البكري الأندلسي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، عام النشر: ١٩٩٢م.
١٨٥	**مستخرج أبي عوانة:** أبو عوانة يعقوب بن إسحاق النيسابوري، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
١٨٦	**المستدرك على الصحيحين:** أبو عبد الله الحاكم: تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
١٨٧	**مسند أحمد:** أحمد بن محمد حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.
١٨٨	**المصباح المنير:** الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت.
١٨٩	**مصنف ابن أبي شيبة:** أبو بكر ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٩هـ.
١٩٠	**مصنف عبد الرزاق:** عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، الطبعة: الثانية، عام النشر: ١٤٠٣هـ.
١٩١	**مضامين تربوية في سورة البقرة:** أ. د/ آمال المرزوقي، بحث منشور في مجلة دراسات تربوية، المجلد العاشر، العدد: (٧١)، (ص: ١٦٥)، السّنة: (١٩٩٥م).

١٩٢	**المطلع على ألفاظ المقنع**: محمد بن أبي الفتح البعلي، تحقيق: محمود الأرنؤوط، ياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٩٣	**معالم التنزيل**: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى، عام النشر: ١٤٢٠هـ.
١٩٤	**معجم الأدباء**: ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
١٩٥	**معجم البلدان**: ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثانية، عالم النشر: ١٩٩٥م.
١٩٦	**معجم الصحابة**: عبد الله بن محمد البغوي، تحقيق: محمد الأمين الشنقيطي، الناشر: مكتبة دار البيان – الكويت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
١٩٧	**معجم الفروق اللغوية**: أبو هلال الحسن العسكري، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قُم»، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٢هـ.
١٩٨	**المعجم الفلسفي**: جميل صليبا، الناشر: الشركة العالمية للكتاب – بيروت، عام النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
١٩٩	**المعجم الكبير**: سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.
٢٠٠	**معجم اللغة العربية المعاصرة**: د/ أحمد مختار عبد الحميد. الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.
٢٠١	**معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**: عاتق بن غيث الحربي، الناشر: دار مكة للنشر والتوزيع - مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.
٢٠٢	**معجم المفسرين**: عادل نويهض، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
٢٠٣	**المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.
٢٠٤	**معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي: الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الثالثة، عالم النشر: ١٤٠٣هـ.
٢٠٥	**معجم متن اللغة**: أحمد رضا: الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت، عام النشر: ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.
٢٠٦	**معرفة الصحابة**: أحمد بن عبد الله أبو نعيم، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٢٠٧	**معرفة الصحابة**: محمد بن إسحاق ابن منده، تحقيق: د/ عامر حسن صبري، الناشر: مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٠٨	**معرفة القراء الكبار:** محمد بن أحمد الذهبي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.
٢٠٩	**المغازي:** محمد بن عمر الواقدي، تحقيق: مارسدن جونس، الناشر: دار الأعلمي - بيروت، الطبعة: الثالثة، عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٢١٠	**المغني:** موفق الدين ابن قدامة، الناشر: مكتبة القاهرة، عام النشر: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
٢١١	**المفاهيم الصحيحة للجهاد في سبيل الله:** د/ سعيد بن وهف القحطاني، الناشر: مطبعة سفير - الرياض.
٢١٢	**مفاهيم يجب أن تصحح:** محمد قطب، الناشر: دار الشروق - بيروت.
٢١٣	**مفتاح دار السعادة:** محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
٢١٤	**المفردات في غريب القرآن:** الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم- دمشق، الدار الشامية - بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٢هـ.
٢١٥	**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام:** د/ جواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة، عام النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٢١٦	**مقاييس اللغة:** أحمد بن فارس الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢١٧	الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.
٢١٨	**مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها:** على أحمد مدكور، الناشر: دار الفكر العربي، عام النشر: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٢١٩	**مناهج الجدل في القرآن الكريم:** د/ زاهر الألمعي: دار الكتاب العربي، ط: ٢، عام النشر: ١٤٠٠هـ.
٢٢٠	**المنهل الصافي:** يوسف بن تغري الظاهري، تحقيق: د/ محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٢١	**المهذب في فقه الإمام الشافعي:** أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٢٢	**الموافقات:** إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٢٢٣	**موسوعة الغزوات الكبرى:** محمد بن أحمد باشميل، الناشر: المكتبة السلفية - القاهرة، الطبعة: الخامسة، عام النشر: ١٤٠٦هـ.
٢٢٤	**موسوعة الفقه الإسلامي:** محمد بن إبراهيم التويجري، الناشر: بيت الأفكار الدولية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
٢٢٥	**الموسوعة الفقهية الكويتية:** وزارة الأوقاف الكويتية، الناشر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، عام النشر: من ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ.
٢٢٦	**الموسوعة القرآنية خصائص السور:** جعفر شرف الدين، تحقيق: عبد العزيز التويجري، الناشر: دار التقريب بين المذاهب

	الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.
٢٢٧	**نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:** إبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.
٢٢٨	**النكت والعيون:** علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت؛ لبنان.
٢٢٩	**النهاية في غريب الحديث والأثر:** مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
٢٣٠	**الهداية إلى بلوغ النهاية:** مكي بن أبي طالب: تحقيق: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.
٢٣١	**الهداية في شرح بداية المبتدي:** علي بن أبي بكر الفرغاني، تحقيق: طلال يوسف، الناشر: دار احياء التراث العربي – بيروت، لبنان.
٢٣٢	**الوافي بالوفيات:** صلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط – تركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
٢٣٣	**الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، الناشر: دار القلم – دمشق، الدار الشامية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٥ هـ.
٢٣٤	**وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى:** علي بن عبد الله السمهودي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤١٩هـ.
٢٣٥	**وفيات الأعيان:** أحمد بن محمد ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٩٠٠، ١٩٧١، ١٩٩٤م.
٢٣٦	**الولاء والبراء في الإسلام:** شعبان محمود البركاتي، الناشر: دار الدعوة الإسلامية، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.
٢٣٧	**يسألونك عن المعاملات المالية المعاصرة:** حسام الدين بن موسى محمد بن عفانة، الناشر: المكتبة العلمية– القدس، دار الطيب للطباعة والنشر – أبوديس، الطبعة: الأولى، عام النشر: ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

المواقع الإلكترونية

الموقع	الرابط
الموسوعة الحرة ويكيبيديا	https://ar.wikipedia.org/wiki/.
موقع ملتقى أهل التفسير	https://vb.tafsir.net/tafsir٣٥٤٩٠/#.Wo٨ZsK٤jTIU

٧ - فهرس الموضوعات

إهـــــداء ..... ج

شكر وتقدير ..... د

ملخص البحث ..... ه

Abstract ..... ز

مقدمة ١

أهمية البحث: ٢

أسباب اختيار الموضوع: ٣

أهداف البحث: ٣

أسئلة البحث: ٣

حدود البحث: ٤

منهج البحث: ٤

الدراسات السابقة: ٥

خطة البحث: ٧

الفصل التمهيدي: ١٣

التعريف بسورة آل عمران ومصطلحات البحث. ١٣

المبحث الأول: التعريف بسورة آل عمران. ١٤

المطلب الأول: معلومات السورة: (أسماؤها، آياتها وكلماتها وحروفها، ترتيبها، الهدف العام لها)..... ١٤

أولًا: أسماؤها: ١٤

ثانيًا: عدد آياتها، وكلماتها، وحروفها:.....١٩

المطلب الثاني: نزولها: (سبب النزول، زمن النزول، مكان النزول)، وفضلها.....٢٣

أولًا: نزولها:.....٢٣

ثانيًا: فضلها:.....٢٦

المطلب الثالث: علاقتها بما قبلها وما بعدها من السور، موضوعاتها. **٣٠**

أولًا: علاقتها بما قبلها وما بعدها من السور: ٣٠

ثانيًا: علاقة سورة آل عمران بسورة النساء: ٣٣

المبحث الثاني: التعريف بمصطلحات البحث. **٣٨**

المطلب الأول: تعريف المضامين..... **٣٨**

المضامين لغة:.....٣٨

المضامين اصطلاحًا:.....٣٨

المطلب الثاني: تعريف التربوية..... **٣٩**

التربوية لغة:.....٣٩

التربوية اصطلاحًا:.....٤٠

المطلب الثالث: تعريف الأثر. **٤١**

الأثر لغة: ٤١

الأثر اصطلاحًا: ٤١

المطلب الرابع: تعريف الفرد. **٤٢**

الفرد لغة:.....٤٢

الفرد اصطلاحًا:.....٤٢

المطلب الخامس: تعريف المجتمع. **٤٣**

المجتمع لغة: ٤٣

المجتمع اصطلاحًا: ٤٣

الفصل الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد والعبادات والأخلاق، وأثرها على الفرد والمجتمع. ٤٥

مدخل: ٤٦

المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بالعقائد. ٤٨

المطلب الأول: ترسيخ العقيدة، والتحذير من الشرك، والدعوة إلى التدين بالإسلام. ٤٨

أولًا: ما يخص ترسيخ العقيدة: ٤٨

ثانيًا: ما يخص التحذير من الشرك بالله عز وجل. ٥٠

ثالثًا: ما يخص التمسك بدين الإسلام والتحذير من الكفر بالله عز وجل. ٥١

أثر ترسيخ العقيدة والتدين على حياة الفرد والمجتمع: ٥٤

المطلب الثاني: محبة الله ورسوله ﷺ وشواهدهما. ٥٦

أثر محبة الله ورسوله ﷺ على الفرد والمجتمع: ٥٩

المطلب الثالث: مظاهر الولاء والبراء. ٦٠

الولاء لغة: ٦٠

الولاء اصطلاحًا: ٦٠

البراء لغة: ٦٠

البراء اصطلاحًا: ٦٠

أثر الولاء والبراء على حياة الفرد والمجتمع: ٦٦

المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بالعبادات. ٦٩

المطلب الأول: المداومة على العبادة والاستمرار فيها. ٦٩

أثر الاستمرار في العبادة على الفرد والمجتمع: ٧٢

المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..... ٧٥

أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الفرد والمجتمع: ٧٨

المطلب الثالث: الإنفاق في سبيل الله والتحذير من البخل. ٨١

أثر الإنفاق في سبيل الله على الفرد والمجتمع: ٨٢

المطلب الرابع: التحذير من أكل الربا..... ٨٥

المطلب الخامس: التفكر في مخلوقات الله. ٨٩

أثر التفكر في مخلوقات الله على الفرد والمجتمع: ٩٣

المبحث الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالأخلاق..... ٩٦

المطلب الأول: الاستعانة بالله في بناء الأسرة وتربيتها. ٩٦

أثر الاستعانة بالله في بناء الأسرة وتربيتها على الفرد والمجتمع:.....٩٨

المطلب الثاني: بيان قيمة المرأة في التربية وبناء الأخلاق. ١٠٠

أثر دور المرأة في التربية والبناء على الفرد والمجتمع:..... ١٠٢

المطلب الثالث: الإحسان إلى الناس بكظم الغيظ والعفو عنهم..... ١٠٤

أثر كظم الغيظ والعفو على الفرد والمجتمع: ١٠٦

المطلب الرابع: الحرص على التزام الجماعة وتحقيق الأخوة. ١٠٧

أثر الالتزام بالجماعة وتحقيق الأخوة على الفرد والمجتمع:..... ١٠٩

المطلب الخامس: الرحمة واللين في التعامل والخطاب..... ١١١

أثر الرحمة واللين في التعامل والخطاب على الفرد والمجتمع:..... ١١٢

الفصل الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بأهل الكتاب والتعامل معهم. وأثرها على الفرد والمجتمع. ١١٥

مدخل: ١١٦

المبحث الأول: أدب التعامل مع أهل الكتاب..... ١١٨

المطلب الأول: التعريف بأهل الكتاب. **١١٨**

مفهوم أهل الكتاب: ١١٨

المطلب الثاني: إقامة الحجج والبراهين على بشرية عيسى عليه السلام **١٢١**

أثر إثبات بشرية عيسى عليه السلام على الفرد والمجتمع: ١٢٥

المطلب الثالث: الحرص على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام عند مجادلتهم. **١٢٦**

أثر الحرص على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام على الفرد والمجتمع: ١٢٩

المطلب الرابع: العدل في النظر لأهل الكتاب والتعامل معهم. **١٣٠**

أثر العدل في النظر لأهل الكتاب والتعامل معهم على الفرد والمجتمع: ١٣٢

المبحث الثاني: مجادلة أهل الكتاب **١٣٥**

المطلب الأول: مفهوم مجادلة أهل الكتاب وشروطها **١٣٥**

أولًا: مفهوم المجادلة: ١٣٥

ثانيًا: شروط المجادلة: ١٣٧

١- شروط المجَادِل من أهل الإسلام ١٣٧

٢- شروط المجَادَل من أهل الكتاب ١٣٩

المطلب الثاني: نماذج من مجادلة النبي ﷺ لأهل الكتاب. **١٤٠**

أولًا: مجادلته ﷺ لليهود: ١٤٠

ثانيًا: مجادلته ﷺ للنصارى: ١٤١

ثالثًا: مجادلته ﷺ لليهود والنصارى مجتمعين: ١٤٣

رابعًا: مجادلته ﷺ لغيرهم من الطوائف: ١٤٣

المطلب الثالث: الثناء على أنبيائهم ومحاولة استمالة قلوبهم. **١٤٥**

أثر الثناء على الفرد والمجتمع: ١٤٨

المطلب الرابع: البدء في المجادلة بنقاط الاتفاق وتحرير محل النزاع. ١٥٠

أثر البدء في المجادلة بنقاط الاتفاق وتحرير محل النزاع على الفرد والمجتمع: ١٥٣

المطلب الخامس: التنويع في أساليب المجادلة والالتزام بآدابها. ١٥٥

القسم الأول: ما يتعلق بالمجادِل:..... ١٥٨

القسم الثاني: ما يتعلق بالمجادلة نفسها:..... ١٦٤

أثر التأدب بآداب المجادلة وتنويع أساليبها على الفرد والمجتمع: ١٦٦

الفصل الثالث: المضامين التربوية المتعلقة بالجهاد في سبيل الله. وأثرها على الفرد والمجتمع. ١٦٨

مدخل:..... ١٦٩

المبحث الأول: المضامين التربوية المتعلقة بأحكام الجهاد في سبيل الله. ١٧١

المطلب الأول: الجهاد في سبيل الله .. تعريفه .. ومشروعيته. ١٧١

أولًا: تعريف الجهاد في سبيل الله: ١٧١

ثانيًا: مشروعية الجهاد في سبيل الله: ١٧٢

ثالثًا: مراحل تشريع الجهاد: ١٧٣

المطلب الثاني: فضل الجهاد في سبيل الله وذكر مراتبه. ١٧٥

مراتب الجهاد في سبيل الله:..... ١٨١

أثر الجهاد والاستشهاد في سبيل الله على الفرد والمجتمع:..... ١٨١

المطلب الثالث: أهمية الشورى والاستماع للآراء قبل البدء في القتال..... ١٨٣

الشورى في غزوة بدر..... ١٨٤

الشورى في غزوة أُحُد ١٨٦

أثر الشورى على الفرد والمجتمع:..... ١٨٨

المبحث الثاني: المضامين التربوية المتعلقة بما حصل في غزوة أُحُد..... ١٩١

المطلب الأول: ضرورة التمحيص والابتلاء بالشدائد لتمييز الخبيث من الطيب. ١٩١

أثر التمحيص والابتلاء على الفرد والمجتمع: ١٩٦

المطلب الثاني: أثر المعصية الفردية والجماعية في حصول العقوبة والهزيمة..... ٢٠٠

المطلب الثالث: أسلوب التعامل مع المتولين والمخطئين في غزوة أحد..... ٢٠٤

أولًا: العتاب واللوم الرقيق: ٢٠٤

ثانيًا: المواساة ورفع الروح المعنوية: ٢٠٦

ثالثًا: العفو والصفح عنهم وإرشادهم إلى الاستغفار والتوبة: ٢٠٧

أثر التعامل الحسن مع المخطئ على الفرد والمجتمع:..... ٢٠٩

المبحث الثالث: عوامل النصر وأسباب الهزيمة. ٢١٢

المطلب الأول: عوامل النصر..... ٢١٢

أولًا: الإيمان بالله والطاعة له ولرسوله: ٢١٢

ثانيًا: الثبات والمرابطة مع تقوى الله:..... ٢١٣

ثالثًا: الصبر والإكثار من ذكر الله: ٢١٤

رابعًا: التوكل على الله: ٢١٦

خامسًا: الحكمة القيادية: ٢١٨

سادسًا: السكينة والطمأنينة:..... ٢٢٣

المطلب الثاني: أسباب الهزيمة. ٢٢٤

أولًا: الكفر بالله ورسوله وعدم طاعتهما: ٢٢٤

ثانيًا: المعصية ومخالفة الأوامر: ٢٢٤

ثالثًا: التنازع والاختلاف: ٢٢٥

رابعًا: تدني المعنويات وهبوط العزائم: ٢٢٧

خامسًا: الحرب النفسية والإعلامية: ٢٢٧

سادسًا: الخيانة المنبعثة من الداخل: ٢٣٢
سابعًا: الاتكال على النفس، والعُجب بكثرة العدد: ٢٣٤
ثامنًا: إرادة الدنيا: ٢٣٥
الخاتمة **٢٣٦**
أولًا: النتائج: **٢٣٧**
ثانيًا: التوصيات والمقترحات: **٢٣٩**
الفهارس **٢٤١**
١ـ فهرس الآيات **٢٤١**
٢ـ فهرس الأحاديث **٢٥٢**
٣ـ فهرس الآثار **٢٥٥**
٤ـ فهرس الأعلام **٢٥٦**
٦ـ فهرس الأماكن والبلدان **٢٥٩**
٦ـ فهرس المصادر والمراجع **٢٦٠**
٧ـ فهرس الموضوعات **٢٧٥**